

مذاهب وشخصيات



زکری مبارک

دراسة تحليلية لحياة وأربه

بقلم

أنور الجندی



اهداءات 2003

**المهندس/ طارق احمد احمد هاشم
القاهرة**

مذاهب و شخصیات

زکی مبارک

دراسة تحليلية لحياة وأدب

١٨٩٢ - ١٩٥٢

بمقدم

أنور الجندی

حياة زكى مبارك وأدبه

هذا كاتب لم ينصفه جيله • ولكنه ينصف الآن ، فى ظل نهضتنا العملاقة ويقظتنا العربية الكبرى ، التى جعلت الوفاء للعاملين ، والتقدير للباحثين ، من بين أكبر أعمالها •

فقد كان زكى مبارك من أصدق الناس إيماناً بمصر ، والقومية العربية ، واللغة العربية ، غير أن هذا الحصاد الضخم من العمل الأدبى الذى أنشأه خلال رحلته الطويلة قد شابه طابع الاعلان عن النفس • نتيجة لعوامل الاضطهاد ، والاحساس بعدم التقدير الذى كان سمة العصور المتخلفة ، والذى كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب ، أو يجرون فى ركاب الزعماء والوزراء وذوى النفوذ • وقد كان زكى مبارك أبياً عيوفاً ، لذلك لم يجد المجال مفتوحاً أمام كفايته ، سواء فى ميدان التربية والتعليم أو فى ميدان الفكر أو فى ميدان الصحافة • فقد شق طريقه بنفسه ، ونحت حظه من الصخر - على حد قوله •

قدم من ريف سنترىس شاباً معماً • فدخل الأزهر • وكان يمكن أن يكون واحداً من عشرات العلماء والفقهاء ، غير أن ذكاءه وطموحه وطبيعته المندفعة اللماحة ، قد مدت بصره الى بعيد • وكانت الجامعة المصرية القديمة قد فتحت أبوابها ، واتجه اليها كثيرون ، فتطلع اليها وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية ، ثم وقعت ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فيها الأزهر بقدر واضح ، فكان زكى مبارك من أعلام الخطابة فى هذه الفترة مع الشيخين : القاياتى ، ودراز • وامتاز بأنه كان الخطيب الذى يستقبل الوفود الأجنبية ، ويتحدث اليها بالفرنسية • وكان نصيبه السجن والاعتقال • ثم عاد بعد الثورة الى الأزهر ، واشترك فى الجامعة • وكتب فى صحف الحزب الوطنى ، وأحرز الدكتوراه من الجامعة القديمة برسالته عن « الأخلاق

عند الغزالي « وتطلع الى احراز الدكتوراه من جامعة باريس ، ولم يجد الوسيلة الى ذلك ، فأزمع السفر على حساب مقالات يكتبها في « البلاغ » وترك أسرته وأولاده • ومضى يذهب في اجازة كل صيف ويعود • ثم عزم على الانقطاع ، واكتفى بالقليل من المال ، حتى أحرز اجازة الدكتوراه بآطروخته « الشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » • وعاد عام ١٩٣٢ ليستقبل الحياة الأدبية ويشارك فيها ، بما عرف عنه من عنف ، وحرص على أحداث الضجيج ، حتى أطلق عليه لقب (الملاك الأدبى) • وفى خلال عشر سنوات ، حتى عام ١٩٤٢ ملأ الدنيا ، وشغل الناس • وكانت جريدة « البلاغ » ميدانه • يكتب فيها كل اسبوع « الحديث ذو شجون » فيشير الثائرة بآرائه ونقدهاته ومهاجماته التى خلقت له الخصومات مع رؤسائه فى وزارة المعارف ، و (زملائه) من الكتاب • ولكن « مبارك » كان صافى القلب لا يرى فى هذه المعارك خصومة شخصية ، وانما يراها وسيلة لتحريك الحياة الأدبية الراكدة وبعث الحياة فيها باثارة قضايا جديدة ، وأتيح له أن يطوف بالعالم العربى • ويعمل فى العراق وتمتلىء نفسه بحب الأمة العربية فيدافع عن القومية العربية ، ويدعو الى أن تحل اللغة العربية فى كليات الجامعة بدلا من الاجنبية • ويدخل فى معارك مع أكبر شخصيتين فى الصحافة والجامعة اذ ذاك هما : طه حسين ، وأحمد أمين ، وهى معارك من جانب واحد ، أدارها زكى مبارك وغذاها ، وشغل بها الناس شغلا عظيما •

وكانت الحياة الأدبية فى مصر والعالم العربى فى خلال هذه الفترة يتقاذفها الصراع بين تيارى الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية ، وبين دعوات القومية العنيفة ، كالفرعونية والفينيقية ، وبين دعوات القوميتين العربية والجامعة الاسلامية • وكان الاكابر من شأن الغرب ، والدعوة الى تقليده ، والجري وراءه ، وكان الغض من شأن العرب وتاريخهم ولغتهم وحضارتهم وأقطارهم هو طابع العصر • ولكن زكى مبارك قاوم هذا الاتجاه كله بعنف ، وسبح ضد التيار ، فى ايمان صادق عميق ، غير أن أساليبه لم تجد من الرصانة والحكمة واللباقة ما يحقق له ابلاغ رسالته الى الناس ، واقناع العقول بها • فكانت العاطفة أغلب ، وكانت الجسرة

تحمل الخطأ والكلمة العنيفة • وكان الطابع الذاتى يبرز كثيرا خلال ذلك كله ، فيقلل من شأن الآراء الصادقة المؤمنة بمصر والأمة العربية وتراثها ولغتها ومكانها •

وكان زكى مبارك مدرعا بالعافية ، كما يقول ، والمستقبل يتفتح له فى قوة ، لما كان يملك من وسائل ، ومآلف من كثير ، وما أنشأ من فصول • غير أن اغراقا وقع ، وامتد ، لم يلبث أن قضى على هذا العقل الناهض الذكى والحس القوى ، وأصاره فى سنواته العشر الأخيرة مجهدا ، قد انطوى من أسلوبه البليغ الرائع سحره ، ومن مادته قوتها ، ولم يلبث أن ضعف عن الاشتراك فى المعارك ، التى أثّرت ضده ، ثم انطفأ السراج مبكرا (١٨٩٢ - ١٩٥٢) •

ومنذ مات زكى مبارك ، لم يذكره ذاكر ، الا كتابات قليلة على فترات متباعدة • فكان حقا على عصرنا الذى جعل من الوفاء أولى علاماته أن يذكر « زكى مبارك » الكاتب الذى لم ينصفه جيله •

أنور الجندى

مطالع الحياء

ستريس بالمنوفية

عندما اتجه زكى مبارك من (ستريس) الى القاهرة ليدرس بالأزهر لم يكن أحد يدرى على وجه الاطلاق أن هذا الشاب الذى حفظ القرآن الكريم فى « كتاب » القرية سيكون من أبرز كتاب العربية فى العصر الجديد • وأنه سيثير ثورات فى الأدب والنقد لم يخف أوارها •

وفى الأزهر بدأت شخصية (زكى مبارك) تبرز فى وضوح • انه ذلك الانسان الملىء بالحيوية المندفع الجرىء الطلعة • الذى يتأهب للتبرير فى هذا المحيط الصاخب •

وقد استطاع زكى مبارك أن يؤكد شخصيته فى ثلاثة ميسادين : الخطابة والصحافة والشعر • فانه لم يلبث أن انضم الى الجمعية الأدبية التى انشأها الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الأزهر ، لتوجيه الأزهرين الى اجادة الشعر والانشاء • فما لبث أن أصبح أظهر الطلبة • وفى المسابقة التى أقيمت للخطباء فى مسجد محمد بك ابى الذهب كانت قصيدته هى أولى القصائد وأبرزها •

وفى الأزهر التقى زكى مبارك بأستاذين كبيرين ، كان لهما أكبر الأثر فى اتجاهه الأدبى ، وقد ظل يذكرهما حتى أيامه الأخيرة هما : الشيخ سيد بن على المرصفى • وقد صحبه سبع سنين • والشيخ محمد المهدي • وقد صحبه أربع سنين • وكان الشيخان أديبين ، يدفعان الشباب فى طريق الأدب ، فى الوقت الذى كان أساتذة الأزهر يدفعون الشباب فى طريق الفقه والدراسات الدينية المجردة • وكان لهذا أثره الذى اعترف به طه حسين والزيات ، وغيرهما من شباب الأزهر ، أولئك

الذين كانوا يتطلعون الى حياة جديدة ، تتحرر من القيود . ولذلك حرص الشيخ سيد بن على المرصفي على تجديد شباب « كتاب السكامل » للمبرد وتشذيبه . وقد حدث بين الدكتور زكى مبارك وبين السباعي يومى صراع طويل ، حول هذا الكتاب ، وحول رأى السباعي فى استاذة المرصفي .

وقد كان لصحبة زكى مبارك لهذين الشيخين أثرها فى طريقته فى التعبير ، وفى اسلوبه فى البيان ، من حيث الكيف والكم . فقد كان زكى مبارك ينظم القصيدة فى ثلثمائة بيت ، ثم عاد فكان ينظم مقطوعات قصيرة تبلغ أحيانا بيتين أو بيتا واحدا . وقد نشر بعض هذه المقطوعات فى « السفور » .

ولا يعرف بالضبط اليوم الذى وصل فيه زكى مبارك الى الأزهر . ولكنه على وجه التحقيق كان طالبا فى الأزهر عام ١٩١٠ يعيش بين الحواشى والتقارير ، وله صوت مسموع ، ولا بد أنه كان قد وصل الى الأزهر قبل ذلك بسنوات .

وقد كان زكى مبارك فى الوقت نفسه كاتباً يكتب فى جريدة « الأفكار » . ولم تلبث الثورة المصرية ان اندلعت سنة ١٩١٩ ، حتى كان فى مقدمة الداعين لها والعاملين . وكان من أبرز خطباء الأزهر فى هذه الفترة الى جوار الشيخين محمود أبى العيون وعبد اللطيف دراز .

وكان قبل ذلك قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة . كما اتصل بها عدد كبير من شباب الأزهر . وعلى وجه التحديد انتسب زكى مبارك للجامعة بصفة رسمية سنة ١٩١٦ .

وكانت دراسته الفرنسية من أشق الأمور التى منى بها وأقبل عليها ، وقد اتصل ببعض المدارس المسائية ، لهذا الغرض . ولكنه لم يلبث أن شق طريقه بقوة . فقد ذكر فى بعض كتاباته ، أن وفدا من الأجانب زار الأزهر أيام الثورة . فقام فيهم خطيبا ، باللغة الفرنسية . وحاز ذلك اعجابهم حين شاهدوا ازهريا معهما يصعد المنبر ويتكلم الفرنسية بطلاقة .

وليس من شك فى أن « زكى مبارك » فى خطواته هذه كان يتخذ من

طه حسين والزيات ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم من الأزهر بين الذين اتجهوا الى الجامعة القديمة ، مثالا له . . ولم يكن زكى مبارك في هذا الوقت يصغر هؤلاء الا بسنوات قليلة . . وقد كن عمره ابان ثورة سنة ١٩١٩ سبعة وعشرين عاما .

وقد كان زكى مبارك الشيخ الأزهرى الذى يطلب العلم فقيرا بسيط الحال . وكان يعيش حياة بسيطة فقيرة . ويسكن ربع الغورية . وقد صور الفرق بين حياته الأولى وحياته بعد ذلك بسنوات ، فقال : « كنت لأول عهدي بحياة القاهرة أعيش عيشة بسيطة . فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أنتقل لقضاء الصيف فى الريف . ثم تحضرت رويدا رويدا الى أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم فى سنتريس » .

ولم يكن زكى مبارك يعبأ بالأناقة ولا بحسن الملبس ولا يبدل اهتمامه بالمظاهر . وقد ظل كذلك الى آخر أيامه .

فى سنتريس

ولد زكى مبارك فى سنتريس عام ١٨٩٢ (١) على وجه التقريب ، وهى تلك القرية المجاورة للرياح المنوفى فى اقليم المنوفية ، وقريبة من القاهرة . أرضها من أجود الأرض . وكان والده من الزراعين الأذكياء الذين عرفوا بالخلق والكرم . وقد أحب زكى أباه . وكان موضع فخاره واعتجابه ، وقد رسم له صورة وصفية عندما توفى عام ١٩٣٥ تمثل فيه صباحة الوجه وصحة الدين وصدق القول وفصاحة اللسان وثبات الجنان والعزيمة والرزانة . وقال ان ثغره كان لا يعرف غير الابتسام ، حتى فى أشد الأزمات والخطوب . وأن الدنيا كانت عنده هيئة لا تستحق أن يقطب لها جبينه . وهذه هى الصورة التى رسمها زكى لأبيه « عبد السلام مبارك » .

(١) لم يكتب تاريخ ميلاده بالضبط . ولكنه قال فى مقدمة ديوان « الحان الخلود » الذى كتبه عام ١٩٤٧ « ان ديوان الحان الخلود يرد الى شبابى وقد جاوزت الخامسة والخمسين » . ومعنى هذا انه ولد عام ١٨٩٢ . وبذلك يكون قد توفى فى سن الستين (توفى فى فبراير ١٩٥٢ على اثر سقطة زلقت فيها قدماه . فكان النزيف الذى استنزف حياته ، رحمه الله) .

أبي

« لقد عرفت بموتك حقيقة نفسي • وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدي
في عالم الوفاء • فطب نفسا ان كان يعوزك ذلك • فما أثار موتك في
صدرى الا ذكرين غاليتين : ذكرى أمى التى فقدتها فى سنة ١٩١٧ •
وذكرى أخى سيد الذى فقدته فى سنة ١٩١٨ • أما أطفلى الذين دفتهم
من قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان • لأن حزنى عليهم نوع من
الأثرة •

•• أقسم ما رأيت أصبح منك وجهها ، ولا أصبح دينا ، ولا أصدق
قولا ، ولا أنصح لسانا ، ولا أثبت جنانا •

لقد أخرجنى موتك عن وقارى • ورماني بطوائف من التحرق
والالتياح • فاخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود • وكيف تتعاقب
النجوم فلا يعوقها أفول • ثم نظرت فرأيتك تذهب الى غير معاد • وفكرت
فى الغلالة الانسانية التى وعدت بها الأنبياء • وتمنيت أن تكون الحق كل
الحق • وأقسم ما كفرت منذ آمنت • ولكن موتك قلقل يقينى ، ورمى
بقلبي فى أتون من الجزع •

هل تعلم أنى ما تلفت الا رأيتنى مغمورا بأياديك • فهذا دمك يجرى
فى عروقى • وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب من الصخر
وعزيمة أمضى من السيف • وتلك رزائك أتمثلها ، فأزداد سخرية
بالحوادث والخطوب • وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع
الأحوال ، أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون من أن يقطب لها جبين الرجل
الشجاع • وذلك ايمانك ، أتذكره ، فأعرف أن اليقين كنز ثمين •

لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحزان • وكان النظر الى وجهك
ربيعا للقلب والروح • وكان اتجاه الفكر اليك يغمرنى بالرفق والروحانية •
وقد رسم زكى مبارك صورتين لحياته الأولى فى القرية : فقال فى

الأولى انه نشأ فلاحاً ، وما زالت في يده آثار الفأس والمحراث • وانه لم يعرف السعادة في ظلال العواطف الا بفضل ذلك العهد • وانه في ايام حداته : « كانت سنتريس لا تعرف الطلعات ، فكان الماء يحمل الى المنزل من النيل أو من السواقي • فكنت ترى في الصباح اسراباً من الصبايا يحملن جرات الماء ، وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب النشوان • وانه في تلك الايام ، أيام الشباب كن يخرج لصلاة الصبح • ثم ينقل مسرعاً الى داره • فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل • ويخرج الى الغيط • وهو مسرور جذلان ، لأنه سيشهد أسراب الصبايا في طريقهن الى السواقي أو النيل • وكانت تلك المشاهد تتكرر في الصباح ، وفي الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشون بقلوب مشبوبة في الغدوات والأصائل • وكان الشباب لا يغدو ويروح الا بقلب مفتون • »

أما الصورة الأخرى فيرسمها في مقدمة كتاب التصوف الاسلامي :

« كنت في حداتي - كأكثر من ينشئون في الريف - أشهد مجالس الصوفية • وكنت لأبى صلات روحية بأهل الطريق • وكنت أعرف وأنا طفل أنني موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد • وكذلك درجت على احترام ارباب الصوفية • وهكذا يجمع زكى مبارك بين شخصيتين مختلفتين في أعماقه ، لعلهما استمرتتا تتنازعانه طوال حياته •

صورة الشاعر المفرد ، والانسان العاشق الولهان •

وصورة الصوفي المؤمن ، المحب لله ••

أما سنتريس ، تلك القرية التي أخرجت « زكى مبارك » • فهي - كما وصفها - بلد طيب يمتاز عن أشمون وشطنوف بأشرفه على النيل •

قال : « ولم نهتد الى تحقيق الاسم • وبعض الناس يظن أن التسمية فيها مسحة رومانية • ولكن الأستاذ « محمد رمزي » يؤكد أنها تسمية مصرية • والمعروف أن هذا البلد قديم للغاية • وكانت مساكن أهله على تلال عالية ، آخرها يسمى « جرف العيسوية » • وهو تل لم يرفع الا منذ

• خمسين عاما • وكانت آخر بقاياہ مسجد سيدى سالم ومقامه •

وسيدى سالم هذا ، كان يظن علماء ستريس انه سالم بن عبد الله
أحد فقهاء المدينة • ولكنى رأيت أخيرا فى شرح العينى على البخارى أن
« سالم بن عبد الله » دفن بالمدينة • وقد بنى المسجد المقام على الأرض بعد
أن رفعت بقايا التل منذ ثلاثين عاما •

وكانت ستريس فى العهد الخالية من المعاهد التى يحج إليها
الشعراء (١)

وقد صور زكى مبارك مشاعره عن ستريس فى بعض قصائده فقال :
ليالى النيل واللذات ذاهبة وجدى عليكن أشجائى وأضنائى
لو يرجع الدهر لى منكن واحدة فى ستريس ويدنى بعض خلانى
أذن تبين دهرى كيف يرحمنى من ظلم همى ومن عدوان أحزائى
وقوله :

آه لو يسمع الزمان وتلقى من طوى قريهم عناد الزمان
وترى (ستريس) والدهر غف ما قضينا من الليالى الحسان
وقد رسم صورة « العيد » فى ستريس فقال :

« فى ستريس صورتان مختلفتان لطعام العيد • الأولى لعيد الفطر ،
والثانية لعيد الأضحى • ففي عيد الفطر يغيب الكعك • وهم فى بلدنا
ينطقونه بالحاء المهملة • ويكثر كذلك (المين) وهو أقراص صغيرة تحلى
بالسكر أو بالعجوة • وللكعك فى نفس أهل ستريس صورة الفرح
والانشراح • وهم لذلك يحرمونه على أنفسهم فى العيد ، اذا كان فى

(١) ادعى زكى مبارك فى مقال له بالبلاغ (١٧ من يونية سنة
١٩٣٢) بأن المتنبي زار ستريس وله فيها قصائد • ثم عاد فى خاتمة
مقاله فقال « وأهل العلم يرتابون فى نسبة هاتين القصيدتين الى المتنبي
ويرجحون أنها من وضع أحد شعراء العصر الحديث » • وهى القصائد
التي نشرنا بعضها من أبياتها فى هذا الفصل •

البيت حزن • والأهل والجيران يراعون خواطر من مات لهم ميت ، لم يمض عليه العيد فيمتنعون عن خبز الكعك • ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فانهم يصنعونه أحياناً للصدقة على روح الأموات ولصلاة العيد اسم طنان في ستريس • وأشهر مساجدها جامع أبي فراج • وجامع سيدى سالم • وهم يزعمون ان « ابا فراج » من العراق •

وان أهل ستريس يذهبون الى المسجد قبل الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتعبدون ورد السحر ، ويرتلون الدعوات والتسبيحات •

وزيارة الأموات في ليلة العيد من التقاليد المعروفة في ستريس • ولكن لا يبيت أحد منهم ، كما يقع في القاهرة ، ولا يذهب رجل الى المقبرة الا في يده فانوس • •

وفي خلال فترة حياته في القرية ، تعلم في المكتب وحفظ القرآن • وكان متطلعا في هذه الفترة الى نظم المواويل ولم يلبث زكى مبارك أن وجد طريقه الى الأزهر ، شأن لداته في ذلك العصر •

مطالع الحياة في الأزهر

ترك زكى مبارك قريته ستريس ، ويمم نحو القاهرة ليلحق بالأزهر سنة ١٩١٠ وهو في سن العشرين • وفي الأزهر بدأ حياة جديدة • كانت حياته بسيطة ساذجة ، في إحدى الأزقة القريبة من ذلك المعهد الذى كان له أثره الكبير في تحول حياته ، وقد سكن في ربع الغورية العتيق •

وكان من أبرز أساتذة الأزهر الذين تأثر بهم اثنان هما : سيد المرصفي وقد صحبه سبع سنين • ومحمد المهدي وقد صحبه أربع سنوات • وكان لهما أثرهما في طريقة فهمه للشعر • فبعد أن كان يكيّله بالمكيال ، حتى تصل القصيدة الى ثلثمائة بيت ، عاد الى المقطوعات حتى كان يكتب بيتا واحدا (١) •

(١) نشر زكى مبارك قصيدة من بيت واحد في مجلة السفور سنة ١٩١٦ تحت عنوان « ظلام الليل »
وجن على الليل حتى حسبته جفاء كريم او رجاء لثيم

وفد صور صلته بأستاذه الكبيرين : فقال فى فصل عقده عن الشيخ المهدي : أن هذا الشيخ « هو أول من نلقت عليه الأدب فى الجامعة المصرية • وقد صحبته فيها أربع سنوات ، وسمعت محاضراته فى عهد الجاهلية وعهد بنى أمية وعصر بنى العباس • وكنت أصل جناحه بمسد المحاضرة حتى يصل الى المحطة • وقد كان رحمه الله يؤثر سسكنى الضواحي على سسكنى العاصمة • ويمكن الحكم أنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر واستمعوا نداء الجيل • »

كما رسم صورة استاذہ سيد المرصفي فقال :

« يأيها الرجل الذى عرفت بفضلہ اسرار اللغة العربية ، واستطعت بفضلہ أن أرفع رأسى بين أساتذة الأدب وحملة الأفلام •

يأيها الرجل : أنا مدين لك بكل شيء فى حياتى اللغوية والأدبية • ولا يزاحمك فى قلبى الا إنسان واحد ، هو فقيد الأدب والبيان : الشيخ محمد المهدي • لست وحدى تلميذك أيها الشيخ الجليل • فهناك مشات انتفعوا بعملك وأدبك • ولكنى الرجل الوحيد الذى بكى موتك فى حرارة دونها بكاء الأطفل • فى سنة ١٩١٣ رأيت فى الأزهر رجلا نحيل الجسم غائر العينين لا يفصح نسيماہ عن شيء • وحوله عشرة من الطلاب وهو ينشد بصوت شجى :

حمامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر النوادي مطيرها

أبني لنا لازال ريشك ناعما ولازلت فى خضراء جاد نميرها

فجلست أستمع لانشاده • وما هى الا لحظة حتى تبينت أن الذى يحرم دروس ذلك الرجل لا يخرج من الأزهر الا بصفقة المغبون • ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس فى حماسة واعجاب • وكانت عادة الرجل أن يلقى الأسئلة على الطلبة فى تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستنبطون الجواب

وبعد يومين من اتصالى بدرسہ جاءت كلمة ابن عباس (ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله :

أهذه مثلية أم منفية ؟ فقلت : يريد ابن عباس ان شعر ابن أبي ربيعة
يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب • فينقلها من الهدى الى الضلال •

فقل الشيخ رحمه الله في حماسة شديدة : «ايه ياعروس الأدب!»

وكانت أول كلمة حيت الى قلبي دراسة الآداب •

كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت أبكر الى درسه لأقرب منه، وكنت
أكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسة ، هي اليوم
أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف • وكن الشيخ قد تعود أن
يرانى أمامه • فجئت يوما متأخرا • ورفض الطلبة أن يفسحوا لي المجال •
فقل الشيخ : أين زكى ؟ • فأجبت من بعد : «هناذا يا مولاي » • فقال
الشيخ رحمة الله عليه : « وسعوا له لعله ينفع » •

« فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما أكتب ، ولو
مرة واحدة ، فليذكر أن الفضل في ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد
المرصفي ، طيب الله ثراه »

وانى لأذكر انه كان يلقي درسا في مسجد السلطان برقوق • ثم
حضر الشيخ على الزنكلونى ، حفظه الله • فقل الشيخ : انه ليحزنتنى
يا شيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غفلة عن تشجيع أبنائها • وانى لأخشى
أن يضع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين •

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى • فسكنت أحضر
جميع دروسه ، وأصحبته فى الطريق • وأمضى الى بيته ، فأطلع على مالهديه
من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية • وأنشده شعري • فيقومه • ويصلح
منه فى رفق كثير • •

ولم يلبث أن اشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ • فكان واحدا من خطبائها
المبرزين • وقد ظل طول حياته يذكر موقفه هذا ويزدهى به • وقد حق
له أن يزدهى فان هذا الحظ من المشاركة فى ثورة سنة ١٩١٩ لم يتح
للكثيرين من كتاب مصر • وكان يردد دائما كلمته « أقدمت يوم جسد
الخطب غير وجل ولا هباب » •

وقد كتب عن هذه الفترة من حياته عديدا من الفصول والكلمات :
يقول : « كانت السلطة العسكرية تبحث عني لتقتلني • وكنت من
خطباء الثورة المصرية وشعرائها • وكان الجواسيس قد أخبروا السلطة
العسكرية أنني ألقى قصيدة سياسية في الأزهر • وكان يجب أن أحترس
فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكاني • فقضيت ثلاثة أشهر
وأنا لا أعرف أين أبيت • كان مأوى غرفة في سطح بيت يقيم بها أحد
الشبان الأقباط من أبناء ستريس • وهو شاب على جانب من اللطف والذوق
هو الأستاذ أنيس ميخائيل (١) •

وقد أرسل زكي مبارك خطابات الى صديقه أنيس ميخائيل ، نشر
منها هذا الخطاب في كتابه « البدائع » وهذا جانب منه :

من رسائل المعتقل

« سأضرب صفحا عن الدمعة التي سكبتها على القرطاس • لأن مثلي
لا يبكي له • ولا يبكي عليه • إنما خلقت لأكون مثلا في الشمم والاباء •
ولو كان بي حب الدعة والطمانينة لما مكثت في المعتقل هذه الشهور الطوال •
فقد فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل ولكني
أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد • وأقسم
لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الانجليز
لما كان في ذلك ما يزعج حنينا قيد أنملة عن معاداتهم ، حتى يكون الجلاء
وأعيدك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر ، ان تم ونحن أحياء ، ينسينا
ما فعلوا بنا ، وبأهلينا ، منذ كان الاحتلال •

ليست انجلترا هي العدو الوحيد للأمة المصرية بل هناك عدو آخر

(١) كان زكي مبارك يلجأ الى منزل أنيس ميخائيل بحي القللي
في ضاحية السبتية قبل أن تعتقله السلطة العسكرية البريطانية
الدخيلة المحتلة .

مارس ١٩٢٠ - من رسالة الى صديقه أنيس ميخائيل .

ما زال من قبل يبطش بالأمة غير وان ولا راحم • ألا وهو الجهل • هذا
العدو اللدود ، الذى تستعين به انجلترا لاغتصاب وادى النيل • وسأعرف
ما أصنع حين أعود الى القاهرة ولو بعد حين • سأعرف كيف أحارب
الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رؤوس من يستغلون جهل الأمة ،
فينالون به ما لهم من سىء الأغراض ومنكر الشهوات • • كما كتب فيما بعد
ذكرياته عن هذه الفترة من حياته تحت عنوان :

ذكريات طالب الشراك في الثورة

« كنت من خطباء الثورة المصرية ، فاكثرت بنارها وشهدت آلام
التشريد ، والاعتقل شهورا طوالا • ومع هذا فما تمثلت هذه الأيام ، الا
بدت لى بعيدة غاية البعد ، كأنما ألقى بها القدر فى واد من النسيان
سحيق • • »

ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والتوثب
لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب نتطلع الى الخلاص من
الآصار التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية •

وكانت السلطة العسكرية البريطانية المحتلة قد منعت الناس طوال
أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل • فلما كان يوم ١٠ من فبراير
سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا الى قبر مصطفى كامل • وذهبت مع فريق
من الطلبة • ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندا يقرأ القرآن • والناس
يستمعون فى صمت ورهبة • وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل (بك)
ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية • وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال •
وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة • فقبضوا
أياما وأسابيع • وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن
والاعتقال •

ولأذكر الآن أننا ذهبنا الى الأزهر لإقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة
معهما علمها الخاص • ووقفنا صفوفنا أمام الأزهر نخطب ونهتف • وظلت

الطائرات الانجليزية تجوم فوق رموسنا تحويما وقحا • وبقينا كذلك حتى
انتصف النهار • •

ومن مظاهر ايام الثورة أن الخطب كانت تجرى منظمة في الأزهر
كل مساء • وكان الشيخ عبد ربه مفتاح ينقل أخبارها الى جريدة الأهرام •
كما كانت الخطب والمظاهرات واقامة المتاريس والاستحكامات في كل مكان
في مصر • بين جميع الطبقات • وبين الجنسين • وكان الأزهر يموج كل
مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية • وكان رئيس الخطابة يومئذ
الشيخ محمود أبو العيون • وكان الانسان لا يصل الى موقف الخطيب الا
بجهد جهيد • وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع • وظللت أياما
لأخطب • وطال الانتظار • وفي مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية •
وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية • فسألني الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم
فتقدمت بجرأة وحماسة • وخطبت خطبة فرنسية رنانة • شهد الشيخ
الزنكلوني بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية • ومنذ تلك
اللحظة كنت أصل الى موقف الخطيب برغبة الجمهور الذى كان ينتظر
خطبى كل مساء • وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادى (بك) والشيخ
مصطفى القاياتى • والدكتور محجوب ثابت • وغيرهم من الأساتذة والطلبة
والثقفين والشبان والفتيات • •

ومما سجله فى بعض كتاباته قوله عن هذه الفترة :

« كان الانجليز قد سمحوا للمعتقلين أن يستحموا فى البحر
مرتين فى الأسبوع • فكنت اوغل فى البحر ايفالا شديدا • فيرفع الجود
بنادقهم ويهددوننى بالرصاص اذا لم أرجع الى الشاطئ • وكان الوهم
عندهم أننى قد أصبح الى أن أصل الى الشاطئ الفرنسى » (١) •

كما ذكر أنه كان يشتري فى المعتقل بجزء من طعامه (كتبا) •

ولا شك أن هذه الفترة من حياة زكى مبارك تعطى خطا عريضا من
خطوط تلك الشخصية • ولقد كان مجمل هذا الأثر ما صورته فى قوله :

(١) من مقدمة ديوانه « الحان الخلود » - ١٩٤٧

« لقد تمردت على الظلم كما تمرد أجدادي • فكنت بين خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ • فاعتقلني الانجليز وصيرونى أسير حرب •

ان أيام الاعتقال أوردتني أحزانا كثيرة ، وهى أحزان ما زالت تفسر قلبى • ولكنى أفدت من أيام الاعتقال • فقد عرفت معنى الاغتراب فى الحياة ، وهو معنى جميل • •

وفى خلال حياة زكى مبارك فى الأزهر ، تلك التى امتسدت من (١٩١٠ - ١٩٢٢) كانت هناك عوامل متجددة تغلب كالمراجل ، تريد أن تربهم صورة حياته المستقبلية :

هذه العوامل هى : (بعد ثورة ١٩١٩) : (١) اتصاله بالصحافة • (٢) واتصاله بالجامعة المصرية القديمة •

كان الشيخ زكى طالب الأزهر يعيش بين الحواشى والمتون والتقارير وقد افتتحت الجامعة المصرية أبوابها • فاتجه اليها الشباب المتطلع الى الظهور وكان هو فى مقدمة من اتجه اليها • ولم يلبث أن تطلع الى أن يعبر البحر • فراح يتعلم اللغة الفرنسية ثم يدرسها • وفى خلال ذلك كان هو الشاعر الذى يقول الشعر ، ويكلف لونا من ألوانه • هو شعر الغزل • فيلقى أولى محاضراته فى الجامعة عن حب عمر بن ابي ربيعة وشعره • وكان فى خلال ذلك قد حفظ عددا ضخما من قصائد الشعراء ، بلغ على حد قوله ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى (١) •

« ولم يكن كلامى ضربا من التحدى المؤقت ، وانما كان حقا من الحق • وما اكتفيت بالثلاثين الفا الا اشفافا على طلبة الجامعة • فقد كانت مختارات البارودى من بعض محفوظاتى • وكنت أحفظ دواوين برمتها

(١) يقول زكى مبارك فى عام ١٩٢٧ « خطر للدكتور طه أن يفهم اساتذة اللغة العربية فى أحد دروسه بالجامعة المصرية • فقال : كيف يجوز لهؤلاء أن يتولوا تدريس الادب فى المدارس الثانوية أو العالية وليس فيهم من تصفح ديوانين اثنين من دواوين الادب العربى • فنهضت وقلت « ارجو استثنائى من هؤلاء فانا أحفظ ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى • واستطيع انشادها جميعا فى أى وقت » •

من الشعر الفرنسى • وقد حفظت معظم كتاب (تليماك) عن ظهر قلب
سنة ١٩١٩ •

ولم أكن أعرف نظام الجذاذات عند الشروع فى تأليف كتاب
« الأخلاق عند الغزالي » فكتب أرجع الى الشواهد فى مؤلفات الغزالي ،
بغير أن احتاج الى دليل • •

ثم يعلق على ذلك بقوله : « ما استطعت ذلك كله » لأن ذاكرتى أقوى
من سائر الذاكرات • أو لأنى أذكى من سائر الناس • وانما استطعت ذلك
لأنى لا أعرف المسامحات فى صيف ولا شتاء • ولا أذكر أنى انقطعت عن
الدرس فى يوم من أيام الدراسة والأعياد ، حتى أيام البواخر ، قرأت
فيها أشياء ، وكتب أشياء • •

اتصل زكى مبارك بالجامعة المصرية القديمة رسمياً عام ١٩١٦ •
فبدأ فيها حياة جديدة ، تطورت حين تقدم برسائله للحصول على الدكتوراه
عام ١٩٢٤ •

وفى الوقت نفسه ، أو قبل ذلك بسنوات كان قد اتصل بالصحافة فقد
كان يكتب سنة ١٩١٤ بامضاء « الفتى الأزهرى » • وألف لجنة لاصلاح
الأزهر والمعاهد الدينية ، وكتب رسائل مختلفة فى نقد المعاهد الدينية •

وقد تولى رئاسة تحرير جريدة الأفكار عام ١٩٢١ • وكانت صحيفة
الحزب الوطنى يقول : « وكتب أكتبها من الألف الى الياء • وعلى
صفحاتها نقدت أعمال لجنة الدستور بصورة لاتخطر على البال » •

عمل زكى مبارك فى الصحافة منذ وقت مبكر ، منذ كان طالباً فى
الأزهر • فقد كان حريصاً على أن يؤكد ذاته بالحديث عن الحياة ، واعلان
رأيه فيها • وكان فى أدبه الصحفى ناقداً جريئاً يتمثل فيه كل عذ •
وجرائته واندفاعه •

وقد صور استهلال عمله فى الصحافة فقال :

« فى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفاتى (بك) لرئاسة تحرير

جريدة الأفكار • وكنت من محرريها قبل الاعتقال • فبذلت ما بذلت من الجهود فى تأييد الحزب الوطنى • ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رئاسة تحرير الأفكار غير عام وبعض عام • فقد اتفق الصوفانى (بك) مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقا يقضى بأن تصبح الجريدة وطنية وفدية • واشترط الأستاذ عبد القادر شروطا كان أهمها أن يكون حر التصرف فى اختيار المحررين • واشترط الصوفانى (بك) ان يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون • وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك • وقبل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء • ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر من الأفكار غير مباحث أدبية لاتقدم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية •

ثم فوجئ عبد القادر حمزة بأن وجد أن لى نشاطا صحفيا يغيب عن عينه الواعية • وهو مقالات كنت أرسلها الى جريدة الأمة بامضاءات مختلفات • فأدرك أنه لا أمل فى أن أسير كما يسير •

عندئذ بدا لعبد القادر حمزة أن يصاحب شابا له أهداف • فوثق بى فدعانى الى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ • ولكنى رفضت بحجة أن هواى سيظل مع الحزب الوطنى •

وهذه بعض نماذج من كتاباته فى هذه الفترة :

• « نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر دراسة الآداب العربية • ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة ، التى وضعها قوم ، أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد • ونود لو تفضل القارئون بإدارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بידاء من الخلط والتقصير • لنطمئن كما اطمأنوا ولترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ما للطلبة من قلوب وعقول • »

• لانجد كتابا من الكتب الأزهرية قد خلا من الحكم على الشعر : احرام هو أم حلال ؟ وهذا خلاف قديم • رويت فيه هذه النكتة الطريفة • وهى أن « سعيد بن المسيب » سمع رجلا يذكر أن: انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد من فوره :

انبثت أن فتاة جئت أخطبها • • عرفوا بها مثل شهر الصوم في الطول
ثم أقام الصلاة •

• رأى الكاتب المرقص الحديث لأول مرة • وهو شيخ يلنب على
رأسه العمامة ويرتدى الحجة والقفطان • وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٢ •
فكتب في وصفه هذه الرسالة الساذجة التي تمثله وهو يفتح عينيه على
فن الوجود في دهشة وانجذاب :

• أعرف أنني شيخ • وأعرف في نفسي أنني من حماة الدين الحنيف •
والله عليهم بذات الصدور • ولكنني تذكرت بجانب ذلك أنني صحفي • وأن
المهنة تقضي على بارتياح مواطن الشبهات ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش
الناس • ولأقابل بين ما أراه على لوح الوجود ، وما أراه على لوح التاريخ •
وعندى أن الصحفي كالطبيب • فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ماتستر
المرأة ، ليقف على موقع الداء ، يجوز للصحفي أن ينظر أغرب ماتكم
الأمة ، ليقف على مواطن الداء •

وتذكرت أنني كاتب • والكاتب كالمصور • لاغنى له عن رؤية كل
مكون • ولن يعذره أحد إذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة ،
والعجائب المكنونة ، بحجة الدين والأخلاق • لأن (الفنان) لادين له في
قرارة نفسه •

• • ان طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة • فهم في سنى
الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة • ثم اذا
اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل ، والهمل الجزيل ، دخلوا في
حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، في ميدان كله رماح طوال
وسيوف صقال •

ان النبوغ الذي امتاز به بعض الأزهريين في الزمن القديم والحديث
ليس أثرا من آثار الادارة التي تولاهم زعماءه الأقدمون أو المحدثون
ولكنه أثر من آثار الذكاء الذي انفرد به بعض الشبان الذين هيأت لهم
ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية •

فى الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض تراهم اذا زرت الجامعة المصرية أو مدرسة الأزهر الفرنسية تراهم فلا تشعر بغير الإعجاب بهم والاعظام لهم .

• ماذا تستطيع أن تعطينا هذه النماذج لرسم صورة زكى مبارك ؟ •
الواقع انها تعطينا صورة الاندفاع والحماسة والايمان والرغبة فى الإصلاح والاتجاه نحو التبريز والشهرة • ولكن من هذه النماذج ما يعطى صورة زكى مبارك التى عاشت معه الى آخر الحياة :

• صورة الاعتزاز بشخصيته والبعد عن مزلق النفاق والمصانعة •
يقول فى مقال له ، نشرته جريدة الأفكار (نوفمبر سنة ١٩١٩) :
• تنصحنى يا هذا بأن أجمال • وأن أصانع • بل تريد أن أنافق •
ويحك • انما ينافق الضعفاء •

ان الله لم يخلقنى لأكون العوبة • أدارى هذا وأجمال ذاك • أناخير منكم جميعا • أنا فى نعمة من الله • لأبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم • وان الله لأكرم من أن يضطرنى الى مصانعة جماعة من الكسالى لاقيمة لهم فى هذا الوجود • ان فضيلة الوفاء هى التى تضطر مثلى الى أن يجمال بعض الناس • كلا : لن يكون هذا • انكم تنافقون لتعيشوا • أما أنا فحى بالرغم منكم • لأن الله لا يريد أن اموت • وسوف تعلمون • •
هذا هو زكى مبارك سنة ١٩١٩ • وهو زكى مبارك الى آخر الزمن •
لم يتغير بعد ذلك • ولم يجمال • ولم يتملق • ولم يصانع السلطان • ولذلك عاش حياته غريبا لم يقتعد مكانه الحق فى الحياة •

وفى هذه الفترة من حياة زكى مبارك لن ننسى الجانب الروحى •
فقد اتصل زكى مبارك فى الأزهر بالطرق الصوفية • كما اتصل بالجامعة •
يقول :

• فى سنة ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة الصوفية • والى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد • حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف • كان يومئذ من كبار الصوفية •

فأخذت عليه العهد • وبدأت أقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية • وكان فى صوتى من المرونة مايساعد على القاء الأناشيد • فكنت من المتقدمين فى الانشاد • وفى سنة ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء • وكان لى فى ستريس وغير ستريس مريدون وأتباع •

وفى عام ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع • فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية • وانتهى ذلك بالقطيعة ••

ومرت أيام عانيت فيها من الضجر ماعانيت • وحاولت أن أصلح ما بينى وبين الشيخ • ولكنى لم أفلح فى جذب نفسى اليه • فقد اقتنعت ان بعض الصوفية أرباب ظواهر • وان ادعوا انهم أرباب قلوب •

وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب « الأخلاق عند الغزالى » • ذلك الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ • وهو كتاب تجنيت فيه على التزمت فى التصوف • ورميت بعض أشياعه بالغفلة والجهل ؟ وهكذا تبدو حياة زكى مبارك فى مطلع الشباب ، وقد غمرها اضطراب عنيف •

حياة الأزهر ، تلك التى أمضى فيها اثنى عشر عاما ، قد تخللها الكثير من عوامل التحول عن الأزهر الى الحياة الحديثة والتعليم الحديث ، فولى وجهه شطر الجامعة ، وحاول اتقان اللغة الفرنسية • وكتب فى الصحف • وأحب التصوف ، ثم هجره • وبدا فى صورة الرجل الذى يريد أن يعارض الآراء المعروفة والتقاليد حتى يكون ذلك مصدرا للشهرة والتبريز •

حياة في الجامعة

اتصلت حياة زكى مبارك رسميا منذ سنة ١٩١٦ ، ثم زادت اتصالا عميقا . وفى الوقت نفسه بدأت تنقطع من ناحية الأزهر ، بل ربما شابهها كثير من الفتور والانعفاء . غير أن اثر الأزهر فى زكى مبارك ظل قويا عميقا طوال حياته . فالأزهر هو الذى أهدي إليه أعظم خصائصه : أسلوبه البليغ ، وتراث العربية والاسلام ، ممثلا فى الشعر والنثر ، وصلته بالشيخين المهدي والمرصفي . كل هذا ظل واضحا بارزا فى إنتاجه ، وأدبه ، وحياته وان كان قد تطور ففهم بعض أصول الأدب ومراميه وفنونه ، بعد أن اتصل بالجامعة ، ثم اتصل بالثقافة الفرنسية .

ولكنه حين تحول الى الجامعة ، تحول عن بعض معتقداته وآرائه . فهو الذى كان محبا للصوفية . ثم أنكر بعضهم . بل لقد بلغ فى ذلك غاية العنف حين هاجم الغزالي ، فأثار الناس ثورة عنيفة ، رجع عنها بعد ذلك ، وأنكرها من نفسه ، وكتب يقول : « اليك اعتذر أيها الغزالي » .

أما فى هذه الفترة فقد استطاع أن يدرس العلوم التى تؤهله للاشتراك فى الجامعة . فحصل على الليسانس ، وكان من أساتذته فى الامتحان ، أستاذه ورائده والرجل الذى ظل ينظر اليه ويترصده خطأ طوال حياته : طه حسين . وقد أسقطه طه حسين فى امتحان الليسانس مرتين . فلما أن ظفر بها بدأ يعد رسالته عن الدكتوراه . وكان موضوعها « الأخلاق عند الغزالي » ، عام ١٩٢٤ حيث تحقق له ذلك الحلم . فأحرز اجازة الدكتوراه وكان زكى مبارك قد أثار ضجة قبل ذلك بسنوات ، حين حاضر فى الجامعة عن « حب ابن أبى ربيعة وشعره » . ولم يكن هذا النوع من الحديث مقبولا فى ذلك الوقت ، وخاصة اذا صدر من أزهري يلبس العمامة . . . اذ لم يكن الحديث عن الغزل وعن وصف النساء والتشبيب بهن أمرا

سهلا أو يسيرا حتى يكون موضع محاضرات تلقى ، أو كتب تؤلف • ولكنه كان حريصا على أن يثير الناس ليظفر بالشهرة • فعل ذلك في الأزهر حين كان يكتب المقالات الطوال في نقد نظم الأزهر وأساتذته • ثم فعل ذلك بمحاضراته عمر بن أبى ربيعة • ثم فعل ذلك وبلغ الذروة برسالاته فى الدكتوراه التى نوقشت مناقشة علنية على مدرج الجامعة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٢٤ •

وقد صدر زكى مبارك رسالته عندما طبعها بهذه العبارة :

« هذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية • والذى سلقنى العلماء من أجله بالسنة حداد • هذا هو كتاب « الأخلاق عند الغزالى » • أقدمه للجمهور ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المفرضين من الصدق • وحق المرجفين من الصواب • هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللهو والترثرة لا ينضب ولا يفيض • وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به • فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم • أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولغو اللاعنين من مرضى القلوب وضعاف العقول • »

وقد كتبت الصحف غداة هذا الامتحان بأن « زكى مبارك » هو ابن الجامعة الخامس • فقد أحرز اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » وقالت صحيفة الأفكار : « ان جو الامتحان كان عنيفا • وان الأسئلة دارت حول القديم والجديد • وكان أنصار القديم كثيرين » وأنصار الجديد قليلين • ولكن زكى مبارك لم يجد حرجا فى أن يظهر ، ولم يجد حرجا فى أن يصدم من أنصار القديم • ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم ينضبون ورآهم يثورون ، ليهدىء من ثورتهم ، ويخفف من غضبهم • وقال الأستاذ محمد جاد المولى ، مفتش اللغة العربية ، بالمعارف فى ذلك الحين ، يصف هذه المعركة :

« كنت فى تلك الأيام لا أعرف الدكتور « زكى مبارك » معرفة شخصية وإنما كنت أعرفه عن طريق ما يكتب فى الصحف والمجلات • فكنت

أتصوره شابا بعيد الهمة ، كلفا ينقد الشعراء والكتاب والمؤلفين ، محبا للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء •

ولما أطلعت على رسالته التي قدمها لامتحان الدكتوراه في تلك الأيام . وهي الأخلاق عند الغزالي ، رأيت فيها صدق ظني : رأيت يهجم على حجة الاسلام الغزالي ، ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد في حسابه ، لأعجم عوده وأسبر غوره •

فلما أخذت في محاسبة الدكتور زكي مبارك على ما صنع في نقد الغزالي تكشفت جوانب ، أثارت فضيلة الشيخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء • وكاد الجمهور يموج من الغيظ • ولولا حكمة رئيس اللجنة : الدكتور منصور فهمي ، لاضطراب النظام ، وانفرط عقد الامتحان •

وحين خلت اللجنة للمداولة أسفر نقاشها عن منح زكي مبارك اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » • واقترحت أن ينص في محضر الجلسات على أن اللجنة غير مسئولة عما في الرسالة من الشطط والجموح •

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد • ولكنني تبينت مع الأسف أن هجومي على الدكتور زكي مبارك كانت له عواقب • فقد حمل عليه جماعة من العلماء في جريدة المقطم ، وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهم الشيخ يوسف الدجوي ، والشيخ أحمد مكي •

وعند ذلك عرفت أن الدكتور « زكي مبارك » قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لما قد استقر في النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب • وهكذا كان استهلال زكي مبارك لحياته الفكرية : « باحث متعسف مشاغب » على حد تعبير الاستاذ أحمد جاد المولى •

وقد وصف عبد الله حبيب صديقه « زكي مبارك » في هذا الجانب من جوانب حياته : فقال :

« أما ما أثاره من ضجة حول آرائه الجديدة في شعر ابن أبي ربيعة »

فقد ظهر لى بعد ذلك أن هذا هو ديدنه فى كل ما يتناوله من موضوعاته •
وهو فى هذا كأنه خلق ليسبب للعقول (رجة) لا قبل لأحد على احتمالها •
وأشار زكى مبارك فى بعض كتاباته الى أن الشيخ « حامد الفقى »
وقف يوم الجمعة التى تلت امتحانه • وخطب خطبة الجمعة • فقال : ظهر
فى مصر ملحد اسمه زكى مبارك • ذلك الذى فرحت الجامعة المصرية
بالحاده • فمنحته الدكتوراه • ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل
الجنة • • وقال : « ان خطيب مسجد الهدارة حرض المصلين على قتله »
أحب زكى مبارك كل مدينة عاش فيها : أحب باريس ، وبغداد ،
والقاهرة ، والاسكندرية • • وكانت جميعها مصدر الوحي له • •

« لماذا أحب الاسكندرية ؟ » • يقول : « السبب يرجع الى انى دخلت
الاسكندرية أول مرة ، وأنا حزين ، دخلتها فى قفص • دخلتها فى سيارة
مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى أيام الثورة المصرية •
دخلتها فى الظلام • فلم أر من جمالها غير أطراف • ثم نقلت من ذلك
السجن المتحرك الى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم صباية ومدارج
فتون • ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلا يسجن فيه من
هتفوا باسم الحرية والاستقلال • • !؟

• • قضيت فى هذه المدينة شهورا طويلا بدون أن أشهد من جمالها
غير ما يطوف بالأوهام والظنون • ولن أنسى أبدا كيف كان هدير البحر
يقرع سمعى وقلبى فى غفوات الليل • ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت
من المعتقل لأرى الاسكندرية بعينى ولا طوف فى رحابها حيث اشاء بلا
حارس ولا رقيب (١) •

وهو ينتهز كل فرصة يكتب فيها عن أى موضوع ليزود القارىء
بمزيد من التاريخ والثقافة :

« وسكان الاسكندرية يرجعون فى الأغلب الى عنصرين اثنين :

(١) وصف زكى مبارك الاسكندرية اكثر من مرة فى مقالاته •
وقد أوردنا صورة أخرى لها فى مكان آخر •

العنصر الوافد من الصعيد • وهو عنصر معروف بالعناد ، والعنصر الوافد عليها من المغرب بعد سقوط الإندلس فى أيدي الأسبانيان ، وهو عنصر معروف بقوة المراس ••• كما أقبلت على الاسكندرية طلائع الجيش الاسلامى ، وجعلت للإسلام دولة على شاطئ المحيط • وقد كان بحرنا هذا أول بحر خفقت فيه الراية الاسلامية • وسيظل الى الأبد همزة الوصل بين حضارة الاسلام فى الشرق وحضارة النصرانية فى الغرب »

أما القاهرة فلها عنده صور متعددة : فهو يراها شيئاً ضخماً مهولاً ••• ويراهـا ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف •• وفى مقال له عنوانه « ويسألونك عن القاهرة » يقول (١) •

فل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم •

أكتب هذه الرسالة ، وقد هربت من ضجيج القاهرة ، فى مساء العيد •

نعم هنا القاهرة • ولكن أين مكان الأديب فى المدينة التى أصبحت عاصمة الشرق ، هنا فى القاهرة زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدى ما أدها عشاق بغداد فى القديم ، وعشاق باريس فى الحديث •• ؟

وسأذكر بعد فوات الوقت أننى جنيت على شبابى حين أضلعت بين سواد المداد وبياض القرطاس فى زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب •

وهل يستطيع قاهرى ان يمضى يوماً واحداً بلا كضاج ، وهو يعيش فى مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة ؟

ان هذه المدينة التى تفتنكم لم تخلق فى يوم وليلة • وانما هى عصارة العزائم الشداد فى الأجيال الطوال • فمن أقام فى القاهرة وله عقل وذوق. فليحاسب نفسه على اللمحات واللحظات ليؤدى الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه. ان كان من الموفقين •

(١) الرسالة - ٥ من فبراير سنة ١٩٤٠

في كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش ، لأن
الدنيا في بلاد الشرق ما زالت ، وستظل ، تتسع للأوساط من الرجال •

أما في مصر - ويرحم الله أهل مصر - فليس فيها للرجل الوسط
مكان العالم الوسط • فهو لا يستطيع العيش • والأديب الوسط لا يجد
الرزق • والصحفي الوسط لا يملك الوصول الى خبر صغير •

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الشعراء ،
لأنهم لم يكونوا في عبقرية شوقي وحافظ وصبرى ومطران ؟
ويسألونك :

أليست القاهرة هي التي فرضت الخمول على مئات من الكتاب ،
لأنهم لم يكونوا في عظمة محمد عبده ، وعلى يوسف ، وعبد العزيز جاويز
ومصطفى المنفلوطي ، ومحمد الميمني ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ولكنهم سيموتون بغصة الحسرة على
أن نشئوا في القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذي لا يسلم من
كربه غير الفحول الصوالية •

لو كان الماضي ينفع لجاز لرجل مثل أن يعتمد على ما ضيه في خدمة
الحياة الأدبية والفلسفية • ولكن القاهرة تعيش في وجه الرجل الذي يعتمد
على ما ضيه • لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء • أسماء المجاهدين
الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق ، هي حسناء لعوب لا تعرف حتى
العاشق المزود بأطايب الثروة والعافية •

في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبى مرة • ولم أكذب
عليه غير تلك المرة • كتبتا إليه أقول انى سأقضى أيام العيد في الاسكندرية
ولم يكن الا حيلة لأحبس نفسى أيام العيد في البيت ، لأكتب فصلا من
فصول « النثر الفنى » • وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة
العربية •

انما أنا قاهرى يحبس نفسه في البيت يوم العيد ، ليحفر بسنان القلم

ثقبا يتطلع منه على ضوء العظيمة في القاهرة ، عساه يقنع القاهرة بأنه رجل
مجتهد يستحق أن يعيش •

القاهرة لا تعرف الرجل الوسط • فافهموا هذه الحقيقة ، يا أبناء
هذا الزمان • والا فهناك سلة المهملات تنتظر الألوف ممن يرسلون الجرائد
والمجلات •

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوصى روح سيدنا عمر بن الفارض
قبل أن أشرع في كتابة الفصل الخاص به في كتاب « التصوف الإسلامى »
فراعنى أن أعرف أن تلك الناحية هى انفع مكان فى القاهرة من الوجهة
الصحية • وكذلك ألفت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموآت •

وطنى ! لقد شقيت بعظمتك • ومن أجل هذا أحبك ، وأستعذب
الصاب والعلقم فى هواك • •

فى باريس

تعقب زكى مبارك خطوات أستاذه طه حسين ، الذى أحرز الدكتوراه
من الجامعة المصرية القديمة ، واتجه الى فرنسا • كذلك فعل هو مع
اختلاف الوسائل والأساليب • فقد ذهب طه حسين على حساب الدولة • أما
هو فقد عجز عن تحقيق هدفه عن هذا الطريق فسافر على حسابه • كان
فى السنوات الاولى يقضى الشتاء فى مصر ، والصيف فى فرنسا • يدرس
ويتأهب ، ثم انقطع عامين فى باريس ، عاش خلالها على مورد ضعيف من
جريدة البلاغ • واستطاع أن يحقق أمله وينظر بالدكتوراه من السربون
برسالته « النشر الفنى » •

وكان ذلك عملا ضخما يرسم صورة لطبيعة زكى مبارك وصلابته فيما
يؤمن به ، وإيمانه بالوصول الى هدفه مهما وقفت الصعاب فى وجهه •

وقد صور زكى مبارك هذه المرحلة من حياته فى مقدمة كتاب « النشر
الفنى » فقال :

« هذا كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع ، وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين . فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة مجهود عشرين عاما قضاه المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى . وان رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو ، فليذكروا أنى الفقه فى أعوام سود لاقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين . أقضى شطره الأول فى القاهرة ، حيث أودى عملى ، واجنى رزقى . وأقضى شطره الثانى فى باريس ، كالطير الغريب ، أحادث العلماء واستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت . وكانت العاقبة أن أنعم على الله عز شأنه بالنصر المبين . »

وفى كثير من كتابات زكى مبارك وصف لحظات العبور وما تبطن نفسه اذ ذاك من مشاعر بالظلم « أسلمنا القطار الى الباخرة فى غير عشاء ونقلت أمتعتى الى مكانى فى السفينة . ثم جاءت ساعة الغداء ، فشغلنا عن توديع الاسكندرية ، ان كانت تحتاج منا الى توديع . وهيهات ، فقد تبادت بنا مظالم الحياة . وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : اذ كنا فى بلادنا غرباء . والمظلوم فى وطنه غريب . »

وفى مكان آخر يقول تحت عنوان « غريب فى يوم العيد » .
كان أول يوم دخلت فيه باريس سنة ١٩٢٧ من الأعياد الاسلامية :
كان يوم عيد الأضحى . فلم أشعر بضجر ولم يساورنى اكتئاب . فقد كنت أعرف ان أهلى فى مصر يجتمعون للعيد ، ثم يسألهم الناس عنى ، فيخبرون بأنى على سفر ، فتجرى على الأفواه كلمة « رعا الله » . ثم بادرت يومئذ الى الجامع ، لأشهد المسلمين وهم يتصافحون . فازددت أنسا الى أنس . وزالت عنى وحشة الاغتراب . واليوم يحتفل الفرنسيون بعيد ميلادهم . ويتسابق الأقرباء والاصدقاء والمحبون الى التحف المختلفة . فيتهادونها ، وعلى وجوههم علائم البشر ، وعلى شفاههم أشعة الابتسام . أما أنا فوحيد فى غرفتى . لا أنتظر أحدا . ولا ينتظرنى أحد . »

وقد صور زكى مبارك فى مقدمة كتابه « ذكريات باريس » كيف
وصل الى باريس بعد يأس وبعد شوق • وانه أمضى بها خمس سنوات •
ويوم دخل باريس كان يعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه الا
الأفلون • وكان قبل ذلك قد ألف هذه اللغة ألفة شديدة (حتى كان
لا يتكلم بها جماعة فى جد أو هزل الا تعقبت ما يقولون تعقب الدارس
الفاحص)

وقال أن اقامته قد طالت فى باريس ، لأسباب علمية ، سدد الله فيها
خطاه • وان صورة باريس تبدو فى نفسه فى صورة كرام الناس الذين
عرفهم هناك • وهما مسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونن •

وفى باريس لم يترك زكى مبارك صلابته واندفاعه وعنفه ، حتى مع
أساتذته • فنه سرعن ما اختلف معهم فى صميم العمل الذى ذهب من
أجله • وهو رسالة الدكتوراه •

وكان فى مقدمة من اختلف معهم مسيو مرسيه ، رأس المستشرقين
الفرنسيين اذ ذاك ، ذلك الذى كان مفروضاً أن يرأس لجنة امتحانه •
فهو يخالفه فى رأى • ولذلك فقدهم بمهاجمته عندما وصل باريس ،
لأن له آراء مدونة فى نشأة النثر الفنى عند العرب ، تختلف مع آرائه •
وقد نصحه مسيو ما سنيون بألا يفعل • وأفهمه أن مسيو مرسيه رجل صعب
المراس ، وان منزلته عظيمة ، وأن المستشرقين يحبونه • ولكن ، هل
انتصح زكى مبارك ؟ لا بل انه يقول :

« ولكن كتب الله ألا أنتصح برأى مسيو ما سنيون • فابتدأت
رسالتى التى قدمتها للسربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس •
فغضب الرجل ، وثار • وأصر على حذف الفصلين ، بحجة انهما لون من
الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث • وأصررت على ابقائهما
الفصلين ، بحجة انهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر
الفنى •

وكانما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره • فمضى يعاديني

عداء خفيا ، كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا ، من عجز
الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقد
قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورأيت الحرص على آرائى أفضل
من الحرص على رضاه . فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، واتهينا الى عاقبة
أفصح عنها مسيو ما سنيون كل الافصاح اذ قال حين لقيته أخيرا فى
باريس :

ان مسيو مرسيه لا يحبك . ولكنه لا يستطيع أن ينسأك . أما
أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل . لأنه من خيرة الأساتذة الذين
تلقيت عنهم فى باريس . ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت
فيه بدبلوم الدراسات العليا . والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى مالاقيت
على يديه من ظلم واجحاف ،

وقد أحب زكى مبارك باريس حبا يفوق الحد . وأعجب بها أشد
اعجاب . وهو يقول أن دراساته فى باريس لم تحل بينه وبين التأمل فيما
يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال .
فأنشأ كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة .

وقال ان باريس تتمثل فى صور تلك الوجوه الصباح التى رأتها
عيناى وألفها قلبى ، ثم أقصتني وأقصتها ضرورات الحياة الى حيث لا أمل
فى تراسل أو تلاق . وقال انه قد ألف الفراق وراضت قلبه الايام بعد
الجموح فأصبح يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وفى أول أسفاره (يونية - ١٩٢٨) الى باريس يصف فراق مصر
فيقول :

« خلّيت مصر وخلّيت ورائى فيها هموما مريرة أثقلت كاهلى ،
وأقضت عيشى : وراضتني بعد الجموح . وكنت أحسبني أقسى وأصاب
من أن أعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين الى حين .
ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيناى لفراق الاسكندرية . ولم يخفق
القلب لفراق الوطن العزيز . ومرت بالنفس طوائف من الذكريات

الحزينة تمثلت فيها كيف شقيت بأهلى وأصدقائي • وكيف ضن وادى
النيل بنفحة من نسيمت البر على من يشقى ليسعد • ومن يقنى ليقدم
له أسباب الخلود •

ثم ماذا ؟! هذا جرس يصلل ! وهذه أفواج من المسافرين تمضى
الى الغداء ، وأنا كذلك أمشى الى حيث يمضون بين الفتور والنشاط •

فى السربون

أقام زكى مبارك فى باريس سنواته الخمس ، حتى ظفر بإجازة
الدكتوراه ، فى ٢٥ من ابريل سنة ١٩٣١ • ثم عاد الى مصر حيث بدأ
حياته الجديدة •

كانت حياته فى باريس هى حياة طالب العلم الفقير ، الذى لا يملك
أحيانا الا قوت يومه • كانت الجنيهات الخمسة عشر التى يرسلها اليه
عبد القادر حمزة هى كل ما يملك من مورد • ولكن مراسلة البلاغ كانت
تقتضيه أن يتعمق فى فهم الحياة فى باريس •

وقد سجل هذه المرحلة فقال : • كنت حين انتسبت الى جامعة
باريس أقضى أربعة أشهر فى كل سنة فى مدينة النور ، ثم أعود الى
وطنى لأجمع بين الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع الى باريس
من جديد • ودام ذلك بضع سنين • ثم عرفت انى لن أصل الى غرضى
الا اذا قررت بطريقة حاسمة الا أفارق باريس الا فى أحد حالين : النصر
أو الموت • وكانت الإقامة الدائمة فى باريس تبدو من المستحيلات • لأن
أبى رحمه الله لم يكن يقدر على امدادى بكل ما أحتاج اليه • وكان
ما ورثه عن أمى طيب الله ثراها لا يزيد على بضعة قراريط • وكانت
زوجتى أفقر منى • ولم يكن لى فى الحكومة المصرية عم ولا خال •

فى تلك الظلمات استطعت أن اتفق مع الاستاذ عبد القادر حمزة على
مراسلة البلاغ فى باريس ، بمرتب قدره خمسة عشر جنيها • فتوكلت
على الله • وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السربون •

وكان لا بد من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت اليه من الالقاب العلمية .

وكان اتصاله عنيقا . فن « زكى مبارك » الفلاح لم يفقد (فى باريس) ، طبيعته المندفعة ، وعباراته الجريئة ، ولم تعلمه باريس المجاملة ولا المداراة . قل زكى مبارك فى قلب السربون : « جئت لأصحح أغلاط المستشرقين » . ومن هم هؤلاء المستشرقون ؟ هم اساتذته والذين يمتحنونه ، وييدهم أمره كله . وقد حدثنا كيف وقف فى وجههم فى ديارهم . وقد صدق فى قوله هذا . وجرى تاريخه بعد عودته من باريس نقيا قويا مؤمنا باللغة العربية ، مدافعا عنها . ولم تفلح باريس أن تحول أماته للأمة العربية الى فرنسا واللاتينيات ، كما فعلت بعشرات غيره

ولكن هل اكتفى زكى مبارك فى باريس ، بحياة الطالب فى باريس ؟ كان لابد له من معرفة الحياة فى باريس ، لينجح فى مراسلة البلاغ . ذلك الذى كان يدفع له مرتبه الشهرى الذى يعيش به هناك . وقد صور هذا فقال :

« هدتنى الفطرة الى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات ، فكنت أقضى فى هذه النزعة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل . كنت شابا ، ورحمة الله على شبابى ، الشباب الذى بددته فى طلب الحب والمجد . كنت أذرع باريس بقدمى لأخلق لماقالانى جوا من الحقيقة لا من الخيال . وأعاننى على ما أسموا اليه لسان من فى اللغة الفرنسية مرونة محببة ، تقدر على جذب من أحداث من أسراب الطلاب .

والفرنسيين يغفرون للرجل جميع الذنوب اذا أمدته العناية الالهية بلسان فصيح . وكان لى فى باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جدا فى يوليش بجوار قهوة الرجل التى كان يجلس فيها الدكتور طه حسين ، يوم كان طالبا فى جامعة باريس . وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة

للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية • فكيف صارت اليوم ؟ ليتنى أعرف
أما القهوتان الأخيرتان فهما: الروتوند والدرم فى حى مونيارناس •

وفى قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهمة التى أدونها فى هذا الحديث

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقاوين
يندر أن يكون لهما شبيه أو مثل • وجلست بالقرب من تلك السيدة
عسانى أنهب منها نظرة أو نظرتين ، أستعين بهما على اتمام بعض الفصول
فى كتاب (سحر العيون) وما هى الا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف •

ثم أشارت بأن اقترب • فاقتربت ••• رباه متى تعود أيامى ؟!

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة ، عرفت أنها من
البلغايا ، أعوذ بالله • أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجوة (الأوباش) ،

أتكون هذه الحسناء الفاتنة شبيهة الشمس ، ينعم بضوئها من يشاء
ولو كان من الخفافيش ؟ أتكون هذه التحفة الفنية الشبيهة بكرائم الأنهار
يشرب منها البهائم والدواب ؟ ألك يا رباه حكمة فى اذلال هذه الروائع
الفنية التى زينت بها الوجود ؟

وهجمت على تلك السيدة بعنف • فقالت :

• أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب • وكان ثمرة الحب
طفلا • هو اليوم بمدرسة (••) وقد هجرنى الحبيب والد الطفل • وتركنى
وحدى أربيه وأرعاه فأنا أتسول باسم الحب ، لأنفق على ذلك الطفل
المسكين ، الى أن يظهر أبوه • •

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى •

ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها • وليس لى من جريدة
البلاغ ، ومن الدروس الخاصة (الخصوصية) ، الا مبلغ ضئيل من المال ،
لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على
الغرباء فى باريس •

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعا نبيلًا قد يرفع روحى

بعد اسفاف • وقالت فى استحياء ان لغرفتى مفتاحين • لك مفتاح • ولى
مفتاح • فخذنى لنفسك • وراقبنى كيف تشاء • فان استطعت ان تشهد
على ما يريب بعد اليوم • فاقتلنى • والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من
الجهل والجوع • •

• • وقد أنسى كل شئ • ولكن لن أنسى طلعة مورييس • • • •

وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته انى توجهت الى الشرق لزيارة
القاهرة وبغداد وبيروت • واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهبه •

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع الى أجواز السماء •

وفرحت مرجريت بما صارت اليه من راحة البال وصفاء النفس •
بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس • ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات •
فعلمتنى الرقص • وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل •

وبفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين •

ولم تكثف بذلك • بل نقلتني الى دران والهافر • وأطلقتني على
المستور من شواطئ الماش • وأقامت معي في الضواحي النائية أسابيع •

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء • فلو أنى قلت انى
كنت فى حبها من الأطهار • لما صدقنى مخلوق • وأجمل ما نلت منها لم
يزد على قبلة شهية • طبعها على جبينى • حين أخبرتها أنى متأهل • ولى
أبناء • وقد فهرتني على قبول هدية من العطر والكريم لأرسلها الى ابنتي
أو زوجتي • وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين •

وكانت مرجريت متعبة الى أبعد الحدود • قالت لى ذات يوم :
• أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة • •

كانت مرجريت ضجرة من حياة الفنون • وكنت ضجرت من حياة
الفنون • وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب • وكيف
لا تتصوف فى الحب • وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز مورييس ؟

وبعد أن دام هذا النعيم النيل خمسة عشر شهرا ، وصلت الى ما أريد من امتحانات مدرسة اللغات الشرقية ، وامتحانات السربون .
وأصررت على الرجوع الى أهلى وأبنائى . ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس .

وأى توديع . كان من الواجب أن أرد المفتاح الى مرجريت . فرفضت والدمع فى عينيها الزرقاوين . وقالت : « احفظ المفتاح . لقد تصل على حين غفله الى باريس . . »

في بغداد

عاد زكى مبارك من باريس سنة ١٩٣١ وسافر الى بغداد سنة ١٩٣٨ للتدريس فى دار المعلمين العليا ببغداد . فى خلال هذه الفترة عمل زكى مبارك رئيسا للقسم العربى فى الجامعة الامريكية ، وموظفا فى وزارة المعارف .

وكتب خلال هذه الفترة فى جريدة البلاغ . ويمكن أن يقال ان هذه هى أخصب فترة فى حياته الادبية . كان يكتب كل خميس مقالا تحت عنوان « الحديث ذو شجون » وفى خلال ذلك كان يعد العدة لرسالته فى الدكتوراه من الجامعة المصرية عن رد التصوف الاسلامى ، يوم ١٤ من ابريل سنة ١٩٣٧ . حيث أحرزها فى الفلسفة بدرجة الشرف .

وهذه هى الدكتوراه الثالثة التى أطلق بعدها على نفسه لقب « الدكتور زكى مبارك » وفى خلال هذه المرحلة أثار زكى مبارك خصومات ضخمة متعددة مع أدباء مصر حتى ليتمكن القول انه لم يترك أدبيا بارزا دون أن يطاوله . وفى مقدمة من طاولهم الدكتور طه حسين .

وقد سجل زكى مبارك أنه بعد أن رجع من باريس ، لم ينحرف ، ولم يكن حريصا على أن يقدم ألوانا من الادب الفرنسى وأعلامه ، كما حدث بالنسبة للأدباء الذين سافروا الى فرنسا ، وعادوا . وهو يصنور هذه الفترة فيقول :

« حين رجعت من باريس سنة ١٩٣١ ، أخذت أنشيء في جريدة
البلاغ مقالات عن ذخائر الادب العربي • ولكن الدكتور ابراهيم ناجي
ضاق صدره بتلك المقالات • فقد كان ينتظر أن أكتب عن الادب الفرنسي
ولهذا كتب مقالات بتوقيع مستعار في احدى الجرائد الأسبوعية ، تقسوم
على الغمز والتجريح • واستمر غمزه وتجريحه سنتين • »

وكان زكي مبارك في خلال هذه الفترة يذكر النشر الفني على أنه
قمة ضخمة من قمم أعماله الادبية : ما تذكرت كتاب النشر الفني الا
شعرت بنيران تتأجج في عروفي • »

وقد أعلن في أكثر من مناسبة أنه أول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وأول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة •

وتعد رحلة زكي مبارك الى العراق رأس مرحلة جديدة في حياته •
فقد أتاحت له الفرصة لأن يزداد ايمانا بالعروبة • ويوسع دائرة ثقافته
ويعمقها ، ويحرص على أن يكتب عن العراق والشاعر الشريف الرضي •
وقد ظل زكي مبارك يربط بين رحلته الى باريس ورحلته الى
العراق ، ويؤكد أنه باقته في العراق قد أعز العروبة •

وما أظن أن كاتباً من الكتاب العرب أشاد بجزء من الوطن العربي
وبلغ في ذلك أروع صور الوفاء ، كما فعل زكي مبارك ، حين أشاد بالعراق
وأحيا فيه جوانب الحياة هناك في حب واعزاز • بل ان « زكي مبارك ،
ذهب في حبه للعراق الى أبعد الحدود • فلبس السدادة العراقية • وأعلن
أنه سفير للعراق في مصر • وقد كان عام العراق (١٩٣٨) من أخصب
أعوام حياته • فقد شغل مطبعتين في بغداد ، كان عمالهما يطرقون بابيه
مع الشروق ، ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول •

يقول : « كوتتي بغداد ثم شفقتي بغداد ، كوتتي لأنني عشت فيها
محبوساً ، لا أدري أين أذهب • وشفقتي بغداد لأنني أنست بسواد الليل
حين فانتى الأنس بسواد العيون ، فشرفت نفسي بمراسلة الصحف في

مصر والعراق ولبنان ، وخرجت من ذلك بمحصول سيئاً خمسة مجلدات * * وفي عجلة اخرى يقول : « لقد أحصيت ما كتبت في هذه الفترة فوجدته يزيد على خمسة الاف صحيفة * ونظرت فيما الميت من الدروس والمحاضرات في بغداد ، فوجدته يزيد عما أذاعه الاستاذ فلان في عشر سنين * »

ويقول : انه لم يعرف طعم الحياة في بغداد * فقد فضى جميع لحظاته والقلم في يده * واشترك في أكثر أندية بغداد ، ونظم محاضرات ولم يترك زكى مبارك في العراق طبيعته ، فدخل في معارك ومساجلات بل انه أثار الجهات المسئولة ضده ، على أثر حديث له في الاذاعة * وكانت اذاعة أسبوعية كان يشهدها من يشاء من أفاضل البغداديين ، وجعل مساء كل خميس سهرة أدبية في نادي المعارف *

وكان يرى أن مهمته في بغداد لم تقف عند حدود التدريس * وانما هي أعظم من ذلك : « أدركت أن لي مهمة تفوق العمل الذي انتدبت له - وهو التدريس - أدركت أنه يجب أن أجاهد في السر والعلانية * ونظرت فرأيت « بغداد » توحى الى قلبي بأشياء لم يلتفت اليها من قبل ، ورأيتني في حال أو أحوال تضيفني الى أرباب القلوب من أهل الاشراق ، وقد كانت من أبلغ أعمال زكى مبارك في بغداد دعوته الى الجامعة العراقية التي طالما ردها * وكان مما قاله :

« هل تراني أفلح في دعوة الشعب العراقي الى الصوم يوماً واحداً لتكون أثمان طعامه في يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس الجامعة المصرية ؟ »

ويصور كرم العراق في أكثر من صورة * فيقول :

« ما ذقت طعم الحياة الا في العراق * »

« ولا رأيت صدق القلوب الا في العراق * »

« ولا عرفت جمال النيل الا بعد أن رأيت لون مائه في دجلة والفرات »

أحب أن تسمعوا سجع الحمام في الموصل • وأن تروا غابات النخيل
في البصرة • وأن تعانوا السحر في بابل • وأن تكحل أعينكم بغبار
الصحراء في النجف • وأن تستصبحوا بظلام الليل في بغداد • «

وفي موضع آخر يقول :

« هل عرفت معنى الصداقة السليمة قبل أن أعرف العراق ؟

لقد أحببت أولئك الناس وأحبوني • فلي فيهم أصدقاء ، هم الغاية
في الوفاء • وسأبقى ما بقي من حياتي وأنا اليهم مشتاق • مشتاق • «

ويصور عبوره دجلة من الكرخ الى بغداد :

« عبرت دجلة من الكرخ الى بغداد • وأنا في ذهول • فحدثني
النفس بحلاوة الغرق في النهر الذي وعى ما وعى • وضع ما وضع من
أسرار القلوب • ثم تذكرت ديوني في القاهرة ، ديوني لجريدة الصباح
التي تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك • • «

وقد تساءل هو عن سر شغفه بالعراق ، فقال :

« أنا في الواقع تلميذ بغداد ، قبل أن أكون تلميذ القاهرة أوباريس »
وتساءل كيف سيطر العراق عليه كل تلك السيطرة فقال :

« السبب واضح : وهو أنني نقلت الصديق عن أهل العراق » والحق
إن سر نجاح زكي مبارك في حياته الأدبية لأنه أحب كل بلد عاش فيه •

ملاحـ شخصيـة

لا أعتقد أن شخصية أدبية أوضح في ملامحها وأصرح من شخصية
زكي مبارك فإنه من اليسر الوصول الى شمائل هذه الشخصية من آثاره
وكتاباتة • فهو أصرح كتابنا المعاصرين في الحديث عن نفسه • وأجرؤهم
في الكشف عن دخائله • وأقدرهم على مجافاة التقاليد •

وهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابة ، والولوع بمهاجمة المنافقين والذين يظهرون غير ما يبطنون • فهو يعلن رأيه في كل انسان ، وفي كل شيء في صراحة تامة ، دون أن يبالي عواقب ذلك في حياته العامة • ولقد جر عليه مذهبه هذا عداوات كثيرة • وكان سببا في تخلفه في الحياة وعجزه عن الوصول الى مكانه الحق •

ولعل مرجع هذا عنده أنه قد احتفظ بطبيعة الفلاح ، في عنفه واندفاعه وصراحته وصوفيته • فاذا أحب أو كره ، بلغ غاية الغايات ، ووصل نهاية الشوط • لا وسط عنده ولا اعتدال • تتحكم فيه عاطفته وأعصابه • وتذهب به مذهب الرضا أو الغضب •

وهو الى هذا قادر على مواجهة أخطائه ، والاعتراف بها ، ولعل أبرز مواقفه في ذلك عندما هاجم الغزالي ، في مستهل حياته الفكرية ، ثم لم يلبث أن رأى نفسه قد أخطأ في ذلك • فكتب في صراحة ينكر رأيه الأول ويعترف بخطئه •

يقول انه برأ نفسه من المجاملة والنفاق المصنوع ، وانه ترك لعقله الحرية ، رغبة في تخليص الادب من برائن الرياء والصنعة وقيود الهوى • ولعل هذا هو الذي صير حياته أتونا متقدما من العداء الصارم المالحق الذي سد أمامه أبواب الرزق ، وفصله من عمله مرة بعد مرة

وهو من الواقعيين الذين يواجهون الحياة مواجهة عملية ، حين يرى (ان الرحمة شيء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد على أساس الرحمة • والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على أساس الاشفاق • وانما قام كل شيء في الوجود على أساس القهر والغلبة وسيطرة القوى على الضعيف •)

ويمضي في فهم الحياة على هذا النحو فيرى أن الشيطان مخلوق شريف ، لأنه لا ينافق • فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين • ولو كشف كل انسان عن سريره كما كشف الشيطان لأصبحنا جميعا من الملائكة لا من الشياطين •

وقد يتهم باسرافه في الاتجاه العاطفي ، وتغلبه على الاتجاه العقلي
فيدافع عن نفسه « أنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزانا من العقل »
وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة • على حين لا يهتدى
العقل الا بالبراهين ، وهي في الغلب تقوم على مقومات لا تخلو من
تضليل • •

وهو لا يستطيع أن يعيش في ظل أحكام العقل • ولعل هذا
هو الذي يجعل خصومه يتهمونه أحيانا بالجنون • يقول :

« أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون • فمن وصفني بالعقل فهو
متلطف • ومن وصفني بالجنون فهو مسرف • لأنني في حقيقة أمري
إنسان يعيش بثورة العواطف ، فوق ما يعيش بقوة العقل • وهي حالة
تجعل أمري وسطا بين العقل والجنون • والتوفيق الذي ظفرت به في
حياتي العلمية مدين لحياتي الوجدانية • فقوة الوجدان هي التي
جملتني على أن أستقل في الدراسات الأدبية والفلسفية • وقد يأتي
يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التي جعلت عقلي يتفوق الى أبعد
حدود التفوق ، في مثل كتاب « النثر الفني » أو كتاب « التصوف
الاسلامي » •

وهو يؤمن بالصدق والصراحة بالرغم مما جرا عليه من متاعب :
« النفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللثام ، فأوغلوا فيها ، وافتنوا في جميع
أسبابها •

والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ،
فأسرفوا في العناد ، حتى لا أمل في ردهم الى الحد المعقول •
وهكذا يكشف زكي مبارك عن حقيقة كان لها أثرها الواضح في
حظ حياته كله • لقد اقتنع بأن الصراحة محنة • ولكنه ظل عنيدا في
الإيمان بها •

وفي هذا يقول مخاطبا نفسه : « لقد وصل ناس لأنهم كذبوا ،
وتخلفت أنت لأنك صدقت • ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك

وفيت • وتقدم ناس لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جددت • وانتفع
ناس لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت •

وهو يحاول أن يقنع الناس بأن (الصدق لا يفضي عقلاء الرجال ،
وانما يفضون من التحمل البغيض الذي تمليه الضغائن والأهواء) ولكن
أحدا لم يقتنع •

وهو لا يحب الهدوء وينفر منه ، ويبعث عن الضجيج : يقول :
« الجنة لا تستهويني لأن الحياة فيها تخلص من المتاعب وأنا أكره الحياة
الخشية من المتاعب • مضيت مرة للبحث عن مكان هاديء في إحدى
ضواحي باريس • فوجدت شيئاً كتب على بابه هاتان الكلمتان : (هدوء
مطلق) • فانتزعجت لأنني أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون الا في
مساكن الأموات •

وفي بغداد اخترت دارا يجاورها مصنع حديد ، لأفر من الهدوء
المطلق • وبنت داري بمصر الجديدة في مكان يجاور ضجيج الحياة ،
لأسمع اشتجار المعاني في صدر الوجود •

وهو دائما يسجل أنه وصل الى ما وصل اليه بجهد بالغ ونضال
جبار : « هل عاني أحد في دنيا الادب مثل الذي عانيت : لقد انتزعت
حظي من أنياب الحياة السود • فهو حظ مدون بالسهم الزعاف • ولو
استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلا • ولكن كيف يستطيعون ،
وقد ضيقت عليهم الخناق ، وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين
على مكاره الجهاد • وهو يندم على أنه قضى حياته ليعمل في الأدب : « لو
كنت اتجرت بالتراب لصرت من أكابر الاغنياء • ولكنني شغلت نفسي بما
لا يفيد ، فذرعت فضاء الله في فرنسا ، الى أن سبحت في بحر الماتش •
وذرت فضاء الله في العراق ، الى أن سبحت في شط العرب • وألفت
اثني واربعين كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية • واشتغلت بالتدريس
عشرين سنة • وكانت صراحتي تقطع رزقي • فأخرجني الأستاذ
محمد حسن العشماوي من عملي • وأخرجني الأستاذ عبد الرزاق أحمد
السنهوري من وزارة المعارف •

ويقول : « لم أنتفع بشيء • فمنذ عام ١٩١٣ الى سنة ١٩٥٠ وأنا
أحرر فى الجرائد والمجلات ، وأملأ الدنيا ضجيجا ، وأنشئ مدارس
أدبية وفلسفية ، وأنظم القصائد الجياد • ثم أرانى متخلفا فى حياتى
الرسمية • وأنا معتر بهذا التخلف • فما لأحد فى حياتى ما يمن به على
إذا اشتجر بينى وبينه الجدل » •

وهو يعيش فى حيرة دائمة متصلة ، كأنما هو غريب • • يخشى
دائما أن يواجه نفسه • « ما رجعت الى نفسى مرة الا تهيت اقتحام ما فى
شعابها من وعور وصخور وأشواك • وقد وقعت مرة على ساحل النفس فى
ظلمات الليل • فرأيتنى عندها من الغرباء • وكيف لا أكون كذلك ، وأنا
منها على بعد سحيق ، سحيق ، يعد بالملايين من الاميال ؟ •

وفى ليلة عيد الميلاد : يمضى يجوب الظلمات • وقد راعه أن يجد
فى قلبه فزعا مخيفا يذكر بالفراغ • وفى كل مناسبة أو فى كل عيد تراه
يقاسى الحيرة نفسها • ويضيق بدياليه وأيامه ، كأنما يبحث عن شيء
مجهول •

وهو الى ذلك قد يمضى العام دون أن يعرف طعم السهر فى مغائى
القاهرة • وترى أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب ، فقد بقى قلبه
كالغابة فى ضمير الظلماء • « فان قلت اتى أشكو خيبة فى الحب أو
اخفاقا فى المجد أو غدرا فى الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات
هينة ، تزعج النفس لحظة ، ثم تزول • • وأكاد أحسب ان الناس يتخذون
من الحب والصدقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم •

وأنا لم أنجح فى شيء من ذلك ، لأن استقلال ارادتى حال بينى
وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات • وأنا بين المؤمنين ، ملحد •
وبين الملحدين ، مؤمن • وأنا بر عند الفجار • فاجر عند الابرار • فأنا
فى كل بيئة أجنبى • وفى كل أرض غريب • •

ولا يلبث أن يرى نفسه متحررا من كل تبعية فيقول « كان يجب
أن يكون فى مصر كاتب مفكر متحرر من العبودية لمن فى أيديهم الرفع
والخفض ، وأنا ذلك الكاتب » •

وقد صدق ...

وعندما عاد من العراق ازداد احساسه بالغربة ، فرسم هذه الصورة
التي تدل على الامعان فى الغربة ...

« هذه داري ، الدار التي أقمتها على أطراف الصحراء بمصر
الجديدة لافتح أمام قلبي آفاق المجهول في عوالم المباني • وهذا وطني ،
الوطن الذي عانيت من أجله ما عانيت ، ولم أخه في سر ولا جهر ،
ولم يرمني غير الصدق والوفاء • هذه داري ، وهذا وطني • ولكن أين
أحبائي وأحبابي ؟ من كان يظن أنني أقضي الأيام والأسابيع فلا أجد من
يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال • من كان يظن أنني أحبس نفسي
في داري ليالي وأياما ، فلا يسهر لعزلي جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع
وجدان ؟ من كان يظن أنني لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ
رجعت من بغداد ؟ »

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل ، وأفتح النوافذ ، لأرى كيف
يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء • آه • ثم آه من حيرة القلب في غفوات
الليل •

أيتها الصحراء : ان حالك مثل حالي • موات في موات • وقد
تمرح فوق تراك الميت هوام وحشرات ، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح
هوام وحشرات ، هي السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب
وجمال الوجود •

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث ، فتبت فوق نراك الأعشاب
أما قلبي فقد أمحل الى الابد • ولن ينبت فيه شيء •

أيها الليل ، خذ السواد من قلبي ، ان أعوزك السواد • خذ الظلام
من حظي ان أعوزك الظلام • خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب
المقبلات •

أيها الليل ، لا تجزع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك
لا تفزع من الوحدة ، ففي قلبي ظلمات تسائر لما تحمل من ظلمات •

انت باق على الزمان • وأنا صائر الى الفناء • • •

تزوج زكى مبارك مبكرا ، ومنذ عمل فى الجامعة سكرتير انسيو
كازانوف بدأ يتطلع الى المجد • ألم باللغة الفرنسية منذ كان طالبا بالازهر
وخطب بها على منبره • وكان يدرس فى الصباح • وفى المساء ، كان
يلقى دروسا مسائية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الاليانس فرانسيز
• • • وكان له أولاد وأسرة • • • ولم تمنعه متاعبه هذه من أن يجاهد
ويعبر البحر • • • وقد فرق بين الزوجة الفلاحة والزوجة السافرة • •
فاعترف لزوجته بالفضل • • • يسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل
لزوجتى الفلاحة التى سارت مسيرة أمها وأختها • فحفظت قلبى سليما
من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • •

وذكر أثر الزوجات الجميلات فى حياة ازواجهم : • علمتى
التجارب ان الرجال الذين لهم زوجات سوافر تقضى لهم مصالح لاتقضى
لأمثالنا نحن المحافظين المفضلين الذين يجهلون خلق الزمان • •

وقد صور أحزانه لفقدانه : • كنت ألقى دروسا مسائية فى تدريس
اللغة الفرنسية ، بمدرسة الاليانس فرانسيز • وكنت أخرج مكدودا بعد
ساعتين من الدرس • دخلت البيت فوجدته فى سكون على غير المألوف •
فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لا تريد أن ترانى ، لئلا أقرأ
فى سطور وجهها أن (أحمد) مات • أويت الى فراشى ، وهو فى الدور
الثانى من البيت • وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجات • ان للشكل
طعما مرا للغاية • كفته يدي • وحملته على كتفى الى مشواه الاخير •

وكان زكى مبارك فى شبابه نحىلا • وقد صور ذلك فى شعر
كتبه تحت صورته فى مقدمة كتابه « حب ابن أبى ربيعة » سنة ١٩١٩ :

لم يبد رسمى ضئيلا	كالبدر عند المحاق
الا لأن اللىلىالى	ومالها من خلاق
ساعات فصارت بلادى	غضنغنا فى وثاق

وقال انه فى هذه السن كان لا يزيد وزنه على ٣٠ كيلو جرام • ثم

زاد وزنه حتى أصبح ٨٤ كيلو جرام • وهو لهذا لم يكن يأكل
الخبر منذ عام ١٩٣٣ بوصية أحد أطباء باريس •

وقد روى عن نفسه أنه كان يصوم رمضان حتى في باريس :

« كانت صحتي قد اعتلت ، فنهاني الدكتور محمد عبد الحى عن
الصيام في شهر رمضان • ولكنى رأيت أن أصوم في الاعوام التى قضيتها
في مدينة الحلال في جميع الأشياء • لقد شعرت بروحانية غريبة حين
صمت عن الطعام والشراب في مدينة باريس ، وهو صيام غريب وعجيب
ثم أفطرت حين قرأت قول الشاعر الصوفى :

إذا المرء صام عن الدنيا • فكل شهوره شهر الصيام

وقد عرف بالوفاء ، حتى كان أهل بيته يترقبون عودته من غيابه
في كل مرة •

وكانت لزكى مبارك دقة جرس معروفة ، اذا ما وصل
صداها الى أهل منزله عرفوا أنه قد وصل • • وعند ما عاد من العراق
فاجأهم بها • يقول « كانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع
أهل البيت :

قالت زوجتي وهى تبكى من الفرح : ما كنت أحسب أنى سأعيش
حتى أراك • فقلت : أتم تغلون نشاطى بهذا الحنان المزعج • • «

ومن وفائه ما سجله من أنه كان لو عاش أبوه حتى يؤدي له بعض
ديونه : « كان في النية أن أؤدي الى أبى في شيخوخته بعض الديون
التي طوق بها عنقى في شبابه • ولكنه مات قبل أن أؤدي بعض الديون
الثقال • • لم يبق ما أتعزى به في عقوق أبى الا أنى لم أوجب عليه أن يسهر
ليلة واحدة من أجلى • فلم يمت الا بعد أن عرف أنى مزود ومؤهل
بالألقاب العلمية • • «

وهو بالرغم مما اتهم به من تحلل أو كفران ، يتجه الى الله بقلب
مؤمن ايمانا عميقا • • فينادى :

« يا ملاذ كل خائف • ومأمن كل ملهوف » لقد مرت أجيال وأنت
المأوى الأمين لكل من تضيق عنه بلاده • • • »

ويرسم للحق جل وعلا هذه الصورة الرائعة :

« النور القدير على تمزيق الظلمات ، هو نور الله ، النور الغلاب
القهار الذى لا يصدده حجاب ، ولو كان فى كثافة أنفاس المحجوبين عمن
كرم واجب الوجود • وما تمر بنا لحظة من لحظات الكد والغيظ الا كانت
شاهدا على أن ايماننا بالله ايمان مدخول •

ولا تمر بنا لحظة تعتمد فيها على هذا المخلوق أو ذاك الا كانت دليلا
على أن ثقتنا بالله مزعزة الأركان •

فما بال قوم تطير نفوسهم شعاعا حين يهدرون بغضب بعض الخلائق
ولا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله

جرب الثقة بالله ان كنت لم تجربها من قبل ، فسترى أن الأنس
بالله يرفع عنك اعباء الثقة بالناس ، وما اعتمد أحد على خلق الله الا باء
بالخذلان • •

وهو يصور موقفه من الرضا بعطاء الله فى أجمل صورته ، حين
يقول :

« فى يوم ضائف جاءوا بما لا أريد ، فقدموا الى طعاما لا أشتهيه فى
أيام الصيف ، وكانت النتيجة ان أهم بالاعتراض • وفى أقصر من لمح
البصر تيقظ قلبى وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانحلال •
وأنى لو جحدت الرزق فى أية صورة لذهب الى غير معاد •

ان نعم الله تواجهنا من كل جانب • ويكذب من يزعم ان الله يتخلى
عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء • •

وهو يؤمن بأن الله هو صاحب الضر والنفع : « من تلك النعم :
نعمة الرضاء المطلق بما كتبه وقضاه • فما أذكر أبدا انى جزعت أو
ضجرت من مكروه يلم بى • وهناك نعمة أعظم ، تفضل بها على الله ،

وهي الايمان بأنه تباركت أسماؤه ، هو وحده القادر على الضر والنفع ،
فما خشيت غيره ، ولا رجوت سواه . . .

وهو في كثير من الأحيان يرى نفسه دون ما يرجو من الايمان
بالله :

« هل صفت نفسي كل الصفاء • مازلت أشكو بعدى عن ربي •
وكنت قبل ذلك في فراديس من الايمان الجميل • كنت كلما رأيت ظلم
الناس ، أقول : لقد بقي لي ذلك الكنز الذي لا ينفد ولا يفنى • وذلك
المعين الذي لا ينضب ولا يفيض • يبقى لي الله • تلمس يدي وترى عيني
آثار رحمته وعد له ، وتكاد تصافحه يميني • ولو شئت لمضيت في ترديد
هذه الجملة • ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما في القلوب ؟ أنا أشتهي
أن ينعم الله علي ، بايمان أقوى وأمتع وأشهى . . .

ليس في الوجود كله ما يغنيني عنك ياسر الاسرار ، وياروح
الأرواح »

هل أحب زكي مبارك ؟ هل حسن رأيه في المرأة أم ساء ؟

ما تجاربه في الحب . . . ؟ ان مجموع ما كتبه في هذا الباب لا يعطي
صورة واضحة تكشف عن حقيقة موقفه من الحب والمرأة •

يقول « كيف يصف الحب من لا يحب • أشهد صادقاً أنني لم
أعرف • أنا لا أحب ، لا أحب أحدا • واني أحب نفسي • أنا لم أحب •
ولم أعرف الحب • لأن قلبي أعظم من أن يحب • ولم يخلق الى اليوم
وجه يكافئ ما في قلبي من صراحة الصدق وصفاء الحنان • ولو أنني
أنفقت في سبيل المجد بعض ما أنفقت في سبيل الحب لكنت اليوم رئيس
الوزراء •

يسألونني عن تجاربي في الحب • انه تجارة خاسرة ، وأرض
موات •

لقد جربت الحب وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين • فمن اغتر
بالحب بعد ما حذرتة وأنذرتة فهو مضيع مغبون •

ويقول : الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس • الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح عن الروح • وتسرى نشوتها في الأفئدة سريان الصبا في الفصن • الحب قبس من الصهباء في كأس من الماس • الحب لمحة من لمحات السحر الذي يفحص به الوجود في ليلة قمرء • الحب نعمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجى القلوب • الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم • الحب عاطفة ماحقه ، ما يدرى الرجل أهى نعمة أم نقمة • ولا يعلم أهى هدى أم ضلال • انما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتذك الجبال ، الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين وانسجام نفسيين • الحب هو أن تذوب القسوة في كوثر الجنان • وان تأنس الاسود الى الظباء • الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة وتفتته الخطرة ويأسره الدلال • الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب • الحب هو أن تخاطر بالملك في سبيل من تحب •

ولا شك أن هذه الصبورة الرائعة لا يستطيع أن يرسمها الا رجل له في الحب تجارب وقصص ومغامرات بعيدة المدى •

ولعل « زكى مبارك » الذي أحب في أول شبابه تلك الفتاة الفلاحه (فتحية) • فلما ماتت ظلت تلاحقه بطيفها حتى بعد ان ذهب الى باريس والذي بدا حياته يقول شعر الحب ويكتب عن شيخ المحيين عمر بن أبى ربيعة ، يستطيع زكى مبارك نفسه أن يحدثنا عن فجر حياته :

« لقد ابتدأت حياتي الوجدانية بأخطر بداية • ابتدأتها باللعب بالجمر • وما أخطر الجمر في أيدي اللاعبيين • فقد نظمت في حدائتي هذين البيتين :

أشجاك ما بخلف الستار وانما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا انى بكل حسانهم مفتون

وكان ذلك كله مزاجا في مزاج ، ثم انقلب اللهو الى جد صراح • فأنا اليوم أتمثل الحسن في كل مكان • فما مشيت في الطريق الا افترضت ان ثراه قد

نعطر فى صباحه أو مسائه ببعض الاقدام اللطاف • وما رأيت نافذة
تفرغ عليها ستارة ، الا توهمت أن هناك مليحة تداعب جمالها فى
المرآة • وما سكن الليل الا توهمت سكونه نجوى حيين • ولا لاح
نجم أو طلع البدر الا تذكرت أن هناك قلوبا تخفق طربا أو حزنا
لمصابيح السماء •• ولا أشرق البدر الا طربت لمن شبهوا به أسيلات
الخدود ، ولا اهتز الغصن الا انتشيت لما يذكر به من رشيقات القدود •
ولا ترنم مزهو ولا عود ، الا تشوقت روحى الى ما توسوس به الاوتار
من ذكريات الهوى والجمال •

فأنا أعيش فى دنيا من المعانى بعضها بهيج • وبعضها حزين ،
والحزن والابتهاج يتراوحيان فى قلبى صباح مساء • فما أدري أشقى
أنا أم سعيد •

ولى فى مشارق الأرض ومغاربها قلوب وأرواح ، أخشى عليها
غدر الزمان ، وذلك أخطر ما أفكر فيه فى ليالى الأعياد •

ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو واعلام وجدى باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقى بشيرا وناعينا
ويرسم زكى مبارك صورا متعددة لأشواقه وعواطفه • ولكن حبه
لمرجريت يفوق كل ما رسم من صور :

« كنت أقول ان مرجريت أوث روحى وقلبى خمسة عشر شهرا
وأمكننى أن أصبر أبا كريما لطفل جميل • وكنت أقول ان لمرجريت
فضلا عظيما فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية • المرونة التى مكنتنى من
أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات •
وذلك مغنم ليس بالقليل •

كنت أقول ان مرجريت هى التى عرفتني بدقائق الحياة فى باريس
كنت أقول انى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين الا بفضل مرجريت
وكانت مرجريت تكتب الى كل أسبوع خطابين • وكانت تخاطبني

بالكاف • وكنت أبخل عليها بالمخاطبة بالكاف ، لأنى كنت أخشى أن يكون فى المخاطبة بالكاف ما يشهد بأنى كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية • وكانت تقول ان بخلك على بالمخاطبة بالكاف يوحى الى بأن أخفى رسائلك عن موريس • وهى كل ما فى حياة هذا الطفل المسكين من عزاء • حرسك الله يا موريس وبارك فى حياتك الغالية •

وكانت مرجريت تتحدث فى رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر الا فى رسائل العشاق • وكنت أتغافل عن تلك الاشياء حين أكتب الجواب وكان هذا يؤذيها أبلغ اذى • فكانت تتهمنى بالقسوة والعنف • والله وحده يعلم كيف كنت أسىء الأدب فى مراسلة مرجريت • فانا أعيش فى القاهرة • وهى تعيش فى باريس •

هل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالى يحيا فى القاهرة بلا ناصر ولا معين ؟ هل تعلم مرجريت أنى لا أصلح أبدا لما صلح له فكتور كوزان الذى كان أعظم أستاذ للفلسفة فى باريس • ولم تكن له زوجة • وانما كانت له خلية تحرسه وترعاه • ان مرجريت لا تفهم انى مصرى ، يعيش فى مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس • مرجريت اذكرينى بالشعر يوم أموت • • •

وفى الوقت الذى يروى هذه القصة ، يروى قصة أخرى عن حب آخر فى باريس • • أتحدث عن روح لطيفة عرفت فى باريس • روح جميلة لها فى حياتى تاريخ وتواريخ • كان اسمها مادلين • فسميتها ليلي • ودعنتى فى محطة ليون ، وأرسلت لى برقية على الباخرة شامبليون ثم أخذت مادلين توالينى بالرسائل اللطاف ، وبلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار فى حبنى ، حتى شاء هواها أن تزور القاهرة لترانى • فلما لقيتنى قالت : متى نتزوج ؟

فقلت لها اننى متزوج ولى أبناء • • •

وغير هذا قصص أخرى عن ليلي المريضة فى العراق ، والزمالك ومصر الجديدة • • • الخ •

بدأت هذه القصص بالآنسة : مى زيادة •• التى كانت زميلته
يوم كان طالبا فى الجامعة • وكانت آية فى الجمال • وكنت أمضى معها
الى بيتها ومعى مذكرات الفلسفة • فأملى ، وتكتب • وأنا أشرب جمالها
بـيـونى •

ولكن زكى مبارك الذى يحب ، ويصور حبه فى مثل هذه المعانى
له رأى فى المرأة عجيب • فيه مرارة وحقد وكراهية •• ونقمة !

« المرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخيـف • لأنها تجهل ما فطرت
عليه من الضعف • وهى لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال •
والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة ، بفضل ما فطر عليه من الهيام
بالجمال والرفق بالضعفاء • وتظن أنه لا يراعيها الا بفضل ما تملك من
السحر والجاذبية وفى المرأة سحر وجاذبية وان كانت شوهاء لأنها
باب الى الضلال •

المرأة ، المرأة ••• غضبة الله على جميع بنات حواء ••

المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيب • والمرأة الدمية قد
تسعد زوجها بلا ترفق •

والمرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان •
وما أطاع رجل امرأته الا هان وذل • وأعظم ميزة لدين الاسلام
هى دعوته الى الحذر من النساء •

أعاذنا الله من كيد النساء فان كيدهن أعظم من كيد الشياطين •
ولكن ما الذى أشكوه من المرأة ، حتى أصب على رأسها
هذا السوط •

ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوها فى الغيرة •

لم تكتف المرأة بالسيطرة على الرجال فى البيوت ، وانما تريد
السيطرة على الحياة الاجتماعية ، وتطالب بحرية الانتخابات والمساواة
فى الميراث • وما وقع ذلك الا لأن الرجال حرموا فضائلهم الاساسية •

فهم اليوم يتظرفون ليقال انهم متمدنون • غضبه الله والملائكة على رجال
هذا الزمان •

وبلائي في دنياي أعظم بلاء : لاني متزوج وعاشقي • انا ارى
المرأة في البيت وفي خارج البيت • أراها حيثما توجهت • لأن الله كتب
أن أكون من الأشقياء • واذا دق التلفون في المنزل تظن زوجتي أن
جميع المحادثات التلفونية آتية من سفير الوجد في الزمالك وحلوان •
واذا ذهبت الى باريس فهي تظن اني ماض الى محادثة مرجريت •
واذا مضيت الى بغداد فهي تظن اني ماض الى مغازلة ظمياء • واذا تقلبت
من مدينة الى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتني على ميعاد مع حسان
الاسكندرية ، أو ملاح أسيوط • فمن يفهم هذه المرأة • انني لا أريد
غير فهم سرائر النساء لأقدم الى الأدب ألوانا من الدراسات النفسية « (١)
• • وهو يصور المرأة في أكثر من موضع تصوير الخير وان بدا
في آرائه بعض التحامل الذي ربما كان مصدره فشله في الحب •

• ان المرأة يؤنسها ويعجبها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل
شيء وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح الافاعي
بسواد الليل •

• ان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش •

• المرأة التي تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن
تحفظ معها الادب في السر والعلانية • والمرأة تعطى كثيرا جدا حين
تجود بابتسامة • والعاشق في جميع أحواله أقل تضحية من المعشوق
لأن العاشق يأخذ • والمعشوق يمنع • والفرق بين الحالين بعيد •

وقد أعلن زكي مبارك رأيه خفية في المرأة فاعترف بأنه يحقد
عليها كما يحقد على الأدب : « أحقد على المرأة لأنها لئيمة • وأي لؤم
أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن
تجد انسانا سواك ، وهي مع هذا اللؤم شر لا بد منه • لأن الحياة قضت

(١) ص ١٩٥ جزء ٣ لبلى المريضة في العراق .

بذلك • وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كارها الى سلطان
تلك الحية الرقطاء •

« • • فكرت فى شر المرأة ، ولكنى لم أستطيع الخلاص ، لأن
المرأة شبهت صدقا بالشمس ، فهى تلقانا فى كل مكان ، وليس عن
سحرها محيد • • »

هكذا وصف عبد الله حبيب (زكى مبارك) « الجسم المكتنز •
الوجه الأحمر الطلق • الأنف الكبير المقوس • الألواح العريضة
المنبسطة • المنخر المنتفخ • الصوت الناشز المدوى •

وهو بعد هذا فى رأى عبد الله حبيب - « خلق بغير فرامل ، أو
هو كالسيارة الضخمة التى لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة
سيرها • فهو ان سار لابد من حادثة تصادم • كان طالبا يصطدم فى
دروسه بشيوخه ورفاقه • وكان مدرسا يناوش وصفاءه (زملاءه) فى
آرائهم ، ويصاولهم فى بحوثهم • وألف كتباً ، فكانت سببا فى أن يصطدم
كل من يتناولها ، بنقد أو تجريح •

• • فاذا أضيف الى شخصية زكى مبارك الموصومة بالاندفاع ، روح
الفكاهة والسخرية الحلوة ، استطعنا أن نفهم قوله : « لو كانت العيون
تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس • »

♦ « وللخمر فى تصوير ملامح شخصية زكى مبارك حديث » فقد
كان لزكى مبارك رأى فيها • • ثم تحول هذا الرأى الى شىء خطير ، كان
بعيد الأثر فى وضع نهاية حياته • فيقول عام ١٩٣٠ •

« أنا لا أشرب الراح المشعشة مقتولة ، لانهى الفصل ، ولا تزيف
البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار • وليس لى منها ، يعلم الله
صبوح أو غبوق ، الا حين أبكى عهدا سلف ، أو اطرب الى عهد مأمول •

وقد صحا القلب والحمد لله فلم يبق داعية الى معايشرة الشراب
وتذكر الأحباب • وأغرب ما يمر بخاطرى فى هذه اللحظة حديث الشيخ

يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه ، بالازهر ، انه لا يشرب الا الماء ويعلق على ذلك بقوله : « والماء مع هذا شراب الحمير » .

وكنـت اذ ذاك اعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أنه لم يرزق من الشراب الا ما يشارك فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك ان الكلام قديم . وأنه يرجع الى الأخطل الشاعر النصرانى المعروف ..

ولكن لم تمض على هذا الكلام غير سنوات حتى بدأ زكى مبارك يعاقر الخمر . فيكون له منها صبوح وغبوق .

حتى جاء الوقت الذى أسرف فيها اسرافا . فأصبحت ترخى المفصل وتزيغ البصر .. وتحول اتجاهه كله واتجاهه كله الى شىء غير قليل من الضعف والتفسخ .

ولقد كتب المرحوم محمد حمدي فى ٢٩/١/١٩٥٢ ، وهو تاريخ يسبق وفاة زكى مبارك بأسبوعين ، فى مجلة « النداء » تحت عنوان « ثمن العلم » حديثا عجيبا جرى بينه وبين زكى مبارك ، يصور أزمته تصويرا مريرا كان علامة النهاية فى حياة خصبة ، ويعلن انطفاء عقل عبقرى قسوى .

وهذا هو نص الحديث :

« قال لى وهو يدفع بالكأس فى فمه دفعا . وكان الوقت ظهرا واليوم من رمضان . والأديب الكبير جالس على قارعة الطريق ، فى أحد بارات ميدان ابراهيم باشا . والناس علينا متجمعون ، يشهدون المنظر العجيب .

— لماذا تقاوم رغبة صديق وزميل لك فى الصحافة والادب . ثق يا أخا الصحافة انى لست مجنونا ولا ملتاث العقل . ولم أفقد ذرة واحدة من ايمانى بالله . وكل ما هنالك اننى ضحية لحقيقة علمية كان من سوء حظى أنها بقيت مجهولة حتى كشفتها أنا .

وصب الكأس التى كانت فى يده ، فى فمه ، دفعة واحدة . وشيع السائل الأبيض بجذازات من الطماطم المملحة ، ثم رمقنى بإتسامة خلقتها

تدل على أن الرجل لم يصدق في حرف واحد مما قاله لي ، ثم خلع نظارته.
البيضاء الساذجة واستطرد يقول :

— هل تعرف يا صديقي أن للمخ وزنا وثقلا وكثافة • هل تعرف
يا صديقي أن نوع التفكير الذي يباشره الفكر له علاقة بطول عمر المخ.
وبقائه في حالة جيدة • أو نقصان أهليته أو فسادها ؟ وهل تعلم يا صديقي.
أن مايسمونه القدرة الابتدائية هي أشد أنواع التفكير استهلاكاً للمخ •
إذا كنت لاتعلم هذا فعه واستوعبه • وبعد كأس أخرى ، الله وحده يعلم.
أين تقع في صف الكئوس التي كان يتجرعها يوميا ، وبعد تشجيعها بحبات
من الفول النبات ، الذي يعشقه شاربو (الزبيب) جذبنى بيده جذبة قوية •
وهو يكاد يتهاوى في مجلسه • ثم قال :

— اننى الآن أدفع ثمن العلم الذي حصلته • لقد استهلكك انشاءاتى
الكمية الوزنية للعقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة ،
في مختلف الفنون الأدبية • أجل ، استهلكك دراساتى ومؤلفاتى ماكان
لدى من ذلك قبل الألوان • وأنا الآن برم ضيق الصدر لأننى أريد مواصلة
البحث والدرس ، ولكنى لا أجد عندى قدرة على ذلك • وماذا يكون
الكاتب والمفكر اذا كف عن الانتاج ؟ هل يكون شيئا أكثر من (ذبالة
انسان) ، (عقب أديب) ، (كعب مفكر) • وهل أرضى تخيل هذه
المكانة ؟ • اذن ليكن لي في الخمر مخبأ وملاذ أقضى فيه مابقى من ثمالة
العمر دافعا ثمن العلم الذى حصلته • •

تحدث زكى مبارك عن مواقف كثيرة ترسم صورة لشخصيته المرحية
الجذابة ، لعل أقوى هذه الصور أثرا في النفس ، قصة نزوله الى خليج
استانلى بتوب البحر ، حيث لم لقي فقيرا هنديا يقرأ الكف • فنافسه في
صناعته • واستطاع ان يجمع الناس حوله ، ويجعلهم ينفضون عن الفقير
الهندي • فقد أعلن لهم أنه حصل على شهادة في علم الكف من باريس •

يقول : « ذهبت في ضحى يوم صائف الى خليج استانلى ، ونزلت
بثوب البحر الى ملعب الغزلان • فرأيت فقيرا هنديا يقرأ الكف لفتاة

تاهد ، تشبه أفرووديت ، أو تشبهها أفرووديت • فجلست بجانبها جلسة
الباحث المتعقب ، لاجلسة اللاهى اللاعب • وما هى الا لحظات حتى قلت
بصوت الواثق بصحة ما يقول :

• على رسلك أيها الساحر • فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف •
وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى • أين تعلمت هذا
العلم أيها الدرويش الجهول ؟ ••

فانزعج الرجل انزعاجا شديدا • وفقراء الهنود ضعاف العزائم
والقلوب فى أكثر الأحيان • ونظرت الفتاة فى استغراب ، وقالت :
- وحضرتك تعرف علم الكف ؟ ••

• قلت وأقسم ما قلت غير الصدق : - نعم • أعرف علم الكف • وهو
خير ما تعلمت فى باريس •

• فانعطفت الفتاة ، فى تخاذل ، وقالت : تسمح تقرأ لى كفى •
فأخذت يدها ، ونظرت الى صدرها مرة ، والى عينيها مرتين • ثم
شرعت أقص عليها أخبار المستقبل ، وما فيه من ابتسام وأنين •
وما هى الا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء ••

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع • وأقبل يسر فى أذنى : تتفضل
بكلمة ؟ •• فقلت نعم • وانتحيت بعيدا عن أسماع الطباء •

فقال أعرف أنه لايفل الحديد الا الحديد • أنت تحدث الفتيسات
بأحاديث أجهلها كل الجهل • ويغلب على ظنى أنك لاتقرأ الكف ، وانما
تقرأ العيون •

ثم قال : أرجو أن تيعنى هذا الميدان • وقدم عشرة دنانير •
- أنا أترك لك الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات ••
- أنا لم أغنم فى هذا الموسم غير اربعين دينارا •

- اذن تدفع عشرين دينارا ، وتحفظ لنفسك بعشرين • •

هذه هي القصة التي رواها زكي مبارك ، في عديد من كتبه ، ومقالاته على نحو آخر ، وهي ترسم جانبا من ملامح شخصيته المرححة الساخرة .

ومع ذلك فقد عاش زكي مبارك فلاحا أزهريا حتى بعد أن عاد من باريس . وهو يفخر بأن « أحمد زكي باشا » قال عنه : « ان زكي مبارك » عاش في باريس معاش . وظل مع ذلك فلاحا من ستريس . . »

وفد تقلب زكي مبارك بين الازياء . فكان معمما . ثم مطربشا . ثم مقبعا . ثم لبس السدارة العراقية . . وهو يرى أن من الخير أن يلبس المرء زي اهل البلد الذي يعيش فيه . .

يقول : « اننى تقلبت في ملابسى من حال الى حال . فكنت أولا لبس الطاقية والجلابية . وهو لباس أهلى في ستريس . . ثم كنت معمما يوم كنت طالبا في الأزهر الشريف . ولم يظهر أنى كنت غريبا بين الأزهرين فقد كانت عمامتى أطرف عمامة . وكان هندامى أجمل هندام . وكنت وحدى في الأزهر أمثل مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة الا قال : قبحهم الله . . »

وكان في النية أن أظل أزهريا . فقد انتقلت من مذهب الشافعى الى مذهب أبى حنيفة ، لأكون مفتى الديار المصرية .

ثم نقلتنى الأقدار الى الجامعة لأصبح من تلاميذ ، منصور فهمى ، وطه حسين . ومع ذلك فقد ظلمت معمما الى أن ظفرت بأجازة الليسانس : فى العلوم الفلسفية والادبية سنة ١٩٢١ . ثم أخذت أستاذ لامتحسان الدكتوراه ، فبدأ لى أن أصبح (أفندى) فقدمت ما عندى من الجيب الى أحد الطرزية (الترزية) فى شارع محمد على ، فصنع منها بذلتين سخيفتين ، شهدتا بأنى كنت مهندما فى الحجة والقفطان ، ثم أصبحت أضحوكة فى السترة والبنطلون .

وفى يوم امتحان الدكتوراه اوصانى الدكتور منصور فهمى أن أحضر فى البذلة السوداء . فلم أفهم المراد . ولولا فصاحتى وبلاغتى فى ذلك اليوم لعدنى الخاضرون من السفهاء . .

وجاء في رسالتي أني قد أخلع العمامة وألبس الطربوش • ولكني
لا ألبس القبعة • ولكني ليست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين ، حين
هاجرت لطلب العلم ، في مارس سنة ١٩٢٧ • ومن الغريب اني لم أصنع
كما صنع زملائي • وعهدى بهم يذهبون الى البواخر بالطرايش ، وانما
لبست القبعة من منزلي في مصر الجديدة ، فلم يعرفني المودعون ، وفيهم
الشيخ ابراهيم القاياتي ، رحمه الله •

وفي العراق لبست السدارة • وعندي أن الأخلاق الكريمة تقوم
على أساس الاندماج المطلق في البلد الذي تعيش فيه • والسدارة العراقية
لباس جميل • • •

ولقد رسم زكي مبارك صوراً كثيرة لحياته • فلم يحوجنا الى البحث
عن هذه التفاصيل الدقيقة التي جاء منها قوله انه كان يضع كل صباح في
حافظة كتبه ، وهو في طريقه الى الأزهر الشريف رغيفاً جافاً يابساً متجهم
الملامح ، كان لمبارك زاد يومه • وكان يغمس هذا الرغيف في مرق الفول
النابت • وانه في يوم أراد أن يهرس هذا الرغيف ، فلم يلبث أن تفجر
الدم القاني من يده •

ويقول عن نفسه « الذين قرءوا » مدام العشاق « يحسبونني فتى
لا يتجاوز الثلاثين • والذين قرءوا « الأخلاق عند الغزالي » يحسبونني
شيخاً يصفح الثمانين • »

وانه ورث خضرة العينين عن أمه ، سقى قبرها الغيث •

وان ذاكرته فيها شذوذ فظيع • وضعيفة كل الضعف فيما يتصل
بالأرقام والأعلام • وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني :
فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأنني قد شهدتها
ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه • •

وهو في اندفاعه في الحياة يرى نفسه كالثور ، يسعى ليدرج حزمة

الحشيش التي يراها على شبر واحد منه ، فيهلكه السعى ، ولا ينالها أبداً ،
لأنها معلقة بقرنيه ، تسعى أمامه .

ويقول : « ان اعين الناس لا ترى فى كل الأحيان . فهم يعيشون فى
أعماق ماضيهم ، كصنوف السمك العمياء فى أعماق المحيطات !! » .

غربة القلب

أبرز معالم حياة زكى مبارك هو احساسه العميق الدائم بغربة القلب .
انه قد امن بالصراحة والوضوح والجرأة على قول كلمة الحق ، ولذلك
عجز عن المجاملة والمداورة . ولو استطاعها لكان أحسن حظاً فى حياته .
وبالرغم من أنه اختلط بأجواء مختلفة وأوساط متعددة ، وذهب الى أوروبا
والعراق ، وطاف بالبلاد العربية ، والتقى بعشرات المثقفين والأعلام . وقرأ
مئات الكتب ، وفيها فنون القول عن اللباقة والصراحة والمداواة والتحرز
والتقية فانه عجز عن أن يعمق طبيعته الريفية الفلاحة التي ظلت واضحة
فى حياته وأدبه معا ، طوال حياته .

ولعله أحس كم جرت عليه طبيعته هذه من نتائج ، وأوقعته فى متاعب
وأخرت تقدمه فى الحياة ، وحالت بينه وبين أن يصل الى المكان الذى وصل
إليه أترابه . وقد كان دائم الاحساس بأنه غريب منبوذ : يقول :

« أين وطنك يا قلبى . أحب أن أعرف أين وطنك ، لأمضى معك
إليه ؟ أهو مصر . كذبت ثم كذبت . فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان
لك اليوم مكان مرموق ولكنك فى مصر منبوذ مجهول .

قلبي ، قلبي ، رحمة الله عليك فقد سعد ناس بالرفق المزيف ،
وشقيت أنت بالرفق الصحيح وقد وصل ناس لأنهم كذبوا وتخلفت ،
لأنك صدقت ، ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت وانتفع ناس
لأنهم غدروا وخسرت أنت لأنك وفيت . قلبي . قلبي . أحسن الله
إليك .

ان هذه العبارات عميقة الاحساس بالألم • فقد كان زكى مبارك يشعر صادقاً بأنه تخلف لأنه تمسك بالصدق والوفاء والجِد • وان غيره تقدم لأنه تمسك بالكذب والخيانة والهزل والغدر •

وهو يرى أن الرجل الذى يجاهد فى الحياة عن طريق الشرف يلاقى من عنف معاصريه ألوف الصعاب ، وتكاد استقامة المنطق تصبح تهمة لكل من يدوس على ما تواضع عليه أهل العصر من زيغ وضلال •
والأصدقاء : ما رأى زكى مبارك فيهم ؟ • •

قال : « الأصدقاء يملكون من ايدائك مالا يملك الأعداء • فالعدو • يتهم • وتجريحه اياك يتلقاه الناس ساخرين • والصديق • يؤتمن • وتجريحه اياك يتلقاه الناس بالقبول • »

وهو يرى أن كلمة الخير مزدرة وهى موضع كراهية الناس •
يقول : « ما ذكرت انسانا بالخير فى حديث أو مقال أو كتاب ، الا كان ذلك كافيا لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه • ولا ذكرت انسانا بالشر فى حديث أو مقال أو كتاب الا رأيت من يشئ على أدبى ويصفنى بالجرأة والشجاعة والعبقرية »

ولكن هذا كله لا يجعله ينحرف عن استقامة فكره وضميره • •

وهو القائل : « ان الذخيرة الباقية فى حياتى هى أننى أعيش بروحى وقلمى • انه روح لطيف • وقلم نظيف • فما استطاعت حكومة أن تستأجر قلمى • • » ويسأل نفسه بعد ذلك • فيقول : « هل أفقرنى الشرف ؟! »
وبالرغم مما لاقاه من خصومه من عنف وعنت ، فهو يؤمن بأن الله عز وجل أقوى من كل قوى •

« قد علمتنى التجارب وستعلمكم ان الانسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الانسان • فهناك قوة بانية تبيح الجهاد فى سبيل الرزق الحلال وهذه القوة لا تنتظر آراءكم فى التجريح والاعتياب • فانطحوا الصخر ان شئتم فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل ولا قال • • وانما الأمر كله لله »

وله فى هذا المجال كلمات عميقة المغزى • فهو يؤمن بصداقة الأرواح
ويراها فى كل شىء نفيس • ويرى مودة العقول من ذخائر الرجال •
ويقول : « مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من
الصوم والصلاة »

ولكنه بالرغم من ايمانه بالمثل العليا ، يحس باليأس بين آن وآن ،
فينعى على زمانه انه لم يصل الى مكانه الحق : يقول :
« ما الذى غنمت وأنا أمتشق القلم منذ أكثر من خمس وعشرين
سنة ، بعزيمة أقسى من الصخر ، وأصلب من الحديد ؟ »
ما الذى غنمت ، وقد كنت كاتباً وشاعراً ، قبل أن يولد فريق من
الذين تؤذيني عندهم نسيمة قللى •

لقد غنيت أهل زمانى أناشيد أيقظت بها صدورهم من أحلام غافيات
وأحييت بها ما كان فى قلوبهم من موات • فأين من يسعدنى بكلمة صدق
أدفع بها عدوان زمانى ، لأمضى على سجيتى فى السجع والغناء • • وهل
عانى أيوب فى زمانه مثل ما عانيت ؟ • •

وهذه الصرخة تصور مدى عمق احساسه بغربة القلب ، هذه الغربة
التي فرضتها عليه طبيعته ، بكل ما فيها من عنف وصراحة وجسارة •
• • • وأنه أحياناً ليحقد على الأدب ، ويحقد على المرأة • ولكن
لماذا يحقد على الأدب ؟ • •

قال : « أحقد على الأدب لأنه لا يستقيم له حال ، الا اذا حمل صاحبه
على المخاطرة فى ظلماء الوجود • ولن تجد فى العالم كله أديباً ذا مكانه
الا كانت له فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت • والقراء الذين
يحيا على حسابهم الأدب وأهله لا يؤمنون بوجود الأديب الا اذا رأوا أحشاءه
تحترق بين السطور • وقد نرى أحياناً ناساً يهاجمون الأديب ويتهمونونه
بالخروج على التقاليد • وهؤلاء الناس لا يفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ،
وانما يقعون فى أعراض الأدباء ، حسداً منهم على مارزق النابغون من

مواجهة أسرار الحياة •• ولكن ما قيمة ذلك • وما الذى فيه من العزاء ؟
ان الأديب سيظل - ولو انتصر • كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق •

وقد فكرت كثيرا فى شر الأدب على أهله • ولكنى لم أستطع الخلاص ،
لأنه كتب على ، أن أحيا من مهنة الصحافة ، ومهنة التدريس ، فهل أفلح
إذا اقتصرت على أن احادث قرائى وتلاميذى فى فضل الصمت وشرح
دلائل الخيرات •• !؟ ،

ومع هذا فقد ظل زكى مبارك فى كل مناسبة يسجل على نفسه
حقيقته التى كانت موضع الخلاف •

« لم أخدعك - أيها القارىء - فيما تعرضت لشرحه من الحقائق
الأدبية والفلسفية ، نلم أتهيب مساقط غضبك ، ولم أتلمس مـواقع
هواك • وانما صدقت كل الصدق • فرآنى فريق من الملحدىن • ورآنى
فريق من المؤمنىن • ونسبىنى قوم الى المجان • وعدنى قوم من الصوفية •
وما كنت من أولئك ولا هؤلاء • وانما أنا سائر يبحث عن علم الهداية فى
بيداء الوجود • وما بينى وبين الله لا يعرفه عدو ولا صديق • وانما علمه عند
علام الغيوب ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، •

الشاعر

بدأ « زكى مبارك » حياته الأدبية شاعرا وجدانيا ، وهذا مما يتفق مع
طبيعته العاطفية التى تدافعها الأشواق والأهواء • وقد عرف زكى مبارك
بأنه عاشق ومحـب وعابد للجمال ، بل انه ليمكن القول بأن كل ما كتبه زكى
مبارك هو الشعر من غير القوافى ، لغلبة النزعة العاطفية على كل آثاره •

وقد بدأ حياته الفكرية بدراسة شعرية لعمر بن أبى ربيعة وكان
ينشر شعره فى « الجريدة » « والسفور » • وفى مطلع حياته كان ينشر
القصيدة فى عشرات الأبيات • ثم لم يلبث أن غير اتجاهه ، فكان ينشر أحيانا
قصيدة من بيت واحد • ثم عنى بالموازنة بين الشعراء • ولكنه لم يلبث أن

أصدر ديوانه الأول عام ١٩٣٤ وانتظر ثلاثة عشر عاما حتى أصدر ديوانه الكبير « الحان الخلود » متضمنا كل شعره بما فيه ديوانه الأول •

ولم يكن زكى مبارك ينوى أن يصدر ديوانا آخر على هذه الصورة، بعد أن شغلته الابحاث الأدبية والفلسفية عن الغناء، والشعر غناء •

غير أن هجرته الى العراق عام ١٩٣٧ خلقت روحا جديدة في حياته الشعرية • فقد ساجل شعراء بغداد مساجلة قضت بأن ينظم أعظم قصيدة - في نظره - بعد قصائد ستريس وأسيوط وباريس • وهى قصيدة « من جحيم الظلم فى القاهرة الى سفير الوجد فى بغداد » تلك التى تبلغ ١١١ بيتا •

ثم يجد زكى مبارك أن اشتراكه فى مجلة « الرسالة » بضع سنين قد حول طاقته الشعرية الى صور نثرية •

وشعر (زكى مبارك) فى الأغلب شعر وجدانى • ويمكن القول بأن شعر زكى مبارك يتسم بالحزن • وعلى ذلك فإن « زكى مبارك » • لم يعرف فرحة العيد أبدا • فقد كانت ليلة العيد فى بيتهم مشثومة ، اذ ما كان يمر عيد بدون حزن على ميت ، حتى ان كعك العيد لم يخبز فى بيتهم الا مرة أو مرتين • ويقول زكى مبارك ان أعصابه قد تأثرت تأثرا شديدا بهذه المناظر التى واجهته وهو طفل ومضت تلاحقه من عام الى عام •

ويقول زكى مبارك « ان لفحة الحزن التى تتوهج فى أشعارى : انما كانت لأنه ليس لى ارادة فى صياغة الشعر الحزين • فما أعرف أن الله ابتلى أحدا من خلفه بالحزن كما ابتلانى » •

وقد صور زكى مبارك أبرز الحقائق فى شعره : فقال :

• ان أشعارى تكاد تكون مقصورة على فن واحد ، هو فن « الغزل والتشبيب » ولعل هذا يرجع الى طبيعة ذاتية ، قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال • ليس فى أشعارى مديح • فما أعرف رجلا أعظم منى لأنظم فيه قصائد المديح •

♦ الاهتمام بتشريح المعانى : فقد أنظم فى المعنى الواحد عشرات من الأبيات • وهذا يرجع الى فطرتى الفلسفية • التفكير عندى هو جذع النخلة • والوصف هو جريد النخل • والمعنى هو عناقيد الأعناب • والوصف هو أوراق الأعناب •

♦ النزعة الصوفية : هو التشبيب بالجمال الربانى •

أحبك رب الكون هل أنت شافعى الى سرحة فى شط دجلة زهراء
رأيت فنائى فىك حين رأيتهما تحاول اضلالى وتنشيد افنائى
ومن أنت ياربى ؟ أجبنى، فائى رأيتك بين الحسن والزهر والماء

♦ تدوين عواطف عزيزة على • وهى عواطف سجلت فيها وفائى لأصدقائى •

♦ دقة الأسلوب فهو يقوم على موازين •

ويؤكد زكى مبارك أنه يحب من الشعراء القدامى (ابو تمام) ويذكره بالتطويل فى مقدمة ديوانه (الحان الخلود) • وقد قلد « لامتيرين » فى وضع مقدمة لكل قصيدة • وقد نشر شعره فى « الهلال » و « الصباح » و « الشعلة » و « الحوادث » و « الأهرام » و « البلاغ » و « الرسالة » •

وعاش شعر زكى مبارك مع الحياة • ففى كل مكان ، يهز النفس ، كان له فيه نظم • فعندما ذهب الى رأس البر ، وزار جامع « الفتح » حيث مكان شهداء الاسلام مع الصليبيين قال شعرا • وفى ذكرى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ فى الاسكندرية له قصيدة «دار الوجد والمجد» عن الاسكندرية بعد ضربها بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية • كما أوحى اليه الشيب شعرا فى أعوامه الأخيرة • « وشعرى فى الشيب فيه ومضات لاتوجد فى أشعار القدماء • لأن أكثرهم كان يصف قسوة الشيب قبل أن يشيب » •

وقد وضع قصيدة فى توديع مكة المكرمة • ونسبها الى الرسول الصادق الامين • وقد ذكر زكى مبارك فى بعض كتاباته انه نظم ثلاثين ألفا من الأبيات فى التغنى بالجمال •

ويرى زكى مبارك أنه يتجه في حياته الشعرية الى ما يتجه اليه في حياته النثرية ، « وهو تشريح المعاني والعواطف تشريحا يصل بها الى اعظم غاية من الوضوح والجلال » .

ويرى المازنى أن « ميزة (١) مبارك ، التي تبدو لي وهي حسن السبك ، وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طي الديوان . ولم يبق في نفسى منها أثر ولم يستقر في ذاكرتى منها طيف . ولكن الدكتور « مبارك » أديب كبير له أبحاثه وله آثاره المشهورة . وله في ذلك فضل غير منكور ولا يزيد أن يكون شاعرا أو لا يكون » .

وقد رد عليه زكى مبارك بقوله « ان الشعر الذى يستخف به الأستاذ المازنى لدلالته على معان صغيرة هي العواطف ، هذا الشعر هو الدليل على اننا عشنا في هذه الدنيا بقلوب الأحياء . فكانت لنا لحظات عقل وأيام جنون والعيش مزاج من الوقار والطيش . ومجموعة من التأملات والمهاترات » .

فان كان صديقى أصبح عقلا كله ، فيا ويحه في الإقامة بدار ، الحظ فيها للمجانين » .

ولما قال الدكتور محمد صبرى السربونى « ان ديباجة زكى مبارك الشعرية ديباجة بحثرية » قال مبارك : « انها كلمة يريد بها الثناء . ولكنى عند نفسى أشعر من البحتري ، وأشعر من جميع الشعراء » .

ويقول زكى مبارك : « ان الجو الذى يثير الشاعرية في صدرى هو الجو الخاد بالبرد أو القيظ ، أما الجو المعتدل فهو موسم خمود . ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبى برسم العنف والجموح . وقد علقت على هذا مرة بأنه يرجع الى انى ولدت في شهر أغسطس ، وهو موسم طفيان النيل . والواقع أن الهدوء يزعجنى ، والضجيج الخارجى ينبه العواطف » .

وكما ذكرنا من قبل ، انه سكن في بيت في باريس في مكان هادئ

(١) نقد المازنى للديوان سنة ١٩٣٣ - جريدة البلاغ .

فضاق به وتركه • أما في بغداد ، فقد سكن بجوار مصنع لطرق الحديد ،
وارتاح اليه •

أما بالنسبة للشعر ، فيقول زكي مبارك انه نظم في عهد الحداثة
طوائف من المواويل • ومنازل الوحي في الشعر عنده هي سنتريس وأسيوط
وباريس وبغداد •

وقد أصدر زكي مبارك ديوانه (ألحان الخلود) في فترة أزمة
نفسية • اذ كان قد ترك وزارة المعارف ، ووقع في كثير من المشكلات مع
وزراء المعارف وكبار موظفيها • وأحس بأنه لابد أن يطبع شعره • فراح
يجمعه من كل مكان • ويقدم له بمقدمات طويلة • وقد دفع مائة جنيهه
عربونا لطبعه • ويرى أن عمله هذا هو عين الصواب • فان له أبناء • ولكن
أبناءه من روحه أعز عليه من أبنائه من بدنه : « انها اشعاري ومؤلفاتي »
اذن يجب أن أنفق على ابنائي من رحي ما أنفقت على ابنائي
من بدني ••

وكما ذكرنا من قبل أن ديوان «الحن الخلود» يرد له شبابه ، وفد
جاوز الخامسة والخمسين (سنة ١٩٤٧) فهو عصارة عواطف واحاسيس،
قطفتها وأنا أذرع فضاء الله بين شاطئ المانش وشط العرب •

وما كنت أتوهم أنني سأجتاز تلك الأقطار وأنى سأعبر تلك البحار
والأنهار • واني سأكون أخطر من السندباد • •

وكما أوضحنا من قبل ، نجد أن « زكي مبارك » شاعر بطبيعته •
والدقائق البسيطة في حياته تعطي صورة الشاعر الذي يتأثر بالعصافير
الجميلة التي كانت تعيش حول نوافذ منزله • فيقدم لها الطعام ويحرص
على أن يستيقظ مبكرا لسمع صوت المؤذن وشقشقة الطيور : « سأعود
الى العصافير التي بنت أعشاشها في شبابيك البيت • لقد تعودت أن تأكل
من يدي في الصباح ، وأنا أراقب الأعيب الشمس • أنا أحضر لتلك
العصافير فتافيت من بقايا طعامي وأضعها على كتفي فتجتمع على كتفي لتأكل

تلك الفتافيت • وهى تغنى بزقزقة ، هى الغاية من حلاوة الغناء ، • وقد
استوحى من جمال هذه المناظر ما استوحى •

ولقد تأثر بموت أبنائه الصغار الذين كان يكفئهم بيده ويحملهم الى
مشايرهم الأخير •

وكما ذكرنا من قبل ، فالجسر القائم على نهر السين من ضاحيته
سان كلو ، له فى قلبه مكان • والقنطرة القائمة على نهر السين فى روان
لها ايحاء • والجسر القائم على نهر دجلة وقنطرة سدة الهندية لها
آثار كبار فى قلبه •

يا جيرة (السين) فى مرابعكم	فتى الى النيل يشكو غربة الدار
حنت عليه لياليه وأسلمه	الى الحوادث صحب غير أبرار
أحاله الدهر فى لأواء غربته	روحا معنى وجسما نضو أسفار
يسعى الى المجد ترميه مخاطره	بناقع من شظاياها وضرار
عزاؤه أن عقبى كل عادية	يشقى بها الحر ، اكليل من الغار



جنت على الليالى غير ظالمة	انى لأهل لما ألقاه من زمنى
فما رأيت من الأخطار عادية	الا بنيت على أجوازاها سكنى
ولا لمحت من الآمال بارقة	الا تقحمت ما تجتاز من فتن
أحلت دنيائى معنى لا قرار له	فى ذمة المجد ماشردت من وسن



يا جنة الخلد كيف يشقى	فى ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم شياوى	ودمعه دافق صيب
يقتات أشجانه وحييـدا	فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسى	أن يهجع الخفق والوجيب



مبارك الكاتب

بدأ زكى مبارك حياته الأدبية شاعرا • ولكنه لم يلبث أن ترسل وأصبح من كتاب النثر • وظل يزاول النظم بين حين وحين ، كلما دعت دواعيه ، وفرضت الظروف الالتجاء اليه • وزكى مبارك الكاتب قريب جدا من زكى مبارك الشاعر • فهو الوجداني العاطفي ، حتى في مجال البحث الأدبي والعلمي • وقد أخذ عليه ، وهو يقدم أطروحة الدكتوراه « النثر الفنى » أمام السربون غلبة الروح العاطفية • ولكن هذا لا يمنع من القول ان « زكى مبارك » الكاتب يكاد يكون نسجا وحده ، بين كتاب عصره ، حيث يمتاز بمعالم أربعة : الوضوح • والصراحة • والجرأة • والعاطفة • وهى صفات لم تجتمع لكاتب سواه فى هذا العصر على النحو الذى عرف عنه •

فقد بلغ فى الصراحة والجرأة الى حد العنف • وقد كان لهذه الجرأة أثرها البعيد فى حياته • اذ خلقت الجفوة بينه وبين كل من تناولهم بالنقد • وكما ذكرنا من قبل ، فقد ردد زكى مبارك العبارة التاريخية التى تقول : « ان قول الحق لم يدع لى الحرية فى عالم الكتابة والمجتمع » ومحاربته للنفاق : « سأطل فى ثورتى الى أن انتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد • • وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستتحطم عما قريب • وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات • وستهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ : متى أشهد مصرعك ياعصر النفاق ؟ »

وهو يؤمن بأن للأديب مهمة : وهذه المهمة عنده هى حرب الأوهام والأباطيل والأضاليل • ويرى أن الدعوات الوطنية والاجتماعية لم تنجح الا بفضل تحريض الشعراء والكاتب والخطباء •

يقول : « ان الأديب يقضى عمره فى جهاد ونضال وعراك مع الدنيا

والناس ، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، وما شرق مشرق أو غرب
مغرب فى دعوة وطنية أو اجتماعية الا على هدى من وحى الأديب • ولا
استبسل جبان أو استقتل شجاع الا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو
كاتب أو خطيب •

وهو يرى أن أعماله الأدبية تتجه الى الايقاظ من الغفوة والجمود
فيقول :

« ما قال أحد بأنه يبغضنى ويحقد عـلى ، الا اطمأنت الى تبليغ
رسالتى الأدبية ، فأنا أخلق الغرض خلقا لاذكاء نار الغضب والحق فى
القلوب التى طال عهدا بالغفوة والجمود » •

وهو يرى أننا نقضى أعمارنا فى التصنع والمداراة والرياء • ومن أجل
ذلك يقل فى أدبنا ذلك الجوهر النفيس : جوهر الصراحة والصدق •
يقول « من أعجب العجب أن أعجز عن قول الصدق ، حتى فى الاحوال
التي يكون فيها الصدق خيرا محصنا ، لأن الجمهور الذى تعاصره يتأذى
من الصدق الذى يسوءه » •

ويؤمن زكى مبارك بالقلم • ويراه فى يد الكاتب مثل المشرط فى
يد الطبيب • ويقول « اتخذت من القلم مشرطا أعالج به أمراض
القلوب » •

وهو بعد ذلك حريص كل الحرص على تسجيل الرأى كتابة ، فهو
يخشى أحاديث المجالس ، خوفا من التزيد والتحريف • ويؤمن بأن على
الكاتب الا يقول فى السر ما يخشى أن يقوله فى العلانية ، وأن يستطيع أن
يكتب كلمة يقولها فى مجلس من مجالسه •

« أرى أن نخطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات أو عن طريق
المؤلفات ، فلا نعلن رأيا الا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المحرفون،
ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم • فلا تقولوا فى السر ما تعجزون
عن نشره فى العلانية • وما أوصيكم الا بما أوصى به نفسى • ان لسانى
غاية فى التلطف والرفق ، وأن اشتهر قلمي بالشطط والجموح • وما كان

ذلك كذلك الا لأننى أكره المواربة وأبغض الاستخفاء • وما حقد غسلى
حاقد ، الا بما قلت فيه بكلام منشور فى الجرائد والمجلات ، يملك الرد
عليه ، حين يشاء • أما اىذاء الناس فى السر فلا أستطيعه أبدا • لأن الله
تباركت أسماؤه عصمنى من رذيلة الاغتيال (١) •

ولكن لذكى مبارك آراء أخرى أشد عمقا • فهو يرى أن الكاتب
لابد • لكى يكون مؤثرا ، ويكون لأدبه طابع الحياة والخلود • أن يرتطم
بالغواية •

يقول • أن الأديب لا ينبغ الا اذا ارتطم فى الغواية والبؤس • وتلك
سنة الطبيعة منذ خلق الأدب الى اليوم • ويكاد يكون من المستحيل أن يكون
لرجال الأدب روح الا اذا قهرتهم الهموم والأحزان •

أضف الى ذلك انهم لا يؤثرون فى قرائهم الا اذا تأثروا هم بما فى
الحياة من لين وبأساء ، ولا يقع شيء من هذا ، الا ان عاشروا الناس
وشاركوهم فى جدهم وهزلهم وحلمهم وجهلهم وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا
ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين • وهذا كله ، أتخسبه بلائمن ؟
هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية •

ويرى ذكى مبارك أن الكاتب الصادق لا يصل الى الشهرة والمكانة
الا بعد بذل جهد ضخم ودفع ثمن غال ، يقول : « نحن قوم كونتنا صروف
الليالى والأيام ، فان اکتوت يدك كما اکتوت أيدينا فستملك من السيطرة
على القراء أكثر مما تملك • وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا ،
وهو عندنا غادر جحود » •

ويرد على الذين انتقدوا بعض من كتبوا فى شكوى العيش فقال :
« قد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن فى سعة من العيش ، وسيرتقى
الذوق فنذكر أن الخواض لا يشكون جوع البطون وانما يشكون جوع
القلوب » •

(١) الرسالة - ٤ من أغسطس سنة ١٩٤١ •

ويعلم زكى مبارك فى كل مناسبة أنه يحب صحبة الورق والمداد ؛
« ان هيامى بصحبة الورق والمداد سيضيع على جميع المنافع الدنيوية .
وفد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان ، مع أنه ولد قبل أن
يولد أبى » وهو يهاجم الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . يقول
« كان من حقى أن اصوب سنان القلم الى صدور من يأكلون السحت .
صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . وقد تمضى الايام ولا
يزود أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش يرى الدكتور مبارك أنا
من الخطأ أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل . وأن يتوهم أن القراء قد
يذكرون حين يخطئ أن الحسنات يذهبن السيئات . وان الذى يحلق
ألف مرة قد يغتفر له الاسفاف مرة أو مرتين . كما يسجل أنه لا يمر يوم
واحد دون أن يخلو الى قلمه ساعة أو ساعتين .

ويؤمن زكى مبارك بأن النجاح فى الأدب قام على سناد من العصبيات
الممثلة فى الأندية والجمعيات . ويرى أنه يفضل التحزب المستور « لمعت
فى عالم الأدب أسماء كانت أهلا للخمول ، لو واجهت الحياة الادبية
بلا سناد من الأصدقاء والحلفاء » ويندم على أنه ، وقد فاته التحزب فى
السياسة فهو يعيش بلا أنصار ولا أصفاء .

ويعلم أنه سيعقد محالفة بينه وبين قلمه ، ويراه أقوى وانفع من
ألف الأصدقاء .

ويقول : « قضيت دهرى بلا نصير ولا معين . وسأظل كذلك طول
حياتى ، لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع » .

ويعترف زكى مبارك بأنه فى أول أمره بالأدب لم يكن يعرف الفرق
بين التسيويد والتبييض ، ولا يستبجح معاونة الصنعة على مغالبة الطبع .
وأن قلمه يجرى فى القرطاس جرى الجواد فى الميدان . وهو يرى أن
هذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضه لكثير من الجراح ، لأنه لم
يكن يملك صده حين ينطلق ، ولكنه لم يلبث أن روضته الأقدار بعد
الجموح ، وفرضت عليه أن يلتفت ذات اليمين وذات الشمال . فأصبح

إذا كتب شيئاً في المساء يتركه (بلا نظريف) لتسهل مراجعته في الصباح :
« ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه » • ويعمل ذلك بقوله :
من المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات • فقد تنكر في
بياض الصباح بعض ما كتب في سواد الليل • •

ولكنه يرى أن ذلك من المزعج • إذ لاقيمة للحياة الأدبية ، إذا خلت
من المخاطر والمهلك والخوف • فهو يؤمن بأن الكاتب لا يعد فارساً ، إلا
إذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءه الى الاشتباك في
حروب مع المعانى والآراء والأهواء (١) • •

وهو يؤكد في كل خطوة أن الصدق جره الى معاطب ومهالك لا يصير
على مخرجاتها ومؤذياتها إلا من كان في مثل ايمانه • وقد صبر حتى
اتهمه الغافلون بالبلادة والجمود • « لأنهم لم يعرفوا ان دنيا الأدب فيها
مبادئ تروض أهلها على الترحيب بمكاره الظمأ والجوع » •

ويقول « الصدق في الدنيا غريب • وأنا في الدنيا غريب » •

وتبلغ به الجرأة الى أبعد حدما ، حين يقول :

« أنا أومن بأنه لايمكن لأحد أن يكون أكتب مني إلا اذا استطاع أن
يكون (أصدق) مني • • ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحداً أصدق
مني » •

ويؤكد أن غايته في حمل رسالة القلم ليست هي الانتفاع المادى
« ولو كان غايتى هي الانتفاع المادى لسلكت سبيلا غير هذا السبيل
فلأقلام ميادين تصل بأصحابها الى الثراء العريض • • »

وهو يلح في تصوير هذا المعنى ويوغل فيه ، فيقول :

« يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان • فما يكون الرجل
كاتباً إلا اذا شعر بأنه يؤيد بقوة روحانية تعصمه أحلاف الزور والبهتان •

فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا لحملها بأهل لأنهم عبيد تلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون ان القلم وسيلة من وسائل النفع الرخيص • ويرى زكى مبارك أن الخطر فى انحراف الكتاب عن رسالتهم الاتجاه الى تسلية الجماهير فان ذلك يؤدي الى خطر كبير بالنسبة للأدب ، فيصبح على شفا الهاوية يقول :

« ان الأدب فى مصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحدون قراءهم وتلك علامة الغثاثة والهزال • قد يقبل هذا الحال من الكتاب الذين يشغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم ، كما يأخذها الحاوى فى مساحات (الموالد) فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين • كنت أنتظر أن يكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع • فالمجتمع مريض ونحن الأطباء • »

وزكى مبارك يؤمن بأن على الكاتب أن يعدل آراءه ويطورها مع الزمن بحيث لا تجمد ولا تبدل ولا تتعارض مع الحياة فى خطوها الى الامام ويرى أنه ليس فى ذلك عار أو خطأ •

يقول : « يجب أن تنظر الى آرائك كما تنظر الى أثوابك » فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب • والذى يعيش على رأى واحد ، قد يكون أجهل من الذى يعيش بثوب واحد • فاحذر من العيش وأنت بالى الآراء • وقد يعيرك الغافلون بالتنقل من رأى الى رأى ، مع أنهم لا يعيرون من يلبس ثوبا بعد ثوب • وانما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية • ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأى الواحد من شواهد اليقين • ولو عقلوا لأدركوا أن العين التى تنظر بأسلوب واحد هى عين بليدة لاتدرك الفروق بين دقائق المرئيات • وكذلك يكون العقل البليد • وهو الذى لا يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات •

الأمر الهام أن تكون أنت أنت ، فى تحولك وقرارك • فلا ينبغي أن تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك • أو أن تكون ظلا لعظيم من العظماء أو حزب من الأحزاب •

ويذهب زكى مبارك فى أن رسالة القلم البليغ هى رسالة مهولة
« يطيب فى سبيلها الاستشهاد ، ويرحب فى سبيلها بجميع الآلام » • ويقرر
بأن هذا الايمان هو الذى جعل تلاميذه يتقدمون فى الميادين الرسمية •
وتخلف • وهذا هو ثمن الاعتزاز بدولة البيان •

ويرى زكى مبارك كذلك أن الكاتب ليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع
وهو مطلق الحرية فى جميع الشئون • وان التعبير عن آلام المجتمع وآماله
لا يكون أدبا إلا اذا صدر عن الكاتب عن ايمان صادق •
وعنده أن منهاج الذاتية الأدبية يتطلب أن يحرر الكاتب عقله وروحه
وقلبه من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل • فينظر الى جميع الأشياء
والمعانى نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ، ولو
كانوا من أعظم الرجال •

ويرى أن على الكاتب البليغ أن يوطن نفسه على الغربة الأبدية • ولو
كان فى داره وبين أهله - فالفكرون فى جميع العصور غرباء - وبذلك
لا يكون له ظهير غير قلمه ولا نصير غير روحه •

أسلوبه ومنهجه فى البحث

يعكس أسلوب « زكى مبارك » شخصيته وعاطفته الملتهبة الحادة ،
ونفسيته الصريحة التى تأبى المداراة أو اصطناع النفاق • ومن خصائصه
الاستطراد والقفز من فكرة الى فكرة ، والاسهاب المتنوع الذى يخدم الفكرة
وميله الى النمو الموروث من التأليف ، وغلبة النزعة الوجدانية والطلاقة ،
ووضوح العبارة مع أصالة المفردات •

وقد تنوع انتاجه ، فكتب فى النقد والبحث والمقالة وأحاديث الوجدان
والعاطفة • وهو يقول فى هذا « أنا أعيش كما يعيش أميل فاجيه • فأنا
أكتب فى كل يوم وفى كل ليلة ، وتحت يدي عشرات من المقالات وعشرات
من القصائد » •

وقد ترك لذلك انتاجا ضخما لم يجمع فى مؤلفات • فقد أمضى
سنوات طويلة يكتب الفصول الضافية فى « البلاغ » و « الرسالة » •

عرف أسلوب مبارك بالبساطة في التعبير ، والبلاغة في الأداء ،
والفكاهة الحلوة • ولم يخل هذا الانتاج الضخم من هنات وسخافات ،
ربما كان مرجعها انه يكتب في كل أسبوع ، في موعد محدود ، مفروض
بحكم صدور الصحيفة ، وربما كان مرة منحرف المزاج أو مكدودا •

وزكى مبارك بطبيعته صحفي مجادل قوى الشكيمة جرىء في الحق ،
أو فيما يعتقد حقا • يغلب عليه اللون الوجداني ، مع الرصانة والطلاوة •
وأسلوبه حي ينبض بالحياة ، وإن كان يدور حول النفس •

يقول : « أنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنني وصلت باللغة العربية الى
ما كانت تطمح اليه من « البيان » •

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنني خلقت عذوبة الأسلوب في اللغة
العربية وقد صار البيان عندي طبيعة أصيلة لا يعثرها تكلف ولا افتعال •
وما أذكر أنني عرفت التسويد والتبييض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من
المقالات ، بعد زمن التعرّين الذي سبق سنة ١٩١٦ •

وما أعرف بالضبط ما خصائص أسلوبى : لأننى أصدر فيه عن السجية
والطبع ، ولكنى أعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه
يرى الحياة وجها لوجه • ويشهد صراع الأحلام والأوهام والآراء والأهواء
والحقائق والأباطيل •

وزكى مبارك يصدق فى جانب كبير مما أورده فى هذه العبارات •
ويركز زكى مبارك مهمته فى البحث على العقل واقامة البرهان قبل
تلمس النزوات والتوفيق بين المعقول والمنقول • يقول :

« وأنا أمثل المدرسة التى تحكم العقل فى كل شئ • وتفرض على
الباحث ان ينقد أولا المصادر التى يعتمد عليها وتروضه على ادراك الفروق
بين الأذواق والأحاسيس فى مختلف العصور الادبية •

وفى يقينى أننى سأحول النقد الأدبى فى مصر تحولا جديا ، وسأعلم
القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين ، قبل أن يغرموا بتلمس

النزوات الصغيرة ، التي يلقي بها الكتاب هنا وهناك ، وهم يتجادلون ويتجادون • وأنا أمثل المدرسة التي توفق بين المعقول والمنقول ، وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع ، وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام • •

وفي عرض التراجم الذاتية يرى زكى مبارك أن هناك طريقين لذلك •

فإن كان الغرض هو حث الشباب على الافادة من أدب يترجم له كان من الأنسب أن نجسم المحاسن ونتغاضى عن العيوب • وإذا كان الغرض درس الطبيعة الانسانية وبيان استعدادها لاصول القوة والضعف ، كان من الأوفق ان نعرض لسير المشهورين ، بتفاصيل ما مر بهم من امارات التحليق والاسفاف •

كما يرى أن تمثل من تترجم لهم كأنهم أحياء • فنفرض أنهم يملكون حق العتب والملام : « فإن كان المترجم له رجلا عرف في حياته بقسوة المراس والاستهانة بالقييل والقال ، صح لنا أن نكتب عنه ، في طلاقة وحرية • • وان كان رجلا عرف في حياته بالتحرز من المعارك الأدبية ، وجب أن نكتب عنه في لطف ورفق ، كأنه حي يؤذيه الهجوم • •

وهو يعلن أنه لاصحة لما شاع عنه افكا وبهتاننا بالولع بالغض من أقدار الناس • ويقول : « أقسم أنني لا أهجم على رجل الا بعد أن أدرس مقاتله دراسة جدية لاتحاماها عند النضال ، فليس من المروءة ولا من الشرف أن يسخر القلم وهو نعمة من الله علينا فيما لا يليق بالأدب الصحيح (١) •

وقد اتهم زكى مبارك ببداوة الطبع في السجال والمناقشة • وقد دافع عن نفسه • فقال « ان بداوة الطبع التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم يكن من المثالب الا في كلام الشعوبية • وهم قوم أرادوا الغض من الشمايل العربية • ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد • فكيف ينكر على رجل مثلي ، ظل بدوى الطبع ، في زمن توارث فيه الصراحة ، وكثر فيه تنميق الأحاديث !؟ • •

(١) البلاغ - ٢٦ من اكتوبر سنة ١٩٣٤

وقد حاول زكى مبارك أن يبرر في أكثر من موضع بعده عن ميدان
القصة : يقول « .. اننى لم أكتب في حياتى غير قصتين : قصة قصيرة ،
وهى فى صدر كتاب « الأسمار والأحاديث » . وقصة طويلة ، هى قصة
« ليلي المريضة فى العراق » والقصتان مأخوذتان من الواقع لا من الخيال .
ومن رأى أنه لا يجوز للكاتب أن يعيق فطرته ، فيكتب فيما لا يحسن
من الفنون . وأنا مفطور على النقد الأدبى . وقد تفوقت فيه . فمن الواجب
أن أقصر جهودى كلها عليه .

ومن الصعب أن أناقش الأستاذ توفيق الحكيم فى القصص ، ومن
الصعب على الأستاذ الحكيم أن يناقسنى فى النقد الأدبى . فلكل رجل
منا ميدان .. »

وقد سجل زكى مبارك رأيه فى القصة عام ١٩٣٧ . فقال : القصة
فى مصر مطية من لا يعرف . وعوام الناشئين يؤكدون أنها فن جديد .
وهم يزعمون أن القصة قد توجب التحلل من القواعد النحوية والانشائية
ولا يصلح لها غير المقتل من الأساليب . وأكثر ما نراه من الأفاضل
العصرية ليس إلا انتهابا من القصص الصغيرة التى تباع فى (محطات)
أوربا ليتلها بها المسافرون . ان الكاتب الأوروبى لا ينشئ قصة الا بعد أن
يدرس آراء المفكرين فى القديم والحديث ، وبعد أن ينظر فى مشكلات
عصره نظرة الباحث المتعمق ، فيعرف ما يحيط به من المضلات الذوقية
والاجتماعية والاقتصادية ، فيكون لقصته مغزى مأخوذا من أزمات النفوس
والقلوب (١) . . .

ويسجل زكى مبارك فى أكثر من مناسبة ، أنه مولع بدرس سرائر
النفس الانسانية . وهذا المعنى هو الذى حمله على الصراحة فيما يسجل
وينفد من الأفكار والمعانى . ويخشى أن يكون ضحية للدراسات
الفلسفية . ولا يغريه الا شئ واحد ، هو الشعور بأنه أنقذ الأدب العربى
من كابوس الرياء والنفاق ..

٢٠ - ولعل أبلغ ما أخذ عن الدكتور زكي مبارك في منهجه في البحث
« الحديث عن النفس » . فقد كان موضع النقد . حتى قال عنه المازني :
« لو أخل زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما
هو الآن » . وقال طه حسين : « ان أكثر أدب زكي مبارك في الحديث
عن زكي مبارك » .

وقد دافع زكي مبارك عن نفسه في كلمة وجهها الى المازني :
فقال (١) .

« ماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ . هل كان أدبك يا صديقي
المازني الا دورانا حول نفسك ؟ . . . وهل كتب العقاد مقالا أقوى من مقاله
عن الأزمة التي صاوت روحه يوم احتلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه
أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟

... ان تصوير هموم النفوس وما يحيط بها من مخاوف وآمال ، هـو
أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شبائل الأنبياء .

... وهل يمكن أن اتعرف الى الوجود قبل أن أتعرف الى نفسي ؟

وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم الا أحاديث نفسية ؟ ألم
تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية ؟ وهل كانت أكثر القصائد
الخيالية الا أفصاحا عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : « أنا افكر . فأنا اذن موجود » .

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور
بالوجود .

ثم أشار زكي مبارك الى الثناء على النفس ، ذلك الذي يقع فيه من حين
الى حين . فقال : « هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه
النزعة النفسية ؟ ، لو أنك فعلت ، لعرفت أنني لا أتكبر الامتخديا . والتحدى
نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجمود والعقوق » .

(١) الرسالة : ٢٦ من اكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وجملة القولى : ان أسلوب زكى مبارك هو مزاج من الأسلوب العربى القديم ، والأسلوب الغربى الحديث : فقد حفظ زكى مبارك القرآن فى مطلع حياته • وحفظ خمسة آلاف بيت من الشعر • وقرأ أهمّات الكتب العربية ، ثم اتصل بأدب الغرب ، فقرأ فى الأدب الفرنسى أساليب جديدة ، ومعانى متجددة ، كانت بعيدة الأثر فى أسلوبه وتفكيره واتجاهاته •

ولعل حرية فكره واندفاعه تغرى الى الاتجاه الفرنسى فى التفكير • كما أن اصرار مبارك على الجدل ، وإيغاله ، يعزى الى ثقافته الأزهرية • أما دعوته الى الحرية ، ومقاومة التدليس ، وتحطيم تقاليد التفكير القديم ، فإن لهذا صلة بالفكر الغربى ، الى حد ما • وله صلات بما قام فى نفس زكى مبارك من كراهية للأزهريين الذين ناووه اصدار كتابه « الأخلاق عند الغزالى » •

ولا شك أن « زكى مبارك » قد أخذ الطريق الذى سار فيه طه حسين ، وأغرم مثله بالرأى الغريب والمثير • وكما حاول طه حسين أن يكسب الشهرة فى صدر شبابه ، بأراء مثيرة ، عن المنفلوطى ، والمعري ، وحديث الأربعماء ، والشعر الجاهلى ، فقد اندفع مبارك الى مهاجمة الغزالى فى آرائه ، واتهامه بالجمود • ولكن زكى مبارك يمتاز فى هذا الاتجاه بأنه لم يلبث أن عاد الى الحق ، واعتذر للغزالى ، وصحح آراءه فيه ، فى كتاب « التصوف الإسلامى » ولكن زكى مبارك عاش حياته كلها ، راغباً فى الاثارة ، مندفعاً نحو القول الجديد الجريء ، الذى يهز ، ويدوى ، ويحدث الضجيج •

وجدانيات مبارك

هذا بحر لا ساحل له في أدب مبارك • ولو شئنا أن نضيف كل أدب زكى مبارك الى الأدب الوجداني ، لما كان ذلك غريبا • فقد عاش مبارك بعاطفته • حتى أبحاثه العملية اتسمت بالعاطفة • ولما كان زكى مبارك شاعرا بطبيعته فان العاطفة تصبغ كل فنون ادبه • ولقد اتجه الى الوجدانيات في سنواته الأخيرة • وكاد أن يقف أدبه على فن الكتابة الذاتية والوجدانيات •

• رجميع مراحل حياته تين عمق هذا الاتجاه • فهو في مستهل حياته الفكرية ، اتجه الى دراسة شاعر ، عرف بعق اتجاهاته الوجدانية ، هو عمر بن أبي ربيعة • فقد ألقى محاضراته الاولى في الجامعة المصرية عن (حب ابن ابي ربيعة وشعره) ثم لم يلبث أن شغل نفسه بدراسة شعر الحب في الأدب العربي القديم في حلقات أطلق عليها « مدامع العشاق » •

وكانت دراساته للنثر الفني والتصوف الاسلامي متصلة أشد الاتصال بالأدب الوجداني • وقد سجل مبارك في مقدمة كتابه عن النثر الفني ، أن الأساتذة في جامعة باريس عابوا على كتابه ، « غلبة النزعة الوجدانية » • وقد اعتذر عنه مسيو ماسنيون يوم أداء الامتحان في السربون ، فذكر أنه شاعر • والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان •

ولكن زكى مبارك اتجه فيما بعد الى خلق مذهب في الكتابة الوجدانية قوامه الأدب الصريح • وقد برز هذا الاتجاه واضحا بعد سفره الى بغداد وكتابته فصول كتابه الضخم « ليلي المريضة في العراق » بأجزائه الثلاثة ، وهي عبارة عن يوميات وجدانية بدأ في تدوينها في أغسطس سنة ١٩٣٧ ، وانتهى منها في مارس سنة ١٩٣٩ • وبذلك يكون قد شغل نفسه بهذا الحديث سبعة عشر شهرا ويزيد •

وقد أراد أن يكتب قصة رحلته الى العراق « في أسلوب وجداني » فجعل أساس الفكرة بيتا من الشعر هو :

يقولون ليلي في العراق مريضة . فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وقد رمز مبارك للعراق بليلى . وجعل نفسه « الطبيب المداويا » ،
وأراد أن يصور قصة هذا الجزء من الوطن العربي . وقد أصابته
المتاعب والأوصاب ، نتيجة لظروف الاستعمار التي منى بها . .

ثم استطرد الكاتب ، فأخذ يكتب يوميات لرحلته وزياراته لمدينة
العراق . ويستطرد ، فيتحدث عن مقابلاته وقراءاته وأفكاره .

وفي خلال هذه الرحلة الطويلة كشف زكى مبارك عن نفسه ،
وحياته وأفكاره ومشاعره ، بصورة جريئة . وقد استهل مبارك كتابه
بكلمات وجهها الى الدكتور محمد حسين هيكل . أشار فيها الى كلمة
جاءت في كتابه (ثورة الأدب) قال فيها « ان هناك آفاقا من المعاني يتحاماها
كتاب العصر الحديث » وقال انه سيشق هذا الطريق « ويكفر » عن سيئات
أولئك الكتاب ، فيتحمل المشاق في ارتياد تلك المجاهيل . قال : « وقد
اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء . وأنا أعرف أنى أعرض سمعتى
للأقاويل والأراجيف . لأن الناس عندما لا يفهمون كيف يدخل الطبيب
على نفسه ، ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول . اقتحمت
تلك المهالك ، وليس لى الا سناد واحد ، هو الشعور بأنى أؤدى خدمة
للأدب والطب . وهل يخدم الأدب والطب أفضل من التغلغل فى تشريح
النزعات والأهواء ؟ »

وقد أجيب في أكثر من مناسبة أن يصور هذا المذهب ، ويكشف عن
جوانبه يقول :

« عز على ، أن يقال ان شعراء أوربا قد تفردوا بإجادة القول فى
الوجدانيات ، فألفت كتاب (مدام العشاق) ، ليكون شاهدا على سبق
العبقريّة العربية الى شرح مآسى الأرواح والقلوب . وسأعنى أن يقال
ان « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب . فألفت كتاب « ليلي المريضة
فى العراق » لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوقون أظفر
التفوق على راسين »

كما أشار الى أنه سلك في هذه اليوميات (ليلي المريضة) مسلك
الرمز والایماء ، ومسلك الغمز والتجريح . ورأى أن الأدب يوجب أن
يرى الأديب جميع الأشياء ، وأن يعرف جميع الناس . « فأنا أشرب المر
من عصير الحياة . لائحة الى شراب سائح للشاربين » .

وهو في سبيل هذه الغاية التي آمن بها ، تسلك الى كل بيثة ، وتغلغل
في كل مجتمع . لماذا ؟ . « لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذي يرى
نفسه سيد المخلوقات ، وهي دعوى أعرض من الصحراء » . وهو يؤمن
بأن الأديب أحوج الرجال الى اختلاج العواطف والافكار والاحاسيس ،
ولا يتم ذلك الا اذا استطاع معاشره الناس من جميع الاجناس .
والأدب عنده كالفن : « يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى
لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ورعاية
المتخرجين من دعاة الاخلاق » .

ولا شك أن « زكى مبارك » في اتجاهه هذا يبدو جريئاً غاية الجراءة
ولقد سبق أن هوجم من أجل هذا الاتجاه ، حينما أصدر كتابه « مدام
العشاق » ذلك الذي قال عنه طه حسين في نقده الذي نشرته جريدة
السياسة ، وضمته مجموعته « حديث الأربعماء » في الجزء الثالث : « ان كتاب
مدام العشاق يحرض على الشهوات » . ومعنى هذا أن « زكى مبارك » من
أنصار الادب المكشوف .

انه يقول في مقدمة كتابه « حب ابن ابي ربيعة وشعره » ، ما نصه
« الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر
ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ، ورعاية المتخرجين
من دعاة الاخلاق » . والأدب المستور انما يفشى بالحجب المحلية التي لا ندري
أبقى سائفة مقبولة أم يعدو عليها البدع المستطرف ، فيلقى بها في مهاوي
الخمول » .

ولكن زكى مبارك عاد الى تناول هذا الموضوع في كتابه « ليلي
المريضة » فقال : « ما أردت به الا الصدق في تصوير العواطف والأهواء ،

ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة الى الفجور والمجون • لأنني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية ، ولأنني رجل متأهل ولى أبناء •• قد يكون في القراء من يخفى عليه أنني ادعو الى مبادئ خلقية سامية أغشيتها بالفتون ، كما يصنع الطبيب في تغشية « البرشامة » المرة بغشاء من الحلواء •• ،

ويرجع مبارك اتجاهه الى دراسة النفس الانسانية الى غرامه بالأدب الفرنسي منذ سنة ١٩١٥ : « فراعني أن أراه يتحدث عن أزمت القلوب والنفوس والعقول ، بأساليب لا أجد لها نظائر في الأدب العربي • فقررت أن أرجع الى نفسي لأفتش عما فيها من أسرار وغرائب واعاجيب لعل أن أمد الأدب العربي بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب • ومضيت فدرست طوائف من الغرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الانسانية في العصر الحديث • وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على من رأس ويطول • ثم هالني أن أرى الناس ينظرون الى ، نظرات الريبة والاحتراس •• ،

وقد رأى مبارك أن الأدب العربي أصبح على شفا الهاوية ، بفضل شيوع التدليس في تصوير العواطف والغرائز والطباع • من أجل هذا كله ، عمد زكي مبارك الى كتابة هذا اللون من الوجدانيات • ولقد صور زكي مبارك « الحب » في كتاباته • وكان رأيه جريشا كنظراته الى الوجدانيات •

« ان حديثي عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء • وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان •

• نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود • وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب • وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية ؟ ••

الحب لا يغزو الا قلوب الأصحاء • وهو يساور قلوب الجنود • في

أصعب أوقات الحروب • والجندى الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح
أبداً للاستشهاد فى سبيل الوطن الغالى ، لأن الوطن لا يغلو الا فى صدور
أرباب القلوب • الحب جده جد • وهزله جد • ولا يتجاهل هذه
العاطفة الا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ فى تكوين الوجود •
وبأى حق يخلو أدبنا من تشريع عاطفة الحب •

ان التوقر الذى يصطبغه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من
البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء
لا يعترفون بغير أوتار القلوب •

واين نحن من العصر الذى عاش فيه عمر بن أبى ربيعة • والعصر
الذى عاش فيه العباس بن الأحنف • أو العصر الذى عاش فيه الشريف
الرضى ؟ • •

كان أسلافنا أصحاب • فكانت عصورهم تجمع بين أشرف صنوف
الهداية وأعنف ضروب الضلال • وكان الرجل الذى لا يتورع عن رواية
أظرف قصائد الغزل والتشبيب •

فى مساجدهم رويت طرائف الأشعار ، ونوفشت مذاهب الزينج ،
بلا تحامل ولا اسراف وفى بيوت أبقائهم ذوت أوهام القلوب والعقول •
فأنا أتحدث عن الحب بصفة جدية ، وأتعقب أخباره وآثاره فى كل
ما أرى وأسمع •

ان سكتنا عن تشريع عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعى
النيابة عن الجمهور فى تشريع النوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشغل الناس
بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم • نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد
أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية ، نحن نفكر فى خلق
عصية أدبية • ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو
الترجمان الصادق لشهوات العقول وللعقول شهوات أعنف وأخطر من
شهوات الإحساس ، وثقيف الشهوات العقلية يصل بنا الى منازل الحكماء
ويطمعنا فى الخلود • (١) •

(١) مجلة الرسالة : مقال « تشريع عاطفة الحب » ١٩ من فبراير
سنة ١٩٤٠

وقد شغل زكى مبارك الناس بالحديث عن « ليلي » • فمن هي ليلي؟ ولماذا شغل بها؟ اعتقد أن « زكى مبارك » عندما درس الصوفية وأوغل فيها أعجبه تصوير الصوفية للحب الالهي ورمزهم اليه بـ « ليلي » لذلك فكر • هو في أن يحول هنا الرمز ناحية أخرى ، على النحو الذي هداه اليه تفكيره في البحث عن سرائر النفس الانسانية • غير انه حين يتحدث عن السر في كتابته عن « ليلي » يقول انه انما فكر في اغناء الأدب العربي بألوان من الصور الشعرية ، التي تصور عذاب الأرواح والقلوب • وأنه لم يكن سييء القصد فيما صنع • وانما أحب أن يقيم في عالم الأدب العربي دولة للقلوب والأحاسيس • يقول : « كنت أحب أن يشعر شباننا بأن لغتهم مازالت غنية ، وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب » •

ولكنه يحس بأن هذا العمل الخطير الذي أقدم عليه لم يكن جزاءه كما ينبغي : « كنت كالطبيب الذي يحمل المشرط ليداوى جرحاه • فينقل اليه المشرط جراثيم الهلاك » •

ولكن زكى مبارك يؤكد أنه حرر يومياته عن ليلي المريضة من جميع القيود والاعلال • وقال انه ليس له من الجمال الا مأرب واحد :

« هو درس الطبائع والغرائز والميول لأخرج من ذلك بمحصل فلسفي ، قد ينفع بعض النفع في اذكاء الدراسات الادبية والفلسفية » •

ومن بين آثار زكى مبارك الوجدانية ، ما أطلق عليه « رسائل مجنون سعاد » تلك التي نشرها في مجلة الصباح عام ١٩٣٩ بقلم « الدكتور بديع الزمان » وهي مجموعة رسائل غرامية تحدث مبارك عن ظروف كتابتها • فقال :

« هناك كتاب لم يسبق له مثل ولا نظير ، وهو « رسائل مجنون سعاد » تلك التي أنشأها الدكتور بديع الزمان • أما ذلك الدكتور - وأنا ذلك المجنون - وأنا ذلك البديع ، فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب الصباح ، لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال •

بدأت تلك الرسائل في بغداد • ولم تكن الموحية ليلي البغدادية •
واما كانت ليلي قاهرية • رمت سهمها فأصمتني ، وأنا في بغداد • لقد
اعتصرت فؤادي وأودعته تلك الرسائل •

ومما يتصل بهذا ما بدأ ينشره من رسائل قديمة ، موغل بعضها
في القدم ، فقد كتب في يونية سنة ١٩٤٢ في الرسالة مقالاً عنوانه (الخطاب
الذي احترق بسعير الأنفاس) •• يقول فيه :

« هو خطاب تلقينته من فلانة في سنة ١٩١٩ • فما صبر القلب على
غرام مشبوب ، يدوم ثلاثة وعشرين عاماً • وهي كآلف سنة مما تعدون ،
كان الدهر قد سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق
ثم استيقظ الدهر ، فعرفت مالم أكن أعرف • عرفت أنني لن ألقاها بعد
ذلك ، ولو انتظرت الى أن تشيب ناصية الزمان •

فمن ييغنى مثقالاً من الصبر الجميل عساني أتناسي أحزاني،
وأشجاني ؟ » •

وعندي أن اتجاه زكي مبارك هذا الى الوجدانيات ، واسرافه فيها ،
يتصل بأزمته الأخيرة التي سنفصلها فيما بعد ، فقد أحس بأنه قد بلغ
الغاية • قدم لثلاث اجازات من الدكتوراه ، ومع ذلك فإنه لم يجد مكانه ،
ولم يلق قدره ، لا في وزارة المعارف ، ولا الجامعة ، ولا ميدان الأدب
والصحافة • هنالك حاول أن يحدث ضجيجاً قويا وصريراً مزعجاً • فكان
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدر أزمته الأخيرة •

ومما يتصل بهذا رأي زكي مبارك في المرأة • فقد كان من الغريب
أن الذي تحدث عن الحب طويلاً ، وجرد نفسه للوجدانيات ، قد كون
رأياً في المرأة • ولكنه رأى جائر ، فقد حمل على المرأة حملة شعواء
••• ولولا أن هذه الآراء كتبها عام ١٩٣٨ ، وهو في بغداد ، وهو في
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدرها أزمته الأخيرة •

وقد أثارت هذه الآراء في ألبانها ثورة ضخمة •• وان كان قد أخذ
بوجهة نظره كثيرون •

وهي تعطي صورة التناقض بين شخصيته ، حتى ان الناقد ليدبش .
كيف أن زكى مبارك الذي صور الحب العنيف الغامر لـ « ليلي » في كتابه
هذا ، يذكر المرأة على هذا النحو .

وعندى أن « زكى مبارك » قد كتبها تحت ضغط ظروف غدر أو
هجر . وهذه جملة آرائه :

♦ قضيت أكثر من عشرين سنة في الدراسات الفلسفية . فالمرأة
الريقة القلب لا تؤنسني الا قليلا . لأن عقلي أكبر من قلبي . وأنا أشتهي
المرأة اللثيمة التي يكون غرامى بهما فرصة لدراسة القلوب والنفوس .
والعقول .

♦ انتهيت من التجارب الى أن المرأة للرجل عدو مبین . المرأة مخلوق
جميل . ولكنه سخي . لأنها تجهل ما فطرت عليه من الضعف . وهي
لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال . والرجل الكريم يراعى
عواطف المرأة بفضل ما فطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء .
ولكنها تجهل ذلك وتظن انه لا يوادعها الا بفضل ما تملك من السحر
والجاذبية . وفي المرأة سحر وجاذبية ، وان كانت شوهاء ، لأنها باب الى
الضلال .

♦ المرأة تملك أصول الشهوات ، وهي باب الدمار والخذلان .
وما أطاع رجل امرأته ، الا ذل وهان . وأعظم ميزة لنبي الاسلام هي دعوته
الى الحذر من النساء .

♦ ليس لي ما أشكوه من المرأة غير غلوها في الفيرة ، فهي تخاف
من جميع الهواجس وجميع الظنون . والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض
على الرجل أن يتحول من شأن الى شئون ، ليصل الى فهم المجتمع الذي
يرأوحه ويغاديه في سبيل الرزق أو في سبيل المجد .

♦ المرأة هي الجحيم الذي تتمرن به على الإقامة في سفر ، وهي
البلاء الذي يصبه الله على رهوس العباد . هي الشقاء المعجل ، والكرب
الذي يسبق الموت . والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد . وهي التي

تفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه . ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها
ابليس .

♦ ومع أن الرجل يعز المرأة بغناه ، فهي تستريب من ظفره بالغنى
والعافية ، لأنها ترى في ذلك بابا لتطلعه الى سبواها من النساء وما في الأرض
عدو الا وهو خليق بأن يتعامى عن بعض عيوبك الا المرأة . فهي وحدها
العدو الذي لا يغفر ولا يصفح .

زادها الله ذلة الى ذلة وضعفا الى ضعف .

♦ المرأة تؤثر في حياة العظماء بلا جدال . لأنها توفق فيهم بخريزة
المخاتلة والتفان والرياء . وهي فضائل يعدها الغافلون من العيوب . بفضل
المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ . بفضل المرأة راضتنا المقادير
على الصبر الجميل .

آراء زكى مبارك

دفاع عن اللغة العربية والقومية العربية وحرية الصحافة
العربية

لزكى مبارك جوانب متعددة فى العمل الأدبى ، الذى تخصص فيه .
كان أبرز هذه الجوانب دراسته للأدب العربى • ثم دراسته للتصوف .
الاسلامى • وله آراؤه فى النقد والشعر والقرآن والمرأة •

ولكن هذا الجانب من زكى مبارك هو أعمق جوانبه أو يمثل أصدق
آرائه ، ويرسم حقيقة اتجاهه وجوهر فكره •

فقد كان زكى مبارك صادق الايمان بالقومية العربية غيوراً على اللغة .
العربية وبالرغم من انه سافر الى أوروبا وتأثر كثيراً بالثقافة الفرنسية والآراء .
الغربية فى أسلوب البحث وطريقة التفكير • الا أنه ظل من هذه الناحية
صادق الايمان بالعربية والعرب ، لم ينحرف ولم يتردد فى رد كل من
يحاول أن ينال من أمجاد الفكر العربى أو اللغة العربية • وقد كان ذلك
غريباً فى نظر كثير من الناس الذين كانوا يظنون أن « مبارك » قد يحمل
الأمانة للفكر العربى ، كما حملها من قبل عدد من الكتاب الذين تأثروا
بالفكر الفرنسى ، وجعلوا أمانتهم له أكبر من أمانتهم لأمتهم العربية •
وأوغلوا فى الدعوة الى العامية أو الفرعونية أو ثقافة البحر المتوسط •

وقد سجل ذلك فى مقدمة ديوانه « ألحان الخلود : » فقال « حين
رجعت الى القاهرة (مارس - ١٩٣١) أخذت أنشر فى جريدة البلاغ
مقالات عن ذخائر الأدب العربى • ولكن الدكتور ابراهيم ناجى ضاق
صدره بتلك المقالات • فقد كان ينتظر أن أكتب مقالات عن الأدب الفرنسى »

لهذا كتب مقالات (بتوقيع) مستعار فى احدى الجرائد الاسبوعية
تقوم على الغمز والتجريح • واستمر غمزه وتجريحه سنتين • وفى أحد

الأيام طلبت موعدا للتلافي • فاختار محل جروبي ، تفضل فيه فقدم
كأسا من الشاي • وتفضلت أنا فقدمت نسخة من ترجمة كتاب الشر
الفنى • •

ولا شك أن هذا المثل غنى عن أى بيان • فقد كان الظن أن الشباب
المثقف الذى تلقى دروسه فى الغرب لن يكون متحمسا لنصرة العربية
على هذا النحو الذى برز به فى صدر جريدة البلاغ ، تحت عنوانه الشهير
« الحديث ذو شجون » فى الوقت الذى كان الاستعمار قد ركز الدعوة
الى العامية والفرعونية والوطنية الصنيعة • فقد دخل فى معارك ومسابقات
ومصارعات ضخمة فى شأن اللغة العربية •

وكان زكى مبارك نسيجا وحده فى هذا المجال - بين من عادوا من
أوروبا فقد كان المرحوم محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وسلامة موسى
وغيرهم ، يحملون لواء الدعوة ، مخدوعين أو غير مخدوعين • أما هو
فلم ينخدع • ولكنه أصر « منذ عرف اتجاهات أوروبا » على ايمانه الخالص
باللغة العربية والقومية العربية • وظل وفيا لهما صادق الوفاء ينافح عنهما فى كل
سبيل • ولم يحصل لذلك على أى « نشان » أو لقب من الألقاب التى كانت
تغدق على من يسميهم الغرب سفراء الفكر فى العالم العربى •

ولقد أمضى زكى مبارك أكثر من خمسة عشر عاما يدافع عن تدريس
العلوم فى الجامعة باللغة العربية • ولاقى فى سبيل ذلك كل معارضة
من دعاة التغريب ولكنه كان مصرا على دعوته ، يدعمها بالدليل والبرهان
يقول : « أن اللغة الانجليزية لم تسد فى كليات الطب والهندسة
والعلوم ، لسبب مقبول • أنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات
العلمية • وهذا وهم • أو هو عجز نستر بهذا الوهم المصنوع •
فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية والفرنسية ، وانما
من ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتينية • وفى مقدورنا أن نأخذها
كما أخذوها ، بعد أن نصقلها صقل الترجمة والتعريب ، فتضاف الى اللغة
القومية : اللغة العربية الفصحى لا العامية • »

.. وقد تحقق أمله عام ١٩٣٩ كتب في ٨ من يناير سنة ١٩٤٠ بمجلة الرشيالة مقالا قال فيه : « من مغاير البسنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة إدرس في كلية الطب وعلوم العلوم » وهي دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت . فمن قال انه دعا الى هذه الفكرة مرة او مرتين أو مرات فأنا جعلتها حلما أهتف به في يفتلى ومنسأمي ، أتر من خمس عشرة سنة ، وبسبب الإلحاح في نشر هذه الدعوة رأني بعض أقطاب الجامعة المصرية من التقلأ . وأوصدوا في وجهي كل الأبواب . »

وقد عارض زكي مبارك دعوة ويلكوتس الى العامية وقد أوجدت هذه الدعوة دويا عاليا . فقال : « بلغ الجهل ببعض كتاب العصر أن يصدق ما أشار اليه ولكوتس من أن اللغة العامية لغة مصرية أصيلة يتكلمها المصريون منذ عهد الهكسوس ، على أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن لغة مصر القومية هي اللغة العربية الفصحى ، لأنها لغة للدرس والتأليف . ولغة المحاكم والدواوين ، منذ أجيال طويلة . وقد رأينا بمنز الكتاب المشهورين يبدئون ويعيدون في هذه المسألة لانهم رأوها موضوع عناية أخذ المستشرقين . وكل ما يهتم به المستشرقون يجب أن يهتم به الشرقيون في فهم بعض الناس . »

كما وجه الأنظار أكثر من مرة الى حماية الشباب من الدعوات التخريبية . فقال : « ان شباب اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدسائس التي يصوبها المستعمرون والمبشرون الى صدر اللغة العربية . وان واجب الأساتذة في كلية الآداب حماية أولئك الشباب من تلك السموم الفواتك

كما عارض الرأي القائل بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية وبأن المصريين ليسوا من العرب .

ورد على الذين قالوا بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية ، فقال : « ان مصر ، لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين ، هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة ، لتحل محلها اللغة العربية . وهو حظ لم تظفر بمثله أمة عربية أخرى . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية . والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية

ولغات أخرى يعرفها أهل تلك البلاد . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفات . والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة ، بعضها قديم ، وبعضها حديث . والرجل العربي قد يحتاج في تلك البلاد الى ترجمان .

وقد عصفت عاصور الظلمات بلغة القرآن في كثير من الأقطار العربية . فاضطرت بغداد ، وكانت عزوس العروبة الى أن تتعلم اللغة الفارسية بضعة قرون ، ثم قهرها الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زمنا غير قليل . والشام في مختلف أقطاره تعرض كارها لأمثال تلك الخطوب . ومع هذا لطف الله بمصر ، فظلت موئل اللغة العربية . وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين .

وما يزال الناس يذكرون كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول . ان اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الانجليزية في انجلترا ، ومن اللغة الألمانية في المانيا لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعيش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا .

وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن ، وبقيت مفهومة ، على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية ؟ ان مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع . ان اللغات المصرية القديمة لن تعود أبدا ، ولو أنفقنا في سبيلها غاليات الأنفس والأموال . .

وفي الدفاع عن مصر قال : « سأقول وأقول ان مصر هي باعثة الأدب العربي بعد ان طال عهده بالهجوم ، نحن خلفاء العرب . والمصحف لا يطبع الا في بلادنا . وسنرفع راية العروبة في جميع الميادين »

وقد شغل زكي مبارك نفسه بتفصيل القوة في عظمة اللغة العربية وعلاج قصورها ووسائل بعثها وأحيائها ودفعها الى الامام .

♦ ان اللغات من صنع الناس • وان كانت فى بعض صورها من
موارث التاريخ • فما كان يجب على العرب فى العصور الخوالى أن يبتكروا
أدوات التعبير عن شئون لم يشهدوها ولم يعرفوها • وانما يجب علينا
أن نعبر عما شهدنا وعرفنا ، كما عبروا عما شهدوا وعرفوا لنستطيع القول
اننا أهل للانشاء والابداع • وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين •

♦ لغات العلم والمدنية فى هذا العصر كانت فقيرة •• ثم أغناها
أهلؤها بالنحت والاشتقاق والاقباس • فمتى نصنع كما صنع الأحياء من
أبناء الزمان • نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان
العلم والمدنية فى الشرق ، فنزاحم بها ألسنة الاجانب ، ونستبقى أعمار
أبنائنا ، فلا يضيع فى رطانات لا يتتفع بها منهم غير آحاد •

♦ اننا نريد (لغة) من لغات المدنية ، لغة يفهمها الفلاح والملاح
والنجار والبناء • نريد لغة سخيحة تسعد أبناءها جميعا بلا حساب • نريد
لغة تجمع بين التواضع والجبروت • يرى فيها العوام ما يشاءون من
البساطة والجمال • ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق •
نريد لغة مبدولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء • يأخذ منها كل انسان
ما يناسب عينيه ورثتيه •

♦ لقد خلقت اللغة العربية للحياة ، ولم تخلق للموت • بدليل أنها
لم تنهزم بانهزام الامبراطورية الاسلامية • وهى امبراطورية لم تسيطر
على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين • فلو كانت اللغة العربية
لم تعيش الا بحراسة الامبراطورية ، لوجب أن تزول • ولكنها لم تزول
ولن تزول •

لغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس • فمتى تدرس تلك
الخصائص ، ومتى تعرف بالبراميين القواطع ، كيف استطاعت الانتصار
على الموت ؟ مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت (١)

♦ ان اللغة العربية لها ماضٍ مجيد في الحياة العلمية والطبية • ومن السهل رجعها الى مجدها القديم • ونحن لا تعجزنا الاصول • وانما تعجزنا الهمم العاتية التي تخلق الممالك والشعوب •

♦ أريد أن أعرف ما الذي يقهرنا على هذه التبعية للانجليز والفرنسيين ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ فاذا كانوا يرون ذلك من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟ ••

ان حفظ اللغة هو الأساس في حفظ الاستقلال • ان اللغة هي أهم مظاهر الاستقلال فعضوا عليها بالنواجذ ، ان كنتم تعقلون (١) •

وقد هاجم زكي مبارك دعاة « الأدب المصري » ودعاة اللغة العامية ، ووصفهم بالافلاس ، يقول « ان بعض الأدباء في مصر يختلفون في تسمية الأدب الحديث • وبغيتهم أن يسموه الأدب المصري لا العربي • ثم يدورون حول فكرة الأدب المصري • وينتهي أكثرهم الى الاتفاق على انه ليس عندنا أدب مصري • لأن أكثر موضوعات الادب الحديث ليست مصرية • وقد يختلفون في الصفة اللغوية فيرى فريق منهم أن اللغة الفصحى ليست لغة المصريين ، لأنها وردت إلينا من بلاد العرب • فان سألت ما عسى أن تكون اللغة المصرية اضطربوا اضطرابا شديدا ، لأن اللغة العامية محرفة عن الفصحى •

وقد سجل زكي مبارك كيف حاولت بريطانيا جعل تعليمنا يعمل لاجراج موظفين فلم تفلح ، وكيف حاولت فرض الثقافة البريطانية فلم تفلح • وكيف عمدت الى محاولة انشاء الكتاتيب وتوقيف مشروع الجامعة فلم تفلح • وكيف حاولت جعل الجامعة مباءة للالحاد فلم تفلح • وكيف حاولت محاربة اللغة العربية فلم تفلح (٢)

(١) من كتاب اللغة والدين والتقاليد - لزكي مبارك •

(٢) جريدة البلاغ - حياة مصر الادبية في عهد الاحتلال (مقال) يوليو ١٩٣٢ •

ويقول ان المحتلين عجزوا عن قتل حرية الرأي كما حاولها احياء
الحصيات والمخلافات الدينية • وكيف كان اسم عرابي واسم عمر مكرم ،
وقد ظلا طويلا منكودين •

وفي كل مناسبة يدعو زكي مبارك الى أنه قد حان الوقت الذي تحرر
فيه بلادنا من السيطرة الأوربية في العلوم والآداب والفنون • يقول :
« ما أدعو الى غض أبصارنا عما في أوربا من آثار العقول • فهذا كلام
لا يقوله رجل متخرج في السربون • وانما يجب أن نروض أبناءنا على
الشعور بأن لهم أدبا وعلما وفنا • يجب أن نروض أبناءنا على الشعور
بأن لنا عقولا وأذواقا وأحاسيس •

يجب أن يفهم أبناءنا أننا صالحو ن لبناء مجدنا الادبي والعلمي
بأيدينا •

يجب أن يكون مفهوما أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية نحو
ثلاثة قرون • يجب أن يكون مفهوما أن اتخاذ اللغات الاجنبية لغات
تدرس في المعاهد والكليات هو اعتراف خطير بأن لغتنا فقيرة وأنها فقراء •
وكان فهم زكي مبارك للقومية العربية عميقا صريحا مقرونا بعاطفة
الصدق والايمان • وقد عمق هذا الفهم جولاته في العالم العربي ،
واتصاله بالبيئات الوطنية الصادقة الايمان بالوحدة العربية •

وأعتقد أن حادثين هامين في حياة زكي مبارك كانا مصدر هذا
الاتجاه ، وسيلا لاستمراره عنده ، طوال حياته الفكرية • أما الحادث
الأول فهو زيارته لمراكش عام ١٩٣٢ بعد انتهاء اقامته في باريس واتصاله
بالمفكرين والوطنيين العرب ، في هذا الجزء النابض بالحياة ، من الوطن
العربي ، والذي كان واقعا - اذ ذاك - تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي •
وفي مراكش يتمثل التاريخ العربي في أروع صوره : هذه المنطقة التي
ترتبط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، والتي كانت معبرا لغزوات
متعددة في أرض أوربا • وفيها جبل طارق ، وصورة جيش الغزو العربي
بين المدوتين في طريقه الى الاندلس • ثم غزوات متعددة في عهد

الموحدين. والملثمين وملوك الطوائف . هنالك حيث تبدو الروح العربية من وراء غلاف الإحتلال الفرنسي قوية بحية ، هناك تكشف لركى مبارك عظمة الأمة العربية وقوة تراثها الحى .

. وقد أتى مبارك من بعد أن يذهب الى بغداد عام ١٩٣٨ ، ليعمل مدرّسها فى مدارسها العليا ، وقد أمضى هناك عامًا كاملاً حيث تعمق شعوره بالقومية العربية وازداد قوة وحياة . وفى بغداد صورة عهد الرشيد ومرسم الحياة العربية فى انطلاقتها ، حيث كانت الترجمة والتأليف ومدارس العلم والحضارة ، وحيث ظهر علماء أعلام ما تزال آثارهم قوية باهرة . ومن شأن هذه الصفحة الضخمة من تاريخ الأمة العربية أن تكسب روح الكاتب العربى قوة ايمان ، وتضاعف أمانته للفكر العربى ، وللمبحث العربى الجديد .

ولذلك فقد كان زكى مبارك من أوائل كتابنا الذين عاشوا بين خلال هذه الفترة التى كان الاستعمار حفيًا بأن يفصل فيها الغرب فى آسيا عن العرب فى افريقية ، وبذلك جمع بين عظمة الأمة العربية فى أقصى طرقها (بغداد ومراكش) ، وبين المدينتين اللتين تحملان أعظم مظاهر الحضارة فى الأمة العربية . وقد كان له فى خلال ذلك جولات فى دمشق والقدس وبغروت أتاحت له أن يرى ويسمع ويتحدث عن روح الوحدة الكبرى .

ولعله أول كاتب أشار الى « أن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تنهض قواعده بغير الإخاء الصريح . وهو أول من نبه الى خطر المؤامرات الغربية فى سبيل تحطيم هذه الأخوة . حيث يقول : « من أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الإخاء أو قتله فى المهدي » .

وقد كانت هذه الرحلات فى العالم العربى عاملاً فعالاً فى تعميق الايمان بالقومية العربية لكل الذين نطافوا به من المثقفين والكتاب ، أمثال المرحوم الدكتور محمود عزمى ، والمرحوم : ابراهيم المازنى . والزيات والمرحوم : عبد الوهاب عزام . وقد دعا مبارك الى عمل مدروس لتحقيق القومية العربية فقال :

« ان الأمر الهام أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف الى الشرق » .
خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين ، وتفرض على المصرى أن يشعر
بالاخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية ، فاذا تجاوزنا ذلك الى
العطف عن كل ما صدر عن القومية العربية عدنا الاسلام صوت العرب
فى الشرق والغرب ، وأدركنا ان الاسلام ميراث عربى يشبطننا فيه
نصارى لبنان والعراق :

« لأن محمدا ، صلى الله عليه وسلم هو أول عربى رفع اسم العرب
فى العالمين » .

وقد صور مبارك ضرورة الوحدة • فقال « انما أريد أن أصارحكم بأن
مصر مثلا أضيق من أن تسع المصريين • فلا بد لنا من اخوان وأصدقاء
تبادلهم المنافع الأدبية والاقتصادية ، ونبنى على أساس مودتهم صروحا من
القوة والثروة ، واننى لأذكر أن شعر حافظ ابراهيم له حفاظ ورواة فى
بلاد المغرب ، كما كان لجريير والفرزدق حفاظ ورواة فى الادب القديم
وان ديوان حافظ لينشد كله فى سهرة واحدة فى قهوة الجامع فى باريس
ينشره الحاج طاهر الصباغ قصيدة قصيدة • ولا سيما القصائد الوطنية
البديعة التى قيلت فى دنلوب المستشار الانجليزى للمعارف فى عهد ظلام
الاحتلال • والتى قيلت فى حادث « دنشواى » •

ويقول : « هذه الأمم العربية لا خلاص لها الا باتحادها • واتحاد
المشاعر والاذواف والمواطف له أثر عظيم فى اعداد هذه الشعوب لمستقبلها
المأمول •

وليس لنا أن نئس ، فان الزمن لن يظل على مواتاته للأمم الاوربية
الطاغية التى يعز عليها أن تترك شملنا بلا تبديد وجمعنا بلا تفريق » •

كما يدعو الى احياء ذكريات العرب ، ويرى أن كل احياء لذكريات
العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية • وهم
يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى • وهو يخاطب المصريين
بقوله : على المصرى أن يفهم أن فى دمه روحا عربية تسوقه الى الانتقال

من أرض الى أرض فى سبيل المنافع العلمية والادبية • وأن رجولته
لا تكمل الا اذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء
فى مختلف البلاد •

وقد أشار فى بعض أحاديثه الى ما وجه الى المرحوم : الشيخ
مصطفى عبد الرازق عندما قال : ان مصر تقف من الوحدة موقف المشاهدة
لا موقف الفاعلية فهجم المصريون عليه وخطئوه بعبارات قوية •
ويقول « ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا أناس يخدمون
المستعمرين ويخدمون المبشرين • وأن مصر هى التى استطاعت أن تعرض
على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية • وهى التى استطاعت أن
تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية • وهى التى
استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الاسلامية بلا استثناء »
ويقول : أنا عربى • • • والمصريون عرب فى أقوالهم ، وأفعالهم ،
وسجاياهم ، ودينهم ، ومذاهبهم • وأدعو الله أن يجعل مصر أبدا الدهر من
أملاك اللغة العربية لغة القرآن •

ويقول : « أنا أدعو أبناء العرب فى المشرق والمغرب الى حب جميع
البلاد العربية حبا يصيرها فى عيونهم وقلوبهم ملاعب حبيبة • أدعوهم
الى التآخى الصادق المتين • أدعوهم الى التصوف فى الأخوة بحيث يصبح
كل رجل وهو مشغول عن حياة أخيه فى المحضر والمغيب • »
وقد عارض زكى مبارك الدعوة (التغريبية) التى كانت تقول بحضارة
البحر المتوسط ، وعظمة العقل اليونانى • وقد مزاعمها فى أكثر من موضع
ومناسبة من مؤلفاته وكتابات •

وقد صور مقدمة كتابه (الأسماء والأحاديث) كفاحه هذا فقال :
« وقفت لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد ، فمزقت أوهام الخوارج على
العروبة والاسلام شر ممزق • ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتناولوا
على (ماضى) الأمة العربية • وعاديت من أجل الحق رجلا يضررون
وينفعون ويقدمون ويؤخرون • فكان اعتصامى بحبل الحق أقوى ما تذرعت
به لاتقاء مكاييد الناس ومكاره الزمان • »

« ويزى زكى مبارك أن « أهل الغرب لثام » تطفينهم القدرة ، وتعنيهم
النعمة . ولن تكون هذه المبتدعات في أيديهم الا وسائل فناء واهلاك وتخريب
وتدمير » .

وهو يؤمن بأن أهل الغرب لا يوفون اذا عاهدوا ، ولا يصدقون
اذا وعدوا ولا يبرون اذا أقسموا . انهم لمغرمون بنقض العهود ، وتمزيق
المواثيق . ولست في حاجة الى تذكير قرائي بالسبعين وعدا التي ظفرنا به
من السياسة الانجليز » .

وهو يرى أن كل من يمت الى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة
انما هو انسان خادع مكر خيث . لا عهد له ولا أمان » .

ويؤمن زكى مبارك بأنه لابد لمن يريد أن يعايش أهل هذا الزمان
أن يكون في مثل لؤمهم وبغيهم وأن يكون له مالهم من قوة البحر والهواء »
وقد هاجم زكى مبارك « كليرجيه » أحد كتاب فرنسا هجوما عنيفا
كشف به الستار عن المؤامرات التي يدبرها دعاة التغريب ، الذين يعملون
لحساب الاستعمار تحت اسم « العلم الحر » وقال :

« ان هذا الرجل يتعرض للاسلام والأخلاق الاسلامية . مع أنه
لم يدرس اللغة العربية في حين أن واجب العالم يقضى عليه « لحذر والتثبت
قبل القطع في المسائل الخلقية » . وقد جرت العادة عند بعض الأوربيين أن
يقفوا في نقد الأخلاق عند ما يشهدونه في الحانات والقهوات والمراقص ،
ويندر أن يفكروا في درس الاخلاق الاسلامية التي يعيش عليها الناس
في الأفليم . ولو اتجهت أفكارهم الى هذه الناحية لرأوا فيها الأعاجيب .
فان المصريين في الأرياف يتماسكون أقوى التماسك من الوجهة الخلقية .
وفي الريف بيوت عدة يعيش أهلها في الفاقة والمترية . وهم مع ذلك نماذج
في صيانة الشرف والعرض . وهؤلاء الفلاحون الفقراء هم الدلائل على
نبل الاخلاق ولولا ما يعتصمون به من الخلق والدين لكانوا مبعث فتنة
وشر . فمن يبلغ مسيو « كليرجيه » أنه كان قصير النظر ، حتى اكتفى
في درس أخلاق المصريين ، بالوقوف عند بعض المناظر التي يشاهدها

أحيانا من يعيش فى القاهرة • ومن يبلغه ان انحراف بعض القاهريين ليس
الا نتيجة لاتصالهم ببعض الفارغين من أخلاط الجاليات الأجنبية •

ان الذين يذيعون الفاحشة عن الشرق وأهله لا يعرفون أن أهلهم
يعيشون فى بيوت من زجاج • وينسون أن قوتهم فى الدنيا مستمدة من
أصول ينكرها الخلق النبيل •

ان هؤلاء الذين يتلمسون لنا الهفوات لا يعرفون اننا كنا أكرم منهم
حين عشنا فى بلادهم • ان مصر لا يعيش فيها من الأجانب الا من يعجز
عن الحياة فى وطنه • فترحب بهم البلاد الكريمة وتؤويهم ليكون جزاؤها
أن تطول السنتهم وأقلامهم بالزور والبهتان •

ويسجل زكى مبارك موقفه الواضح الصريح من الآراء الغربية :

« ليس من العار أن يتأثر الانسان بفكرة أجنبية ، ولكن العار أن
يدعو لآراء أجنبية لم يتأثر بها ، ظنا منه أن فى ذلك طرافة وابتكار • ومن
أجل هذا تضع جهود كثير من المجددين ، لأنهم فى طرائفهم أذعاء »

ويذكر زكى مبارك أن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهموا
أن مصر تخلت عن العروبة • ويريدون أن يزهدوا العرب فى الثقافة
المصرية • ويعلق زكى مبارك على كراهيته للانجليز فى أكثر من موضع
فهو يذكر بالتقدير جان دارك ، بعد أن زار قبرها ومن فوقه النار موقدة
لا تخبو ويقول معلقا : « أنا أحب جميع من حاربوا الانجليز »

ويقول انه كان يأسى كلما تذكر تقصيره فى تعلم الانجليز • لم
سرت به ظروف ساعد فيها بهذا الجهل - لأنه على قبحه - كان عنوانا على
الشخصية الاستقلالية وفى باريس كانوا يقولون له عندما يعلن جهله باللغة
الانجليزية : كيف يصح ذلك ومصر فى قبضة الانجليز • فكان يجيب : انكم
واهمون : وان مصر ليست فى قبضة الانجليز • وانما هى ملك لأبنائها
الصناديد • •

ويرد على الغرب ، فيقول : لقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية •

فلنخذه بما عندنا من مدنية • عنده نور الكهريا • وعندنا نور العدل •
عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق • عنده الاستعمار • وعندنا الاستبسال •
ويقول متحديا : « ما كان العرب من السوائم المهملات حتى يفكروا في
رعايتكم يا أهل الفرنسيين أو الالمان أو الطليان » •

في الأدب العربي الحديث

شغل زكي مبارك نفسه بالأدب العربي ، فكان من أقوى كتابنا تعمقا
فيه • وكتابه « النثر الفني » يمثل مدى المجهود الضخم الذي بذله مبارك
في مراجعة آثار الأدب العربي ، ومعالجه ونقده لهذه الآثار ، والموازنة فيها
ولم يتوقف زكي مبارك بعد كتابه هذا عن الدراسات المتصلة للأدب العربي
بل استمر فيها • وإذا اعتبرنا أن دراساته عن التصوف الاسلامي مستقلة
تماما عن هذا الفن ، فإن دراساته عن الموازنة بين الشعراء وكتابه عن عمر
بن أبي ربيعة والشريف الرضي ، ومقالاته المتعددة التي لم تجمع في كتب
قد تناولت الكثير من التعليقات والتحقيقات المختلفة للأدب العربي • فضلا
عن مراجعاته لكتاب « زهر الآداب » للحصري القيرواني • والكامل
للمبرد • ويرى زكي مبارك أن كتابه « النثر الفني » أول كتاب كشف
النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية • • وأنه قهر به المستشرقين
ومن لف لفهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور
النثر الجاهلي : انه دليل على أن العرب كان لهم نثر فني قبل عصر النبوة
بأجيال • • ويرى أنه أول من أرجع بكتابه هذا الصور الفنية في نثر كتاب
الصناعة والزخرف الى أصول عربية صحيحة •

وكان الباحثون يحسبون أنها أثر من اتصال العرب بالفرس واليونان
وان ما دونه من أطوار السجع والنسيب في النثر الفني أقل ما يقال فيه
أنه باب من البحث جديد • وقد سجل زكي مبارك في مقدمة كتابه أنه
شغل نفسه بأعداده سبع سنين • « فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب
مؤلفه بشماع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاهما
المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي • وان رأوه أصغر ،

من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكر أنى ألفته فى أعوام سود ،
لا قيت فيها من عنف الايام ما يقصم الظهر ويقصف العمر . فقد كنت
أشطر العام شطرين : اقضى شطره الأول فى القاهرة حيث أودى عملى وأجنى
رزقى . وأقضى شطره الآخر فى باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء
وأستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد . ثم أصررت على أن أنقطع
الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ،

وكما قلنا من قبل لم ينس زكى مبارك طبيعته فى النضال ، حتى
مع كبار الاساتذة المتحنيين فى باريس ، فقد بدأ بعد وصوله
الى باريس مباشرة بمهاجمة آراء ماسيو مرسيه (رأس المستشرقين
الفرنسيين) لذلك العهد ، والذي كانت له آراء مدونة عن نشأة
النشر الفنى عند العرب . وقد نصحه مستشرق آخر هو (ماسنيون)
وأفهمه أن « مرسيه » رجل صعب المراس وأن منزلته فى المعهد العلمى
عظيمة وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال . ولكن كتب الله الا ينتصح
فبدأ رسالته التى قدمها الى السربون بفصلين فى نقض آراء كبير المستشرقين
وقد رفض مرسيه ابقاء هذين الفصلين بحجة أنها لون من الاسطراد
لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث . ولكن زكى مبارك أصر على ابقاء
الفصلين بحجة انهما العماد الذى تنهض عليه نظريته فى نشأة النشر الفنى .

وكما قلنا من قبل ، يقول زكى مبارك عن أثر ذلك « وكأنما
عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره . فمضى يعاديني عداا خفيا كانت
له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط
النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقد قابلت خصومته ببلد
أقى وأعنف . ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه
فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه » .

وهكذا تكشف لنا هذه الحادثة جانبا من شخصية زكى مبارك وتفرد
فى مجال علمائنا الذين سافروا الى أوروبا وغير أوروبا ليحصلوا على اجازات

علمية • فما سمعنا أن واحداً منهم خاصم أساتذته على هذا النحو ، وأصر على آرائه ورفض آراء المتحنيين •

وقد كشف زكى مبارك في كتابه « الشر الفنى » عن أشياء كثيرة. وعارض فيه آراء المستشرقين • ومن ذلك أن أساتذة الادب العربى فى الشرق والغرب كانوا يعتقدون أن رسالة الغفران هى « أول مسلاة فى اللغة العربية » •

ويظنون ان ابن شهيد حاكاه حين ألف « التوابع والزوابع » • فأثبت مبارك أن رسالة ابن شهيد ألقت قبل رسالة المعرى • وان المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد •

ولكن « زكى مبارك » بالغ بعد ذلك فى تقدير كتابه هذا • فقال عنه « ستبىد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب « الشر الفنى » فقد بادت المدرسة النظامية • وبقيت مؤلفات الغزالى • لأن الفكر صورة من صور والله حى لا يموت » •

وكما ذكرنا من قبل ، يقول : « ما ذكرت كتاب « الشر الفنى » الا شعرت بنيران تتأجج فى عروقى » • ويعد كتاب « عبقرية الشريف الرضى » من أجود آثار زكى مبارك فى الأدب العربى • وهو يقف به فى صف العقاد بابن الرومى ، وطه حسين بالمعرى •

وقد أشار زكى مبارك الى أنه أعجب بالشريف منذ عهد طويل منذ عام ١٩٣٢ • فلما ذهب الى بغداد (١٩٣٨) ابتداً به على غير موعد • فقد رأى نفسه فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أنه قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر ، الذى تعصب له منذ أعوام طوال • ويقول ان التشابه بينه وبين الشريف عظيم للغاية : « ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق • فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى • وكافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمنه • وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلى قومى وزمانى » •

وقد أشار الى أن الأدباء فى مصر كانوا يختلفون حول البحترى.

والمتنبى . • وكان وحده يقدم الشريف الرضى على هؤلاء الشعراء . • ويؤكد الرضى كان احق بمجهوده . • وانه نبه « طه حسين » بالاهتمام بدراسة زكى مبارك أنه قال للعقاد يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى ان الشريف شعر الشريف . • وأنه فكر فى انصاف الشريف الرضى يوم رأى « أنيس المقدسى » فى كتابه عن أمراء الشعر فى العصر العباسى يهتم بأبى العتاهية ، وينسى الشريف : « مع أن ديوان أبى العتاهية ، لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف » . • وعنده أن الشريف الرضى شاعر ثائر يوالى تحطيم قيود الذل والاستعباد . • ونواحى الرجولة قد اكتملت فيه كل الاكتمال . • فهو رجل له صبوات وآمال . • وهو عاشق وفارس ومؤمن وزعيم . • ويجمع بين المداراة والحلاوة والعنف والرفق . • وعنده أن الشريف فى بابيه أشعر من المتنبى . • وأن الشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء . • لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الاجيال ويقول : « سيذكر أدباء بغداد أننى أحببت شاعرا هو من ثروة العروبة وثروة العراق »

وقد صور منهجه فى دراسة الشريف ، فقال : انه لم يقف منه موقف الأستاذ من التلميذ - كما يفعل المتحذلقون - وانما وقف منه موقف الصديق من الصديق . • وعنده أن من الوفاء للبحث ان يساير الشاعر الذى يعرض عقله وروحه . • وما أبعد الفرق بين رأى زكى مبارك فى الشريف ، ورأيه فى المعرى ، فهو يرى المعرى قد زهد فى أكل لحوم الطير والحيوان . • ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم : لحم الانسان (فما ترك فئة ولا جماعة الا انتهش لحمها بأنياب حداد) . • ويقول : لو استبحت لحم المعرى كما استباح لحوم الناس ، لقلت ان ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الاثيم . • فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونونه بالمروق فى حق الدين فشاء له هواء أن يسجل مخازيهم وما آثمهم ، ويفضحهم فى العالمين وقد أشار زكى مبارك الى جهوده فى ميدان الأدب العربى . • فقال :

« رأيت اللغة العربية تشوف الى من يحدد مقاصد النقد الأدبى . • فألفت كتاب « الموازنة بين الشعراء » . • وقد طبع مرتين . • ورأيت لغة العرب تنتظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب « زهر الآداب » . •

ونشرت « الرسالة العذراء » مصحوبة بدراسات وتحقيقات • وراغنى أن
يجهل الناس بعض مصادر التشريع الاسلامى • فنشرت رسالة فى تحقيق
نسب كتاب الأم • •

وآراء مبارك فى الأدب العربى تتلخص فى ايمانه بالأدب العربى •
وأنه يكفى لتكوين الاديب (١) • ويرى أن الدراسات الادبية فى الصحف
السياسية لم تكن لوجه الله • ولكن للاستثمار بالقراء • كما يعتقد أن الأدباء
المتخرجين فى الجامعة غير الأدباء المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم •
ومما يرويه أنه فى الصراع على لقب أمير الشعب وعلان طه حسين اهداءه
إلى العقاد • ثار محمد الهراوى • ومحمد الاسمر • وأهديا اللقب الى
(البرنس) • وهو نساخ فى دار الكتب • له منظومات فى التهانى بالأفراح
والليالى الملاح • ومما ذكره أن « شوقى » أعطاه ثلاثين جنيهًا ليستعين
بها على طبع كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ولولا هذه المنحة لعجز
عن اخراج الكتاب - والمازنى فى رأيه أكبر كتاب اللغة العربية فى العصر
الحديث : وله فى نفسه أعظم مكان • وقد أورد أن « معروف الرصافى »
قال له ان أسلوب المازنى أشبه بشراب التوت •

وقد سجل نقاد زكى مبارك انه من أول الداعين الى تكوين شخصية
للأدب العربى الذى يبدو ضعيفا ضئيلا بجانب الدوى الهائل الذى تدفعنا
به الآداب الغربية فى كل يوم •

ولقد سجل زكى مبارك رأيه فى الأدب الذى يكتبه كتاب عصره
حين قال :

« لا عبرة بهذه الثروة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح • فهى
على وفرنها تكرير وترديد لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان • وليس لها
شخصية ولا ذاتية تحدث القراء عن حياة أولئك الكتاب »

(١) اشترك فى مناقشة فى الجامعة كان فيها مع خليل مطران على
الرأى بأن الادب العربى يكفى لتكوين الاديب •

زكى مبارك والتصوف

كتب (زكى مبارك) عن التصوف مرتين : المرة الأولى عام ١٩٢٤ عندما أصدر رسالته « الأخلاق عند الغزالي » والمرة الثانية عندما أصدر رسالته (التصوف الاسلامى) ١٩٣٧ - أى بعد ثلاثة عشر عاما . وفى المرة الثانية تغير رأى زكى مبارك عما كان من قبل - ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه . فقد هاجم مبارك الامام الغزالي فى رسالته الأولى . ولكنه عاد فاعتذر اليه فى رسالته الثانية ، كما نوهنا عن ذلك من قبل . ولكن لزكى مبارك قصة مع الصوفية تسبق ذلك بأمد طويل ، وترجع الى عام ١٩١٢ ، وعندما كان طالبا فى الأزهر . ولعل هذه الصلة التى بدأها فى ذلك الوقت هى مصدر حملته على التصوف ، عندما جاء الوقت الذى يختار فيه الغزالي ، ليجعله موضوع بحثه الذى تقدم به للحصول على اجازة الدكتوراه . وقد ذكرنا من قبل أنه قال : « فى ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبة الصوفية وألح بى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الازهر الشريف كان يومئذ من كبار الصوفية . فأخذت عنه العهد . وبدأت أقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية . وكان فى صوتى من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقدمين فى الانشاد وفى ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق . فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء . وكان لى فى ستريس وغير ستريس مريدون وأتباع . وأذكر أننى كنت أحسبني يومئذ من الموفقين . »

وفى ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع . فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وتأملت فرأيت السبب تافهًا كل التفاهة ، فقد غاظه أن أتكلم فى حضرته . . وقد وضعت رجلا على رجل وهى جلسة تدل فيما يعنى على تعاظم وكبرياء . وحاسبت نفسى . فرأيت أنى لم أفعل ذلك عن عمد . ثم خطر بالبال أن الصوفية ايمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من المهملين لما آخذونى على هفوة شكلية لم يكن لى

فى وقوعها قصد ، ولم تسبقها نية سوء وانتهى الحديث بالقطيعة ومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ما عانيت وحاولت أن أصلح ما بينى وبين الشيخ ، ولكنى لم أفلح فى جذب نفسى إليه ، فقد اقتنعت بأن بعض الصوفية أرباب ظواهر ، وإن ادعوا أنهم أرباب قلوب • وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية فى ١٩٢٤ وهو كتاب تجنيت فيه على التصوف (لم أر كتابا حتى الآن رجع عن رأى خطأ قديم غير زكى مبارك) • وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستى لما أقمت عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت ترينى أنى تحاملت على الغزالي وتعجلت الحكم على آرائه فى سياسة النفس : فقد كان يدعو الى النفرة من الناس ، وكنت أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية ، ثم تكشفت بعض الحقائق ، فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس •

وكذلك عدت أستروح بذكرى التصوف وأضمر له الشوق والحنين ،

ولكن هل مر هجوم زكى مبارك على الغزالي بدون ضجة وبدون أن يثير معارك ؟ أبدا : لقد فتح كتابه الباب أمام الأزهرين ليهاجموه ويتهموا فى دينه • وكما ذكرنا من قبل ، إن المرحوم : محمد جاد المولى أحد المتحنيين له فى رسالة الأخلاق عند الغزالي • قال : « لما أطلعت على رسالته رأيت فيها ما صدق ظنى فيه : رأيت يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد فى حسابه لأعجم عوده وأسبر غوره • فلما أخذت فى محاسبته على ما صنع فى نقد الغزالي ، تكشفت جوانب أثارت الشيخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء ، وكان الجهمور يموج من الغيظ ، ولولا حكمة رئيس اللجنة يومئذ ، وهو الدكتور منصور فهمى ، لاضطرب النظام ، وانفرط عقد الامتحان

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد • ولكنى تبينت مع الأسف أن هجومي على الدكتور مبارك كانت له عواقب ، فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهم

الشيخ يوسف الديجوى ، والشيخ أحمد مكى وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكى مبارك قد قضى حياته فى المصاولة والمجادلة ، لما استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب * ولكن أحمد جاد المولى الذى امتحن (زكى مبارك) سنة ١٩٢٤ فى رسالة الدكتوراه « الاخلاق عند الغزالى » هو الذى امتحنه سنة ١٩٣٧ - وبعد ١٣ عاما ، فى رسالة الدكتوراه (التصوف الاسلامى) فهل تغير زكى مبارك بعد هذه السنين ؟ نعم :

يقول « رأيت طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه. فى سنة ١٩٣٧ : كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلتطف - ولا أقول بلا تأدب أما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب. والذوق * وكان مثالا من أمثلة التواضع والاستحياء * يسمع السؤال بهدوء ويحجب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس * فماذا صنعت الثلاثة. عشر عاما بالدكتور زكى مبارك ؟ لقد تغير تغيرا تاما * وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع * وكذلك يصنع العلم بأبنائه الاوفياء * فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء ».

ويرى جاد المولى « أن زكى مبارك » نموذج فريد من العلماء « فهو حينما يصاول فى الدقائق الفقهية كما صنع حين حقق نسب كتاب « الأم » فنضيفه الى الفقهاء * وحينما يجادل فى العضلات النحوية فنضيفه الى النحويين * وينظر الى كتاب « الشر الفنى » فتحسبه رجلا يحسن غير النقد (الأدبى) * وتقرأ رسائله الغرامية فيخيل اليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاعتناق ، يهوى الغيد الرعابيب * وتنظر الى رسالة اللغة والدين والتقاليد فتعده من كبار المصلحين * وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين * وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين * ونسمع أخباره فى الاندية والمجالس. وأحاديث رحلاته وانتقاله من العمامة الى الطربوش ثم الى القبعة والسدارة فتعتقد أنه من المولعين بدراسة أخلاق الأمم والشعوب » .

أشار زكى مبارك الى أن كتابه (الأخلاق عن الغزالى) كانت له آثار.

بعيدة المدى فقد رفض جماعة من علماء العراق مصافحته بحجة أنه أذى
للغزالي •

وأشار زكي مبارك في بحث له عنه نشرته الرسالة (٣ من نوفمبر
١٩٤١) بأنه ألفه في أوقات كان فيها تآثر القلب والعقل على فهم القدماء
للأخلاق (وهي ثورة لم أنج من شرها الى اليوم • • وقد أسايرها
وتسايرني الى آخر أيامي • وكيف يهدأ من يروعه أن يرى رجال الدين
يعرفون خريطة الحياة في الآخرة ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية •
إن كتاب الاخلاق عند الغزالي لم يكن الا دعوة ضريضة الى التشكيك
في أصول الاخلاق الموروثة عند القدماء • • •

ويرى زكي مبارك في كتابه أن الفضائل سلبية وإيجابية • ويقرر
« ان الغزالي وجه اهتمامه الى الفضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل
الإيجابية مثل الشجاعة والاقدام والمرض وما الى ذلك ، فانه لا يكفي أن
يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة
وجير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف • فإن
الضعف شر كله • »

وقال « ان أسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيب • • وقال : -
ان الغزالي أسره على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، غير أنه
عمد الى كسر باب الأسر ليلقى الغزالي لقاء النير للند (ان كان للغزالي
أنداد) • »

وقد اهتم برسالة الأخلاق عند الغزالي الدكتور «سنوك» هو جزتيه،
حيث كتب عنها باللغة الهولندية بحثاً نوه فيه عن المؤلف • وجع مبارك عن
آرائه في الغزالي وأعلن اعتذاره في كتاب التصوف الاسلامي في مقال
كتبه في الرسالة (٢٩ مع يوليو ١٩٤٠) عما سلف من نقد له قال تحت
عنوان : « اليك أعذر أيها الغزالي • »

« في سنة ١٩٢٢ : كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب (الأخلاق
عند الغزالي) وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت بها تار الثورة

المصرية وأكثرت يدي بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية • فآثر ذلك فى عقلى وتفكيرى الى أبعد الحدود • وحملنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحزوب الصليبية فى ذلك الحين •

ثم مرت أعوام راضنى فيها الدهر بعد الجنوح • فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وأنه كان من الحكماء •

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟

وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة ساس يسوس ؟
دلونى على رجل واحد غمس يده فى السياسة ثم سلم من الأقويل والأراجيف • •

• كما سجل زكى مبارك أن الدكتور (طه حسين) اعتذر عن رئاسة اللجنة التى أدي أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية عن (التصوف الإسلامى) بحجة أنه رجل « غير مصقول » على حد تعبير زكى مبارك وأنه « قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة العلنية فيخرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور •

• والسؤال بعد ذلك : هل حقا ان « زكى مبارك » قد تأثر بدراساته عن الصوفية ؟ • لقد اعتبر أن التصوف لا يقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتوبة الى الله ، والتجرد من شهوات الدنيا • وإنما هو كن أفراغ للقوى الروحية والعقلية فى فكرة سامية • وقد اعتبر هذا من زكى مبارك - فى تقدير الباحثين جرأة له ومخالفة للبعيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان دينى • ولا شك أن « زكى مبارك » قرأ فى سبيل اعداد بحثه الخطير عن التصوف الذى بلغ أكثر من تسعمائة صفحة من القطع الكبير - عددا ضخما من المؤلفات ، ودرس مذاهب دعاة الحب الالهى ، ووحدة الوجود ، وابن عطاء الجيلانى •

وهو يرى أن الصوفية ابتداء حياتهم بالحب (الجنىسى) ثم ترقوا الى الحب الروحى • وعنده أن الانتقال من حب الجمال الى التصوف

مقول • ولا سيما في حالة الحرمان من المحبوب • وعندى أن • زكى مبارك • بعد أن توغل في دراسة التصوف بدأ يحلّ أده بهارات منها اتجاه واضح الى الله ••• فهو يقول مثلاً

• ما كنت أملك غير ايماني بالله • وهو السر في عقيدة التصوف التي أقمت عليها بناء حياتي • •

ويقول كل شيء يسبح بحمدك يا واجب الوجود • وأمر الخلائق كله اليك • أنا عشقتك بالروح والقلب والوجدان • • ولكنه بلغ في اتجاهه هذا الى حد بعيد فقد بدأ أنه تحرّز من كل القيود في حديثه الى الله سبحانه وتعالى • كقوله مثلاً •

• سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني • • أو يقول • ماذا أعددت لي من تكريم وقد سبحت بك فوق • أفنان الجمال ؟ • ويقول • الدنيا لوحة فنية صاغها بديع السموات والأرض بما فيها من حسن • فهو صنع (فنان) وما فيها من قبح فهو صنع (فنان) • فأنا أدرس المحاسن والمساوي بذوق واحد • وقد آتلفس فأزعم ان خلق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم • وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم • فقد سواهم بنسابة ولعل مرجع هذا الانحراف الذي أصاب • زكى مبارك • هو ايمانه بنظرية وحدة الوجود • وهي نظرية أقل ما يقال فيها انها تنفي نظرية الجزاء التي هي جزء من شرائع الاديان • وهي بذلك تبيح للانسان كل تصرف دون عقوبة •

كما يظهر هنا تناقض زكى مبارك • ففي الوقت الذي يكتب فيه عن التصوف الاسلامي ويقول انه يقيم قاعدة حياته على أساسه تراه يؤمن بمذهب الكشف والتعزية والصراحة في الكتابة عن النفس والغرائز •

ولعل نظرية وحدة الوجود أيضا هي التي دفعته في هذا الاتجاه فقوضت في نظره عقيدة المسؤولية • وقد كان لهذه النظرية آثار مريئة فقد هوجم بها في أيامه الأخيرة ••• ولكن زكى مبارك ما يكاد يذهب الى بغداد ويقيم فيها عامه (١٩٣٨) حتى يكتب في يومياته (ليلي المريضة) ••• يقول :

• لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع • هل أحسنت
هل أسأت ؟ لا أعرف بالضبط • ولكن قلبي يحدثني بأنني كنت من
المسرفين ، أتوهم حيناً أنني أخدم لغتي بهذه الأحاديث ، وأعتقد أحياناً
أننى أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث •

أحب أن أعرف نفسي ، فهل أستطيع أن أعرف نفسي : هيهات
هيهات لو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وانتهيت •

ولكنى رجل عفيف • وهنا تظهر دقة الاشكال • ومن الذى
يصدق أننى رجل عفيف ، وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات •

فن جديد في الكتابة (ميثاق بين عربيان)

بدأ زكى مبارك حياته شاعراً • ثم تفتحت آفاقه فى الأزهر • فاتصل
بالجامعة المصرية واتجه الى التعمق فى دراسة الأدب العربى وأعد رسالته
عن (الشر الفنى) وأوقل فى هذه الدراسات • ثم التفت الى الأدب
الصوفى • فألف عنه رسالته الضخمة المعروفة •

هناك بدأ يشعر بأنه فى حاجة الى عمل جديد مثير • فما هذا
العمل ؟ • اعتقد أنه اتجه الى أكثر من عمل • اتجه الى الكتابة عن الحب
والوجدانيات على أساس أنها دراسة للنفس الانسانية كما فعل فى (ليلي
المريضة) • واتجه الى كتابة الاحاديث التى تدور فى الأسفار ، يضمونها
آراء وآراء غيره من الكتاب - كما فعل فى كتابه (الأسماء والاحاديث)

ثم اتجه الى خلق شخصيات خيالية يصور بها نماذج من الناس ،
كشخصية أبجد أفندى التى كان يرسم بها صورة غريبة لبعض الموظفين •
وربما كان يقصد بها الى رسم صورة انسان بالذات •

غير أن من أبرز الاعمال التى ابتدعها هو كتابته عن آدم وحواء • وقد
نشر بعض هذه الفضول فى الرسالة ، بدأها فى يناير ١٩٤٢ • بمقالات

توالت وتعددت أسبوعيا حتى مايو ١٩٤٢ (وقد بلغت أكثر من ١٦ مقالا) وقد جعل موضوعاتها (١) محاكمة آدم وحواء في جلسة سرية في ساحة العدل ، حديث السدرة ، بين الورق والدوح ، تحت شجرة التين ، قبل أن ثور العواصف فوق آتاج الكوثر • اجتماع الملائكة في مسجد الفردوس • وهكذا ... وهو نوع من الفنون التي حرص زكي مبارك على أن يغرب فيها ويتناول مسائل مثيرة وشائكة •

وقد بدأ هذا البحث تحت عنوان « بين الورق والدوح : رسالة مهداة الى مسيو دي كومينين » : استهلها بعبارات تحدث فيها عن شهر عدوان الخريف على آثار الربيع • • أول مرة في باريس • وتيف كانت قدماه تخبان في أوراق الاشجار وهو يخترق حديقة لكسمبور • ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المنظر الجميل • وقد اعانة على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي ، الذي يحوى آلافا من صور العدوان البغيض : عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيب ولا استخياء •

ثم يروى كيف أنه جلس في يوم عاصف تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن الى تساقط الورق : « فوعيت من جواره أحاديث لن أنساها ما حيت • وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق » •

ثم أجرى الحوار بين الورق والدوح عن الطوفان والسفينة • • وفي الختام قال : فالله وحده هو الذي يعلم قصة الورق والدوح • وهو الذي يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد • وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح الى التلميح لينجو الورق من الاقتضاب (٢) ثم لم يلبث بعد قليل أن عاود الموضوع بصورة أخرى • فروى

٣٠ من مارس ١٩٤٢

١٣ من ابريل ١٩٤٢

٤ من مايو ١٩٤٢

٢٣ من فبراير ١٩٤٥

(١) الرسالة

١٦ من مارس ١٩٤٢

٢٢ من مارس ١٩٤٢

(٢) الرسالة - ١٩ من يناير ١٩٤٢

قصة مخترعة خيالية عن كتاب أهداه إليه المرحوم أحمد زكي (باشا)
للسكرتير العام لمجلس الوزراء سابقا وشيخ العروبة ، بعد أن وقع الخلاف
بينهما ، ثم انتهى الى الصلح . ويقول فيما يقول . ان « زكي باشا » طرب
حين رآه يقرأ الخط الكوفي بلا غناء . . . ويرد على ذلك بقوله كيف
تكون حاله لو نظر قرآني أقرأ الخط السنسكريتي . وهذه هي الصورة
التي كتبها تحت عنوان بين آدم وحواء (١) .

كثر الكلام في هذه الايام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة
وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم . فأقحم خياله
الروائي في شئون فصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال . ولم يبق موجب
لذلك التورط بعد حكم التاريخ . فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء
والتزويد عليه لا يجوز ، وان احتال فزعم انه يكتب باسم الفن لا باسم
التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائي ان يخلق من الصور مثل ما سجل
المؤرخ « شيت ابن عربانوس » طيب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة ١٩٣٣ . وانما هداني اليه أستاذنا
للمرحوم أحمد زكي باشا بعد ان انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال
فاذا سألتكم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدونها في .
سطور ، ثم أمضي الى ترجمة شيت بن عربانوس بايجاز تمهيدا لشرح
آرائه في آدم وحواء باطناب .

.. كانت وزارة المعارف قررت اقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد
شوقي . . . بكلية التجارة . فهالني أن أسمع خطيبا تتخنع بعنف مع أنني
لم أكن اجتزت عتبة الكلية . فسألت نفسي كيف يصل صوت التخنع على
الرغم من تلك الابعاد الطوال . وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها
(ميكروفون) وأقيم لذلك (الميكروفون) مسامع في جميع الأركان . .

(١) بين آدم وحواء : الرسالة ٢٣ من فبراير ١٩٤٢

ونظرت فاذا الخطيب أحمد ذكى باشا • فكيف غاب عنه وهو عالم علامة
أن الميكروفون سينقل الى الجيران وجيران الجيران نحنحنه القوراء ؟ أما
كان فى مقدورة أن يدين وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترب بلك
الصوت •

اضحكنى أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه • فأخذت أترصد
له غلطة أدبية او تاريخية لاهجم عليه فى جريدة البلاغ ثم اتفق لحسن
الحظ أن قال كلاما غير صحيح ، وهو يتكلم عن روح الرسول فى نهج
البردة • وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب « المدائح النبوية » فوجدت
هندي من المحصول الأدبى والتاريخى ما يكفى لافحامه بلا عناء •

وما كادت تظهر كلمتى فيه حتى اندفع الرجل لمساولتى على صفحات
البلاغ بأسلوب ساحق ماحق • وكان رحمه الله آية فى الكز والفر • وكان
لا يهجم على باحث الا تركه كالرفات بفضل اطلاعه الشامل وذكاته الوهاج

وكانت حوادث فلسطين وصلت الى آلام وجراح • فأرسل زكى
باشا الى الحاج أمين الحسينى برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيها • وكان
ينتظر أن يصل الى جواب رقيق • ولكنه لم يتلق أى رد من الحاج أمين
الحسينى • فكتب اليه يسأل عن سر ذلك السكون فكان الجواب أن البرقية
وصلت ، ولكنها لم تكن بامضاء زكى (باشا) وانما بامضاء زكى مبارك •
وامتشق زكى (باشا) قلمه وأنشأ مقالا أخذ أربعة أنهر من جريدة
الاهرام • وكان فى مقاله أن عامل التلغراف حرق الامضاء • فان كان فى
مصر ، فالى الليمان وان كان فى فلسطين ، فالى البحر الميت • وأعلن زكى
(باشا) أن التحريف مقصود • وكانت حجته أن « زكى باشا » قد تحرف
الى زكى الابراشى ، بسبب الشين ، ولكنها لانحرف الى زكى مبارك •

وامتشقت قلمي فكتبت ردا وجيزا ، نشرته الأهرام فى أول نهر
من الصحيفة الأولى • وكان الرد يتلخص فى أن « زكى باشا » هو نفسه
الذى أمضى باسم زكى مبارك وحجتى أن (الباشا) مشغول بما نشر على
صفحات البلاغ • فأننا ملء قلبه • ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمى •
ورأى زكى (باشا) أن التعليل مقبول • فذهب الى ادارة التلغراف وطلب

أصل البرقية ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم (زكى مبارك) ، وبخط
(الباشا) الطريف • فلم يسكن بد من أن يدرك زكى باشا أن الأقدار
(أرادت) أن تطوقه بالخطا • ليكف عن آذاه فاتصل بى تليفونيا ليدعونى
إلى العشاء وامضاء عقد الصلح فأجبت بالقبول ••

وقال لى شيخ العروبة : الجائزة العظمى لمن كان فى مثل أدبك أن
تهدى اليك النسخة الوحيدة من كتاب (شيث بن عربانوس) ومضى
(الباشا) لاجتماع الهدية • ثم عاد ومعه كتاب فى أكثر من خمسمائة صفحة
بالخط الكوفى • وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات
ثم يقول : « أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق » ثم لاحظت أن منزلى عظمت فى
قلب زكى (باشا) عندما رآنى أقرأ الخط الكوفى بلا عناء فكيف تكون
حاله لو نظر فرآنى أقرأ الخط السنسكرىتى •

ثم يقول : « عرضته على دار الكتب وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى
مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد أحدا يعترف بقيمته التاريخية ، وإن كان مكتوبا
بالخط الكوفى • وهل كنت أجهل أن الطعن فى صحته من الممكنات ؟
إنما كان همى أن أنتفع بشئ • وأن أتمكن الجمهور من الاطلاع على
ما فيه من مقاصد أو أغراض • ولكن الامل فى الانتفاع بشئ أمسى خيالا
فى خيال • »

ثم يقول انه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ فى ذلك يسجل
أنه غير مطمئن الى أنه ألف فى العصر الذى تلا الطوفان • ويضيف الى
ذلك أن المصادر التى تحت يده لم تتحدث عن شيث بن عربانوس • ولم
نسمع أن اسمه ورد فى كتب المستشرقين فأين وجسد زكى (باشا) ذلك
الكتاب ؟ ••

ويقول انه كان فى النية أن يوجه اليه هذا السؤال ، لولا أن المنية
عاجلت المرحوم (أحمد زكى باشا) لتطول الحيرة فى مصدر ذلك السفر
الغريب ، ومعنى هذا أن (زكى مبارك) استغل قصة كتاب خيالى مكتوب

باللغة الذوقية ليحقق غرضاً معيناً (١) وأعتقد ان القصة معترعة من أولها الى آخرها • وانه اراد ان يرسم صورة آدم وحواء • ولكنه خشى أن يتهم فيها بالاغراق او المبالغة أو الانحراف فنسبها الى شيث بن عريابوس وروى هذه القصة الطويلة عن خلافه مع زكى (باشا) واصله ليبرر نشر تلك الفصول •

ولعل هذا الفصل يعطى صورة لجانب من جوانب شخصية مبارك تضاف الى الجوانب الاخرى لترسم فى النهاية صورته الكاملة •

تخصومات مبارك ومعاركه الأدبية

قالوا ان « زكى مبارك » عنيف النقد قوى المعارضة • وقالوا انه مشاغب بطبعه وانه غير مصقول • وقال طه حسين عنه : « حاد الشباب عنيفه » وقالوا أنه ناقد مخيف حتى ليكاد قارئه يلمح الشراسة فى هجومه على خصومه ويشفق بهم من هول وطأته •

ولا شك أن « زكى مبارك » ناقد عنيد لا يهاجم كاتباً الا بعد أن يدرس مقاتله • ولكنى لا أعتقد فى الجملة أن قوة زكى مبارك هى فى قوة منطقته وسلاسة معارضته وانما هى فى ذلك العنف الذى يصبه كالحجم على أساس عاطفى بحث •

ولقد تثير هذه المعارك وتهز وتفعل فعل القنابل : تحدث الدوى وتثير الدخان وكلها ليست أقوى فى نظرى من المساجلات العميقة التى يمكن أن تقوم على البحث الهادى والمنطق العميق والمعارضة الذهنية •

ولذلك فإن أكبر مساجلات زكى مبارك كانت من جانب واحد • فقد تماما فيها الطرف الآخر ووقف منها موقف الصمت • ولقد كانت

(١) مما كتبه زكى مبارك هذه العبارة : كان الراى أن أقصر جهودى على اللغات الميتة وهى لغات يدعيها من يشاء كيف شاء بسلا رقيب ولا حسيب •

مسابجلاته مع طه حسين ومع أحمد أمين هي أضخم مسابجلاته وقد اعتبر صمت معارضية عنه نصرا له • غير أن الدكتور • زكي مبارك • بدأ يفقد خاصيته هذه بعد قليل • فقد انهزم في معركة النقد الأدبي مع السباعي بيومي عام ١٩٤١ • أما مسابجلات عام ١٩٤٤ • وما بعدها (تلك التي آثارها محمد الغمراوي ودريني خشبه • حول الشر الفنى والتصوف الإسلامى • فان • زكى مبارك • لم يدخلها • ولم يجد فى نفسه الجرأة لخلع ثيابه • ولبس ثياب مصارعة الثيران التى كان يرتديها دائما فى الفترة الوسطى من حياته (١٩٣١ - ١٩٤٠) •

ولقد أحس بعد عودته من العراق بأنه لم يعد فى قوته أو كفايته الأولى • فأخذ يردد قصة بطولاته فى النقد :

• متى تعود أيامى فأناضل كما كنت أناضل فى الجرائد والمجلات؟
• متى يكون لى خصوم كالذين كانوا فى الأيام الخاليات ؟

• متى يكون لى خصوم أصولهم وأنتصر عليهم من أمثال طه حسين ، وإبراهيم المازنى ، وعلى الجارم ، ومصطفى الرافعى ، وأحمد زكى (باشا) ومحمد لطفى جمعة ، وعبد الله عفيفى ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد فريد وجدى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد خالد ، وأحمد أمين ، ومن إليهم من أقطاب الرجال ؟

أفى الحق أنى صرت كالبيع الذى يخوفون به الأطفال •

لقد أصبحت أعانى الوحشة والغربة فى وطنى بسبب التهمة الشيعة؛ تهمة الشره الى أكل لحوم الناقدین •

• • يعز على ، أن تغلق فى وجهى ميادين كثيرة بسبب ماشاع وذاع من غرامى بالمشاغبات • يعز على أن تنسوا أن مشاغباتى انقطعت عن الحياة الأدبية بضع سنين • •

ويروى كيف أنه خوفا من مشاغباته اعتذر الدكتور طه حسين عن رئاسة اللجنة التى أدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية

(بحجة أنى رجل غير مصقول) وأتى قد أخرج على قواعد النوق فى
المنافسة العلنية فأخرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور .

بدأ زكى مبارك معاركه بعد مناقشة رسالته (الأخلاق عن الغزالي)
عام ١٩٢٤ ولكن الفترة التى تلت ذلك حتى سافر الى باريس لم تكن
الافرة استعداد لم ينشر خلالها الا بضع مقالات متفرقة فى البلاغ
الأسبوعى .

أما مقالاته فى باريس خلال فترة اقامته فلم تكن فى الأغلب الا
فصولا من كتابه النشر الفنى ، وبعض خواطر ومشاعر وصور عن الحياة
فى باريس . ولكنه ماكاد يعود من باريس حتى كان قد أعد حملة ضخمة
تعتبر استعدادا لمركة طويلة من النقد الأدبى ، امتدت سنوات وسنوات .

فكتب مقالا فى البلاغ فى ٢٤ من يولييه ١٩٣١ :

• قلمى بين الصدا والصقال •

• ان قول الحق لم يدع لى صديقا ، اكتم بن صيفى •

• الغرض الذى أرمى اليه هو تكوين جيل جديد يعتز بالآداب
العربية كما يعتز الفرنسيون والانجليز والألمان بالآداب الفرنسية
والانجليزية والألمانية . فقد جنت تلك الدراسات الضعيفة غير المأمونة
أشنع جناية على اللغة العربية وانصرف شبابنا الى اللغات الاجنبية
يستوحونها فى كل ما يحس القلب والعقل والروح . وسيرى شبابنا بعد
الدرس أن لنا أدبا يشرفنا بين العالمين . وأن لنا أسلافا جديرين بالاعزاز
والتمجيد •

• سأروع بعض الآمنين من رجال الأزهر والجامعة المصرية ووزارة
المعارف • ففى تلك الديار ناس يأكلون العيش باسم العلم والأدب ثم
لا يقدمون ولا يؤخرون فى دنيا ولا دين •

لقد قامت ثورتان فى مصر لكتابين اثنين : أولهما • كتاب الاسلام
وأصول الحكم • للاستاذ على عبد الرازق • وثانيهما • كتاب الشعر

الجاهلي ، للدكتور طه حسين • وقد تبين بعد هذا الهياج واللجاج ان الكتاب الاول اوجد ما اوجد من الثورة لان مؤلفه كان يعارض بعض الهيئات • وأن الكتاب الثاني آثار ما آثار من الشر لأن مؤلفه أساء التعبير ، وهو يتحدث عن التوراة والقرآن • لقد صدر كتاب الاسلام وأصول الحكم منذ سبعة أعوام فهل عقب عليه مؤلفه بشيء جديد ؟ كلا •

وكتاب الشعر الجاهلي صدر منذ ستة أعوام فهل شفعه المؤلف بكتاب طريف ؟ كلا • ان الأستاذ « علي عبد الرازق » قوة فعالة ولكنه انهزم للصدمة الاولى • فلاذ بالسكوت • والدكتور طه حسين قوة من قوى الذكاء والانتاج ، ولكنه تحول الى رجل حذر ، تقوم الدنيا وتقع ، فلا يتحرك ولا يتور • • •

ويعلق زكي مبارك على أن النقد قد حمله متاعب كثيرة في رزقه وحياته فيقول : « الناقد الصريح في مصر يتعرض رزقه ومعاشه لضروب من الزعزعة والاضطهاد وقد يتعرض مسلكه في الحياة الى سفاهة القيل والقال • وفي مصر عبارة مألوفة حين تظهر مقالة نقدية : وهي « ما الذي بين فلان وفلان ؟ » ومعنى ذلك أن الناقد لا يتعرض لمؤلف الا كان في صورة عرض خاص •

انضم معركة خاضها زكي مبارك

المعركة مع طه حسين

تعد معركة زكي مبارك مع طه حسين أضخم معركة خاضها مبارك في حياته الأدبية • فهي معركة ممتدة تبدأ جذورها منذ قصد مبارك الى باريس وحمل على آراء طه حسين في رسالته (النثر الفني) • فلما عاد أنكر طه حسين كتاب « النثر الفني » ولما سئل عنه : وهو المجلد الضخم الذي يقع في أكثر من ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير والذي أنفق زكي مبارك في اعداده سنوات • • قال طه حسين : « كتاب من الكتب ألفه

فأب من الكتاب • • هنالك أفتح باب النقد على مصراعيه • فقد مضى
فأبى مبارك يساجل طه حسين ويصوبه • دون أن يدخل طه حسين بالسجل
وقد استمرت المعركة • سنوات • وسنوات • وقد استطعت أن أجمع
فصولاً منها • تكاد ترسم صورة لامله لها • وهى تبدأ من ١١ من نوفمبر
١٩٣٢ الى أول ديسمبر ١٩٤١ - وهى فترة لا تقل عن عشر سنوات • فى
خلال ذلك حدثت مضاعفات • فقد عاد مبارك الى منصبه فى الجامعة
سنة ١٩٣٣ إبان الفترة التى كان طه حسين فيها خارج الجامعة • فلما عاد
طه حسين ١٩٣٤ رفض تجديد عقد مبارك • فأثار زكى مبارك • وكتب
مقاله : • طه حسين : بين النعمى والعقوق • • وقال كلمته المعروفة : • لو
جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه • •

فلما أخرج زكى مبارك من الجامعة اهتز لذلك أقرب الناس صداقة
لطه حسين • وفى مقدمتهم المازنى • • هنالك دخلت المعركة فى أقصى
صورها • فقد بدأ زكى مبارك مجموعة مقالات فى « الصباح » ابتداء من
العدد ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ •

واستمرت تحت عنوان « مثل من جهل طه حسين » (١٣ من سبتمبر
١٩٣٥) « المثل الثانى من جهل طه » • • (٢٠ من سبتمبر ١٩٣٥) « المثل
الثالث » • • (٤ من أكتوبر ١٩٣٥) « المثل الرابع » (١١ من أكتوبر ١٩٣٥)
« المثل الخامس » • • (٢٥ من أكتوبر ١٩٣٥) • • « لو جاع أولادى » • •
(١٧ من يناير ١٩٣٦) •

ولقد حاولت أن أصور المعركة بنزاهة • ولكنى لم أنشر كل ما لدى
من وثائق وقد سجل طه حسين عن زكى مبارك عبارته المعروفة (الرجل
الذى لا يخطو الى كلمة الا احتال على رأسه عفرية) فكيف استقبل
مبارك هذه العبارة ؟ قال :

« الرجل الذى لا يخطو الى قلبه الا احتال على رأسه عفرية : تلك
كلمتك وأنا عنها راض وبها مختال • فما العفريت الذى يحتل رأسى حين
أخطو الى قلبى ؟

أ يكون هو الحق الذي سماه الفرنسيون Génie • ان
كان ذلك فانت تشهد لى بالعقريه ، والقول ماقل طه حسين • وهل تكون
العقريه الا من نصيب من يخاصم رجلا مثلك فى سبيل الحق ؟ وما المنفعة
التي أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع ؟ •

وقد تعددت مناوشات زكى مبارك عن طه حسين ، حتى ليوششك
أن يرى الناقد أنه قد شغل نفسه شغلا جها بهذا الكاتب ، الذى كمن مثله
الأعلى فى مستهل حياته ، والذى حرص أن يسبقه بالحصول على عدد
أكبر من شهادات الدكتوراه : ومن ذلك عباراته المتعددة : يقول : « زعمت
مجلة الحديث الحلية أن الدكتور طه أكبر أديب • فقلت ان الدكتور طه
أشهر أديب وليس أكبر أديب • »

ويقول : سييت الدكتور طه مؤرقا لأنه سيذكر أنه لم يؤلف كتابا
فى قوة كتاب الشر الفنى •

ويذكر طه حسين صداقته القديمة دائما وفى أكثر من مناسبة :

• وهل تذكر يا دكتور ما وقع فى نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟ هل تذكر
ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذى يفهم العسارة
الفرنسية لكتاب نظام الأتنيين لأرسططساليس ؟ هل تذكر أنك أعلنت
سرورك بأن يكون فى طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغسة
الفرنسية ؟ • ويستطيل زكى مبارك على طه حسين فيقول انه طلبه بالتليفون
ليسأله عن معنى كلمة « زمالك » بمناسبة أن الدكتور طه يقيم بالزمالك
فقال : لا أعرف يا دكتور زكى • فقال له مبارك : « ان الزمالك جمع زمالك
(بضم الزاى) وهى كلمة ألبانية • والأصل فيها أن « محمد على » أسكن
جنوده فى تلك البقعة فى مواسم الاصطياف • والزمالك هى الخيمة فى
اللغة الألبانية •

• ثم يراوح طه حسين ويناديه فى مسألة اماره الشعر : يقول :

« أثبتت ان اماره الشعر بعد شوقى قد انتقلت الى العراق • أخطأت
بإسدى الدكتور • ان الشعر لمصر الى آخر الزمان • أنت نفسك حاولت

أن تكفر عن ذنبك فخلعت اماره الشجر على الأستاذ العقاد • وهو أديب
فاضل • بدليل أنك أهديت أحد كتبك اليه • ولكنه شاعر صغير بالقياس
الى البقرية المصرية • •

ومن ناحية أخرى يعلن زكى مبارك أن « طه حسين » قد يقع من
وقت الى وقت فى خطأ كبير حين يقطع ما بينه وبين أصدقاء لايجود بأمثالهم
الزمن •

وفى الصفحات التالية تكشف المساجلة مع طه حسين عن حقائق
واضحة : هى عنف زكى مبارك وشراسته فى النقد • ولكنها تبدو فى
تضاعيف الصورة قلباً لا يعرف العدوان • ولكنه يتردد فى رد الأذى
بأنف منه •

أول قضية كانت موضع الخلاف بين طه حسين وزكى مبارك • هى
نزعة تمجيد اليونان • وقد سجل زكى مبارك هذا فى بحث قال فيه :

« سائر الدكتور طه الباحثين الاوربيين فى القول بأن الثقافة الأوربية
هى مصدر الثقافة الانسانية • وأن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان •

والحق أن للدكتور طه حسين عذرا فى المسائرة • فقد قرأ كتباً ترى
هذا رأى • ولو تريث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص
وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية • وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء • •

ثم عاد زكى مبارك الى تناول الموضوع بعمق وتوسع •

« قال طه حسين : ان الأدب الذى يمثل المركز الأول بين الآداب
القديمة هو الادب اليونانى ثم يجىء الأدب العربى •

ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربى أقوى
من الأدب الفارسى واللاتينى •

الأدب اليوناني في المذنب الأول ، هذا صحيح . ولأن ما رأى الدكتور
طه أن الأدب العربي له المكان الأول أيضا .

الأدب اليوناني له المذنب الأول من الناحية العاطفية والتمثيلية فإنه في هذا
الباب يجتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل ولا النزاع . والأدب العربي
له المكان الأول من الناحية الدينية . فن البلاغة الدينية باب هام من ابواب
البلاغات في الأدب القديم والحديث . فقد شغل ثلثمائة مليون في العالم
مغلا موصولا بأروع أثر في البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن . وعندنا
أدب الصوفية . يستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا
الصفاء في الجوانب الروحية ؟ .

الأدب العربي يسكت عنه الأوروبيون عامدين لأنه يمثل الحضارة
الاسلامية . وهي حضارة كانت تبغى أوروبا هدمها منذ أزمان . ولأنه من
جهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين ، وأوروبا فتت
بما في الأدب اليوناني من نزق وطيش وخلاعة ومجون . بدليل أن أكبر
شاعر شرقي راج أدبه في أوروبا هو « عمر بن الخيام » لأنه شاعر
اللذة والقلق والارتباب .

ويضاف الى هذا أن يقظة أوروبا الحديثة اتفق وجودها في أزمان
كانت فيها الأمة العربية منحدره الى مهاوى الضعف والخمول . فلم
تستطع أن تقدم أدبها الى العالم تقديماً حسناً يصور ما كان له من روعة وجمال
وقال زكى مبارك : « ان العرب مازالوا أقوياء يخشى شرهم . وذكرياتهم
الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام . وكل أحياء لذكريات العرب
مخلوق بأنه يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الاسلامية وهم يعرفون
ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي .

آثار العرب نرجع في صميمها الى التشريع . وهو من المعساني
الجافة التي لا يقبل عليها غير أهل الجدة من كبار الباحثين . وليست كذلك
آثار اليونان فان معظمها يرجع في جوهره الى الأدب الصريح الذي يهيج
الاهواء ويشير الشهوات ، حتى يمكن أن يقال ان جميع الشهوات واللذات

الحسبة أخذها الأوروبيون عن اليونان . . ان الغرب يمجّد ذكريات اليونان
ولا يمجّد ذكريات العرب . .

وقد غاد زكى مبارك الى تناول قضية اليونان عندما عرض لكتاب
قادة الفكر للدكتور طه فقال : كما ذكرنا من قبل :

« ساير الدكتور طه الباحثين الاوربيين فى القول بأن الثقافة الاوربية
هى مصدر الثقافة الانسانية وأن الناس فى الشرق والغرب ، وفى جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه عذرا فى هذه المسيرة فقد قرأ كتباً ترى
هذا الرأى . ولو أنه تريت لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص
وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

وقال زكى مبارك فى مقاله : « ان ايمان الدكتور طه بهذا الرأى
يرجع الى تاريخ قديم . ففى نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخالق ثروت
(باشا) الدكتور طه الى الجمهور فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية .
فألقي المحاضرة الأولى . وقال فيها :

انه عزم على احياء التراث اليونانى ، لأنه يؤمن ايمانا جازما بأن مرجع
الفكر فى الشرق والغرب الى القدماء من مفكرى اليونان . .

طه حسين . . ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الاسلام لم يغير تلك
العقلية .

زكى مبارك . . ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً . وهى مؤمنة بالعقيدة
الاسلامية .

أما معركة الشر الفنى ، فإنه عندما أصدر ميشارك الشر الفنى ،
استقبله طه حسين بفتور بالغ . فقد سجل الشر الفنى عبارة عن طه حسين
مؤداها « ان هذا الرجل تربطنى به ألوف الذكريات ، ترجع بعضها الى
العهد الذى كنت فيه مدرسا فى الجامعة المصرية القديمة . يسوم كان

مصطفى العدل الذي يلبي نوب الظلم في امتحان الطلاب • وأرق ما يتصل
 بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ ، يوم ظهر كتاب الشعر
 الجاهلي ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان • وكان اصدقاءه وزملاؤه بين
 خائف يترقب ، وحاسد يترصد • وكنت وحدي صديقه الذي لا يهاب •
 وزميله الذي لا يخون • ولكن حماسي للفكرة التي ادافع عنها ، وغرام
 الدكتور طه بتسقيها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كانا مما حملني
 على مقاومته في عنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عداوة سقيت
 لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف ، حين عرضت لدحض آرائه في
 فصول هذا الكتاب • ثم صور فكي مبارك القضية موضع الخلاف ،
 فقال : « هناك رأي مثقل يا أوزار ، الخطأ والضلال وهو رأي مسيو مرسيه
 ومن شايعه كالدكتور طه حسين • وذلك الرأي يقضي بأن العرب في
 الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية • والحياة الأولية لا توجب النثر الفنى
 لأنه لغة العقل ، وقد تسمج بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال •

وهذا الرأي أعلنه مسيو مرسيه في المحاضرة التي افتتح بها
 محاضراته في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام • ثم أذاعه
 مطبوعاً في كراسة خاصة • وقد اختطف الدكتور طه هذا الرأي ، وأذاعه
 في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبت في كتاب (المجمل) •
 هذا جملة ما أوردته فكي مبارك في كتابه النثر الفنى عن رأي طه
 حسين • فلما صدر الكتاب وتجاهله طه حسين ، بدأ هجوم مبارك عليه
 على هذه الصورة •

• الدكتور طه لا يقدر على الانصاف • وهو لا ينصف حين ينصف
 إلا حاجة في النفس • وقد تقطعت بيني وبينه الأسباب منذ اعترفت كنهف
 ما تورط فيه من الأخطاء • والرجل لا يرضى إلا عن يؤمنون بأن باطله
 أشرف من الحق • وأن خطاه أفضل من الصواب •

• أنا ما أسأت إليك بل أعصيت إليك بعض الاحسان ، حين دلت
 القراء على أنك لم تتذكر ما تورطت فيه من الأخطاء • وانها هي أخطائنا

جماعية من المستشرقين • فبعتهم بلا روية • فكان عليهم اثم السيئة
السيئة وكان عليك اثم التقليد •

• كنت أنتظر أن تفرح بكتاب الشر البغي لأنه كما تعلم جهـد
أعوام طوال • ولكن ، خاب الظن وعرفت أنك كسائر الناس تغضب
وتحقد • وكنت أرجو أن يكون عندك شيء من تسامح العلماء •

• تعان تتحاسب بالناسي العهد ، ويا منكسر الجميل • لقد مرت أعوام
لم يكن يذكر فيها بخير أحد غيري • وهل كان في أصحاب الأقلام من
انبرى للدفاع عن طه حسين غير تلميذه وصديقه زكي مبارك ؟ • لقد
ذكرتلك بالخير في جميع مؤلفاتي • فهل يضع عندك كل هذا المعروف
لائي بددت أو هامت في كتاب « الشر البغي » ؟

رأى الدكتور طه موقفي يوم أخرجه وزير المعارف من كلية الآداب
فقد دافعت عنه في البلاغ دفاعا ، ما كان ينتظره • ولعله قد دهش منه •
وكنت في محضره ومنه من المنافحين عنه • لأن المروءة كانت تطالبني
بذلك • أفيحجز الدكتور وهو أكبر مني سنا وأرفع صوتا عن مقابلة المروءة
بالمروءة ؟ !

• لقد كان يجب أن يكون الضمير العلمي أقوى وأمنع من أن تؤثر
فيه الاحقاد اليومية • وكان يجب أن يكون العلماء أرفع من أن يخضعوا
للأهواء والشهوات • وكان الدكتور طه أولى الناس وأجدرهم بأن يتخلق
بخلق الجميل •

ولم يلبث زكي مبارك أن عاد إلى العراق ، فهاجم « طه حسين » بعد
أن خرج من الجامعة فقال (١) :

أعلن الدكتور طه حسين بعد اخراج الشعر الجبيلاني بناء قال
فيه : أشهد أني أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر • •

(٢) البلاغ : ٢٣ من نوفمبر ١٩٣٤ مقال « طه حسين بين البغي
والفحوق » كتاب البلائع ج ٢ ص ١٧٣ •

« أنت تؤمن بالله وكتبه يا ذكور طه ، وأنت تكذب التوراة والقرآن
اعتمادا على رأى خاطيء ، سرقة من أحد المبشرين ؟! »

« أنت لم تترك حزبا الا خدمته . ولا جريدة الا توددت اليها بعد
عديد من الرسائل الطوال . »

« ذهبت الى باريس على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله .
ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخا من آراء مسيو كازانوف .
واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضا . »

« وقف مسيو ماستيون يوم أدت امتحان الدكتوراه فقال : اننى حين
أقرأ بحث طه حسين أقول (هذه بضاعتنا ردت إلينا) . وحين أقرأ أبحاث
زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة . »

« مضيت فنتهبت آراء المستشرقين ، وتوغلت فسرقت حجج المبشرين .
وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمقتك به النيابة العامة . وأنت تعلم أنه ليس
لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحت . . . »

« كنت لوحة اعلانات لاتذيع الرأى الا لتغيظ الجمهور ، ولتصيح
حديث الناس فى الأندية والمجتمعات . »

« أنت تعرف انى لم أنل القاب الجامعة « المصرية » بلا جهاد . وانت
أسقطتنى فى امتحان اللسان مرتين . واشتركت فى امتحان الدكتوراه
الذى أذيته أول مرة مع انك لم تكن عضوا فى لجنة الامتحان . وكان
لخصومتك الصورية تأثير فى الدكتوراه . - التى حظيت بها للمرة الثالثة .
فلم اصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين . »

تم أعاد الهجوم على طه حسين فى البلاغ فى (١٥ من أغسطس ١٩٣٥)
« أما الأحقاد التى تتلظى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء ،
وتتكمل به تنكيلا . ولن تدوم له أيام الطغيان . ولن يبقى له فلان وفلان »
والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هو أقل ما انتظروه من الجزاء فى
المستقبل القريب . ان أعظم منصب فى الجامعة لاينبئنى من المجد ما أنالنى

كتاب الشر الفنى • وشييد أحجار الجامعة المصرية وتييد ذكريات ، ثم
يبقى ذلك الكتاب على مر الزمان • والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى
محاربتى الا لظنهم انى رجل أعزل • لا انحاز الى حزب من الأحزاب •
وليس لى فى الحكومة عم ولا خال • ولكن خاب ظنهم • فان الحق أعز
وأقوى • ويرون كيف أزلزل أرواحهم • وكيف املأ قلوبهم بالرعب •
وكيف أريهم عواقب ما يصنعون •

ان النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل فى تثقيف
عقولهم • أما الثروة الفارغة التى يعتصم بها طه حسين فلن يكون لها فى
عالم الجدد البقاء •

ولقد رسم زكى مبارك قصة اخراجه من الجامعة فى حديث طويل:
مؤداه :

• أنى بدأت أناوش الدكتور طه حسين منذ سنين ، حين تبينت أنه
كالطبل الأجوف ، وانه لايعرف من تاريخ الأدب العربى الا قشورا
عديمة المحصول • وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشى عاقبة
النضال • ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فيدا له ان يتشجع ويناوشنى ،
ظنا منه أنى أخف من المناوشات ، احتفاظا بمنصبى فى
الجامعة • ودفعنا لمعات القتال • أمهله قليلا • وتركته يصول فى مناوشتى
ويجول • وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة ، يوم عين أحمد
نجيب الهلالى ، وزيرا للمعارف • وكان يعرف الصلة التى بينه وبين
نجيب الهلالى • وفى هذا ما يقوى المحالفة بين رجلين لهما خصم لاسند
له بين الأحزاب ولا عم له فى الحكومة ولا خال •

فى تلك الايام أراد طه حسين أن يناوشنى • وكان يثق بأنى سأسكت
فلا أجيب • ورأى فريق من (زملائى) فى الجامعة أن أتسامح ، مراعاة
للظروف فأقسمت لأجعله مثلا فى الآخرين • وكذلك كتبت مقال
• طه حسين بين البغى والعقوق • ذلك المقال الذى أبكى طه حسين بالدمع
السخين • وكان يظن أنه لن يعرف البكاء •
وعاد طه حسين الى الجامعة فى (زفة) لم يسمع بمثلها منذ كان

يسكن في كفر الطماعين • وظن الناس أنني سألانيته وأهاريه • ولكن
مهمات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام إلى أن جمع بيتنا مجلس اللغة
العربية •

في تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيتنا • • • وكنت
أحسب أن أصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات • ولكنني فوجئت
مفاجأة لم تخطر علي بال • فان الاستاذ أمين الخولي انتظر حتى اجتمع
بعض الزملاء ثم نهض فقال : هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين
بعد عودته • وأنا أقترح أن تلقى كلمة ترحيب • وأفضل أن يلقيها
الدكتور زكي مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول •

وكان موقفا في غاية الحرج • ولكنني تخففت إذ كنت أعرف أن
العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول • ومن الحزم ألا أقول
كلما ينطوي على تودد أو ترفق فوقفت • وقلت :

• اني أرحب بعودة الدكتور طه • وقد (زاملته) من قبل ثلاث
سنين • وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء • والذي وقع بيني وبينه
لم يكن فيه شيء خارج الا المقال الذي نشرته في البلاغ • وهو مقال
أعرف أن فيه شيئا من الشطط • ولكنني لا أعذر عنه • لأنه من بعض
ما علمني • ومن الخير أن يتأني ما فات لان مصلحة العمل توجب
الموافق • •

وقد ابتسم الاساتذة حين ذكرت أن الشطط كان من بعض ما علمني •
وعدها خطبة لبقة فيها ترضية وفيها احتراص •

أما موقفي من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائما موقف المعارضة
الصريحة لنزعات طه حسين • وكان لا يسلم مني الا بأخذ الاصوات •
وكان أساتذة اللغة العربية لا يرون فائدة في معارضته إذ أنهم كانوا يعرفون
أن كل شيء مصيره إلى هواه بفضل الوسائل التي يعرفها الجميع •
لا أنكر أنني أسرفت • ولكن الأيام أرثني أن الحزم كان أوجب •
ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أنني قابلت الدكتور طه حسين

بالترحيب • وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به بخفيه من قوارخ الشريب
ولم يغفر ما كشفت من شرقاته • وكان الناس يحنونونه من المتدعين •

وفي أوائل شهر مايو دعاني الدكتور منصور فهمي الى مكتبه • وقال:
أرسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد • والنظام يقضى بأخذ رأى
الدكتور طه حسين فاذهب يا بني وصف ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب
حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصور فهمي بما نصه :

• أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه • ولكني
لا أفعل ذلك في هذه الأيام • ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين ، لقبلت •
أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه • وأنا أعلم أن لذلك دافعا
من الغرض • ومع ذلك ما الذي يزعجك يا سيدي العميد ؟ • •

أتظن أن الدكتور طه يتهمز هذه الفرصة ويتشفى مني • انه أعقل
من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح • •

فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة • وقال : • أنت يا بني تسرف
في حسن الظن بالناس • •

ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ : لقد اجترأ زكي مبارك على طه
حسين في ادبه فحاربه طه في رزقه • وقال حين طلب اليه تجديد عقده :
• أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده • •

وكتب المازني مقالا قال فيه : • اني لأحدث نفسي أحيانا بأنني لو كتبت
أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه حسين • فانه يخيّل الي أنه قد مات •
طه حسين الذي عرفته وأحبته وأكبرته • وجاء غيره الذي أنكره • • كما
كتب المازني يعاتب الدكتور • طه حسين • على فصل زكي مبارك من الجامعة
وقال • ان الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها
وانه صار يضرب اللقمة التي ترتفع بها اليد الى الفم • ويظيها • فتسقط على
الأرض فتفوق بها الكلاب ويخرنها الإنسان •

وقال زكي مبارك : ليس عيبا أن يجوع المرء وانما العيب أن يكسب
الإنسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة • •

• الذى بيننا لم يكن خلافا فى رأى • وانما هو قتال عنيف بين
شخصين • فالدكتور طه يرى أننى كنت تلميذه • ومن واجب التلميذ فيما
يزعم الا يخالف الأستاذ • أما أنا فأرى الدكتور طه رجلا قليل العلم
والمعرفة بالأدب العربى • واره استمرأ السطو على آراء المستشرقين •
وآراه فى حياته العلمية نموذجا للفوضى والقلق والاضطراب • فقد يقولون
وكيف سكنت زكى مبارك عن نشر عيوب طه حسين ، وهو يصاحبه منذ
خمسة عشر عاما •

وأجيب بأن الدكتور طه ابتداء التدريس فى الجامعة المصرية قبل أن
نقدم الدراسات الأدبية • فكان منذ سنين مستور العيوب • على أن الخواص
يعرفون أننى بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه
الفاضح ، وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء •

وأنتم تعرفون أننى رجل صريح لم تستطع الايام أن تروضنى على
المجاملة والمداراة • فلم يكن خافيا أن يعرف الدكتور طه أننى لا أحترمه
ولا أحترم مسالكه الأدبية • ولا أحترم تهالكه الفاحش على موائد الأحزاب
وكذلك هدته غريزته الى وجوب محاربتى فى عملى فى الجامعة المصرية •
وساعده على ذلك ناس كنت شجا فى حلوقهم • وكان هو فى أنفسهم مثال
الخادم الأمين •

فان كان الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعدونه على اخراجنى
من الجامعة ، وليتذكر • من عاونوه على شفاء صدره أن انتصارهم
ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون •

• لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب « النثر الفنى »
وقد بينت أغلاطه وسرقاته • وتحديثه أن يدافع عن نفسه • فتخاذلت قوام
ولم يملك الجواب • وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب أنه لا يملك شيئا
أصيلا • وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه
من الآراء ليس الا صورا ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع •

• ان قلمى ليس الا محنة صيها الله على طه حسين • ولعله انتقام

من الله صوبه الى صدر ذلك الشخص الذى اجترأ على التوراة والقرآن •
واستطاع أن يقول فى وقاحة (للتوراة أن تحدثنا • وللمقرآن أن يحدثنا)
كأن العلم لا يكون الا حيث تقع مساقط هواه • أما التوراة والقرآن فهما
ظنون فى ظنون • طه حسين جاهل • سبحانه الله وكيف يكون جاهلا •
وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ؟ من الذى وضع طه حسين
فى ذلك المنصب ؟ ان الذى وضعه فيه هو أحمد لطفى السيد مدير الجامعة
المصرية • ولطفى السيد ليس بحجة فى الأدب العربى • ولم ير فى حياته
جامعة أوروبية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية •

• ان هذا الرجل لم يكن فى جميع أدوار حياته العلمية الا مرتزقا
يتلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم • أو أوقدوا نارهم • ولم يستطع
حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر
والبيان •

• أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوما من المفكرين • وانما
هو أديب قليل الفكر قليل الاطلاع • نشأ فى أوقات لم يكن يعرف الناس
فيها غير المجالات الأساسية • وكان النقد فيها قليلا ، فتظاهر بالعلم ، فظنه
القراء من العلماء •

لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا ، وانما قرأ فقرات من هنا ومن هناك ،
وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن اتصل بالمرحوم ثروت
باشا فوضعه فى الجامعة المصرية •

• ظل طول عمره ظلا من الظلال فى عالم السياسة • ولم يترك
حزبا الا خدمه ، ودبج فى تقريره ألوانا من الرسائل الطوال • والاتجاه
السياسى صورة من الاتجاه العقلى • والرجل الذى يتردد بين المذاهب
السياسية لا يبعد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية • وقد اتفق
للرجل الصالح جدا ، طه حسين ، أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب :
وأن يخدم بعد الحرب أربعة أحزاب • وخطه من الثبات فى المذاهب
الأدبية يشبه خطه فى الثبات على المذاهب السياسية : ترددها ، وخشيته
هناك •

• كيف ينظر الجفنة إلى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن
أكبر أستاذ فيها ، لم تقم استاذيته إلا بفضل انتهاب آثار المستشرقين ؟

• أن (١) أطفال لو جاعوا لتويت طه حسين وأظمتهم من لحمه •

علي أن من بين أسباب الخصومة بين طه حسين وزكى مبارك :
ما أوضحه زكى مبارك :

• ترجم لأبى العلاء فأفزع ، ثم ترجم للمتنبى فأخفق •

• أخرج الجزء الأول من الأيام فكان أعجوبة ثم فتر في الجزء

الثاني •

• والجزء الأول من هامش السيرة سفر نفيس ، أما الجزء الثاني ،

فهو أيضا « سفر نفيس » •

• كان أستاذا في الجامعة المصرية القديمة أستاذا عظيما أما في

الجامعة المصرية الجديدة فهو استاذ هيوب يستر كسسه الجميل
بالتغاضي عن ضعف الطلاب •

• وأمره في الصداقة أعجب من العجب • فهو يؤاخذك ويصافيك ،

لي أن تظن انه قطعة من قلبك • ثم يتحول في مثل ومضة البرق الى عدو
مين •

على الرغم من ضعفه في الاضطلاع بتكاليف المواهب رجل كذاب

لأنه معسول الحديث ولأنه قد يصدق في الحب وفي البغض ، إلا أنه
تهديه حاسة النفع الى أن يعادى من يصادق ، ويصادق من يعادى ، كالذى
صنع في طوافه بأركان الأحزاب •

• ما سبب الخصومة بينى وبينك ؟

منذ أكثر من سبعة أعوام القيت محاضرة في الجامعة

الأمريكية عن (البحري) وسجلتها جريدة كوكب الشرق وشاء (العفريت

(١) ١٨ من أكتوبر ١٩٣٥ - الصباح •

الفني يسجل رأسي حين أخلو الي فلمي . أن أنشر هي سيرة البلاغ مقالا
عنوانه (الدكتور طه حسين يخط خمس ميراث فقط في محاضرة واحدة)

ثم لقيتني بعد ذلك في الجامعة الامريكية . وجادلتني في تلك
الاغلاط . فأعلنت اني أخطأت . وكان ذلك لأن الجمهور احاط بنا من
كل جانب ليرى كيف أدفع حججك وما كان يجوز لي أن أصنع غير الذي
صنعت . لأن أدبي لا يسمح لي بمسئولتك أمام الناس . لأن وجهك
يشفع لك . فهو وجه لا يلتقاء الرجل بالرجل بغير الاعتزاز والتعجيل .

فما الذي صنعت انت في تصحيح الاغلاط التي أخذتها عليك ؟ مضيت
فنشرت محاضرتك عن البحتري في كتابك (حديث النثر والشعر)
وأبقيت تلك الاغلاط ، استغفر الله ، بل تفضلت فشككت الكلمات المغلوطة
لتقول انك لا تعبا بأي نقد يوجه اليك . فما الذي كان يمنع من تدارك
تلك الاغلاط ؟

وما الذي كان يمنع من شرح رأيك في الهامش إن كنت تؤمن بأني
لم أكن على حق ثم ماذا ؟ ثم حدث في صيف سنة ١٩٢٩ أن انكرت على
أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفني من رسائل عبد الحميد بن يحيى ، وقت
إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امري القيس . وكان
ذلك بمسمع من شاين واعين هما محمد مندور وعلي حافظ .

وكانت حجتك أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه في مؤلفات
الباحظ ، فرجعت اليك بعد أيام ، وأخبرت أن الباحظ تسبكلم عن
عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة وأن مؤلفات الباحظ تعرف برجلين أحدهما
عبد الحميد الأكبر والثاني عبد الحميد الأصغر فلم تجب بحرف واحد ،
ثم أليت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها : إن عبد الحميد بن يحيى
أجد شيئا من أدب اليونان . وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذي آفعتك
بأنه لم يكن شخصية خرافية .

وقد حملني العنصرية الذي يملك رأسي حين أخلو الي قلبي ،
على أن أسجل هذه القضية ، في أحد هوامش كتاب النثر الفني ، فكانت

بفرصة اغتيمها بصديقتك الأستاذة أحمد أمين ، ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة : ان زكى مبارك يعوزه الذوق في بعض الاحيان .

• أنا أعرف ما تكره منى • أنت تكره منى السكبرياء • وكيف أتواضع ، وقد أعانني الله على بناء نفسي ؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصري خلق بعظمة الاعتماد على النفس وهل رأيت رجلاً مثلي ينهض بأوطار الشباب وهو مشخن بجراح الزمان بعد الأربعين • هل رأيت رجلاً قبلى يؤلف الكتب الجديدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ؟

قصة احمد اليك

عاد زكى مبارك الى مناوشة طه حسين بأسلوب جديد ، حاول فيه أن يسجل بداية اتجاه طه حسين الى كتابة التاريخ الاسلامى ، فقال :

فى شهر يوليو ١٩٢٨ تلقيت وأنا فى باريس خطاباً من الأستاذ الدكتور طه حسين جاء فيه عبارة « أحمد الله اليك » فالتفت ذهنى الى هذه العبارة لأنها لم تكن من العبارات المألوفة فى رسائله • وقلت لنفسي : من أين وصل هذا التعبير الى الدكتور طه حسين ، وهو فى هذه الأيام يعيش فى جيرارير • وصح عندى بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولاً بمراجعات كتاب يتصل بالسيرة النبوية لأن عبارة « أحمد الله اليك » تكثر فى الرسائل المأثورة فى عصر النبوة وعصر الخلفاء •

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه « على هامش السيرة » وتفضل فأهدى الى نسخة موهورة بعبارة كريمة من عبارات الاهداء • وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية فى جريدة البلاغ • فرأيت أن أتحدث عنه الى قرائى بعناية تحملهم على اقتناء ذلك الكتاب تحقيقاً للتضامن بين المؤلفين •

• معاذ فلت ؟ فلت : ان الدكتور طه حسين أعظم الإجابة حين يتروى .
في التأليف وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة في زوية فهو مشغول .
بموضوعه . منذ ١٩٢٨ وان لم يقل ذلك ، فقد كتب الى خطابا في شهر يولييه .
من تلك السنة ، يقول فيه : أحمد الله اليك • وقد فهمت من هذه العبارة انه
كان مشغولا بدراسات تتصل بالسيرة النبوية • وكذلك عرفت أن الظن قد
بلغ درجة اليقين وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الإحساس •

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقرير الطريف ؟ • •

مضى يقول : هذا اختراع جديد من اختراعات زكي مبارك
في الأسماء ، والأحاديث • فليس من المعقول أن أكتب اليه خطابا أقول .
فيه : « أحمد الله اليك » وهي ليست من عبارات هذا الجيل •

ولقيني بعد ذلك فجدد استغرابه من العبارة التي نسبتها اليه •
فقلت : أنها حق ، فقال : أنها من المستحيلات •

ومضيت أبحث عن ذلك الخطاب فلم أهد اليه ، لأن الدنيا كانت
اسرفت في اللجاجة واللدد فنقلتني من أحوال الى أحوال • وبعثت
ما كنت أحرص عليه من رسائل الأهل والأصدقاء • وعدت الى مكتبتي
بالقلب والأغلال ، فلم يبق أمل في الوصول الى نص الخطاب المنشود •
ثم أخذت أتحدث في مقالاتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بيني وبين الدكتور
طه حسين • فكان اذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من
نوع « أحمد الله اليك » •

ومنذ أيام مضيت لمقابلة (سعادة) الأستاذ الجليل الدكتور عبد
الرزاق أحمد السنهوري (بك) • وفي يدي نسخة مهداة اليه ، من كتاب
الأسماء والأحاديث • فوجدت الدكتور طه هناك • وسألني السنهوري .
(بك) عن أغراض الكتاب • فقلت فيه (أقوالا) فاه بها الدكتور طه
ولم ينشرها • فنشرتها عنه ، على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط .
واللطف الملحوظ في هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول : لا بد
أن تكون اختراعات من طراز « أحمد الله اليك » •

وسألني المستهوي عن القصة فأجملتها في كلمات قصار ، فرارا من
اللسفون هي جديلة جديدة ، مع الدكتور طه ، فقال: وهو يتسليم : يجب ان
يكون الخطاب صحيحا ، لادمتحدث عنه في البلاغ . فقلت : وان وجدت
ووصل الخطاب . فقال الدكتور طه : ان وجدت فسيكون بخطك . فقلت :
وان كان بخط توفيق شحاتة سكرتيرك . ؟ قال : هذا مستحيل . فقلت :
« وهل عندك مانع من أن تحمد الله الى ؟ »

فقال : أنا أحمد الله في كل وقت ، ولكني لا أذكر أنني حمدته
إليك . ثم انصرفت وقد اطمأن من حضروا هذا الحوار الى أنني أتزيد على
الناس حين آشاء .

آين ذلك الخطاب ، وأين أنا من سنة ١٩٢٨ . وقد شرقت وغربت
وانتقلت من دار الى دار وبشرت أوراقى مئات المرات .

الى يا أوراقى . الى الى . فقد طال عهدك بالحجاب . ورجعت الى
تلك الأوراق ..

هذه أوراقى وأوراقى وأوراقى . هفتة مئات من الرسائل التى تشهد
بأننى كنت على صلات مع أرواح جليذبتها زينا أطلاني المحبة والمقاب .

ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المشود ، وبخط توفيق شحاتة ،
الذى صار من أيام « دكتوراه فى الحقوق من الجامعة المصرية » .

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذى يقول :

« أحمد الله اليك ، على ما أمت فيه من رضا بالاقامة فى باريس ،
وأتمنى لك المزيد من هذا الرضا . كما أتمنى أن تنتفع بأيامك فى فرنسا
الى أبعد حد ممكن . وتقبل من السيدة ومنى تحية خالصة . وشكرا
جميلا . » وتاريخ الخطاب ٢٦ من يولية ١٩٢٨ .

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطبا للدكتور طه كلبه الى من الاسكندرية
وفيه يقول : « صديقى العزيز الدكتور زكى مباله .

أنا مدين لك بشكر كثير . فقد قرأت كتابك وتمسكت بالسفوفين
الذين تفضلت بارسالهما الى . ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك

يعلمه ابن خلدون . وانا مقيع فيمد بيني وبين نفسي بانها لا تستحق هذه العناية . ومع ذلك فسأشتري المقلم منذ اليوم لأفرا ما تكتب ، لأنك انت الذي سيكتبه . لا لأنى انا موضوع . وقل ما ارجو ان تهيب فيما تكتبه عن الحرية الصادرة الفيسية لا عن الآباء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الاحيان الى شيء من الزحف . لا يخلو من اثم . وانا أعيد احيدوا من ان يتورطوا من أجل في اثم الاسراف في البر ، كما أكره ان يتورطوا في اثم العقوق .

وانا ارجو ان تكون بخير مطمئن النفس ، وأن تكتب الى في شيء من الاطالة والبحرية . فان كتبك وأجاديثك تقع من نفسي دائما موقعا حينئذ . وليس لدى الآن ما يشغلني عن قراءة كتبك . فلنا أقضى ما بقي من أيام الراحة في قراءة متفرقة ، لانظام لها ، ولا نفع فيها .
طه حسين

فان قبل ، وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق ، أن نفسه الطلاق بيني وبين الدكتور طه ، فاني أجيب بأن الله حكمة فيما وقع بيني وبين ذلك الصديق ، لم يكن يد من خيصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه الجمهور الى الحقائق الأدبية . وكذلك خلصت عبدا من رجال الأدب كان أظهرهم الدكتور طه حسين . وأنا اليوم في حيلة . أو أنني غفيرة مجارب . وهما حالتان متقاربتان . فمتى أخلق خصومات جديدة أذكرهم نار الأدب من جديد ؟

يا دكتور طه

ان كنت أنكرت أن تحمد الله الى ، فخطبك تحت يدي ، أقدمه اليك حين تشاء . فان لم تحمد الله الى ، فأنا (أحمدك اليك) . وعاد زكى مبارك يكتب مرة أخرى عن طه حسين . ويربط بين عمامته وبين نزعتة اليونانية فقال : صبر الدكتور طه على عمامته بعد قراق الأزهر بأعوام قصاص أو ظلال ، فأدخلك الامتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية في ١٩١٤ وهو معمم وأقلته الباخرة من الاسكندرية الى مارسييا وهو معمم . ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفوا مدهوشين الى شيء يقع في البحر . وقد ألقاه صاحب في عطف قفا كان ذلك الشيء الا عمامة طه حسين .

وقد تحدث الدكتور طه مع اجد الصحفيين بأنه لم يندم على شيء ، لما
ندم على رمي عمامته في عرض المحيط ، ولكن الواقع غير ذلك . الواقع
ان الدكتور طه قد ولد وعلى رأسه «برنيطة» وقد حدثني مرة أنه يرجع
الى أسلافه القدماء من اليونان فان لم يصح ذلك ، فهو في نزعته اليونانية
مدین . لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقي ، واسمها
« ورقة الآس » وفيها تمجيد لليونان (حدثني الدكتور طه بذلك
في أحد الأيام من عام ١٩٢٢ ولهذا وذاك صلة بانتقال الرجل من حال الى احوال
فقد انجذب من أسرة أكثرها مشايخ . ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنية
منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع والبص على هذا الانقلاب واجب
لأنه يفسر ما خفي من أسرار الوحي في اتجاهاته الادبية والاجتماعية
هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه ، لأنه سريع القفز والوثب .
ولأنه على وفاق مع ضميره الفنى والأدبى . فهو يسايره الى حيث يريد وهو
يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد . كان مع الدستوريين وهم يقاتلون
الوفديين . وكان مع الوفديين وهم يقاتلون الأحزاب أجمعين . فاذا انجلت
المعارك السياسية وانقطع الى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة
جامعية . فاذا نقل من الجامعة الى وزارة المعارف كان من المحتم أن يخلق
مشكلة في وزارة المعارف .

فالذى ينظر الى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل
متغير متحول . أما الذى ينظر نظر المدقق فيرى التغير والتحول من صور
الثبات والاستقرار بالنسبة اليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية في حياته
اليومية .

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخل في هيامه بالفروض
والحدوث ، وهو يساور الأبحاث الادبية والتاريخية . فمؤلفاته فى أغلب
أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف على البحث الواحد
عاما أو عامين . والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول
والانتقال بين المعانى والآراء .

زار الدكتور طه باريس ، وأبنا هناك ، فلما مضيت للتسليم عليه .

أدهشنى أن أجده فى غرفة تطل على ميدان الأوبرا ، وهو ميدان
صخاب ضجاج • فقدرت أنه يسره أن يسمع باريس بعد أن فاته أن يرى
باريس •

ويحدثنا أنه حين رجع الى بلده بعد قضاء بضعة أشهر فى الأزهر
أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء • فما سر ذلك ؟ لم يرد فى الواقع
غير خلق دنيا يراها عقله ، وإن لم ترها عيناه • وقد شهد الدكتور طه على
نفسه فى مواطن كثيرة من كتاب الأيام باضطراب العقل ، وأقول ان هذا
الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية (١)

وسجل زكى مبارك خاتمة الخلاف بينه وبين طه حسين ، فقال :

كان قد شاع انى أخاصم الدكتور طه حسين ، فكتبت فى الهجوم
عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سئ عند قراء اللغة العربية ، واطلع
الاستاذ محمود بسيونى على بعض المقالات فانزعج أشد الانزعاج • وسعى
للصلح بينى وبين الدكتور طه حسين ، فى حفل مشهور ، حضره العمدة
وكبار الاساتذة بكلية الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح
المشثوم أو الميمون ؟ ، تلفت الناس متوجعين لضياع فرصة ثمينة ، هى فرصة
الجدل حول المذاهب الأدبية • فهل فيكم من يفضل بالسعاية بينى وبين
الدكتور طه لأرجع الى مصادلته من جديد ؟ • •

كان بينى وبين الدكتور طه ود وثيق • ولكن رعاية ذلك الود لم تنفع
الأدب بشئ ، لأن كل ما يصدر عنه كان يقع فى نفسى موقع القبول • فلما
ثار على ، وغضبت عليه ، أثبت فى مصادلته بالأعاجيب •

وجملة القول فان علاقة زكى مبارك مع طه حسين كانت مخطوطة
بسياج من التقدير • فما ذكر زكى مبارك طه حسين الا أثنى عليه • وما
وقع طه فى أزمة الا كان مبارك أول أنصاره • وعندما مات والد طه حسين ، كتب
زكى مبارك « رأيت الحزن يصير قلبى » حين قرأت أن الدكتور طه فقد

(١) أول ديسمبر سنة ١٩٤١ - الرسالة •

أباه ، ورثه الله عمر أبيه • ومن عليه بالضبط الجميل • أبو الدكتور طه هو
الشيخ حسين علي • وكان رجلا غاية في اللوذعية والأريحية • كان الشافعي
يقول : الحر من راعي وداد لحظة • وقد واددت هذا الرجل لحظتين •
فمن واجبي أن أذرف عليه دمعين • • الرسالة ٢٨ من يولييه ١٩٤١ •

زكي مبارك في معركته مع الاستعمار من جانب واحد

تعد معركة زكي مبارك مع « أحمد أمين » معركته الكبرى الثانية •
وهي معركة قاومت من جانب واحد • نشر من أجلها مبارك في الرسالة ٢٢
مقالا • وقال النقاد انها كانت بايعاز من الزيات بعد انفصال أحمد أمين
وأعضاء لجنة التأليف عن الرسالة • ونحن نرجح هذا • ونذكر أن زكي
مبارك رمى بالسلاح نفسه فانه في الوقت الذي رأى الزيات أن يتخلص منه
هاجمه كتاب آخرون في الرسالة بالأسلوب نفسه •

وفي هذه المقالات حاول زكي مبارك ان يتجه الى الدراسة الموضوعية
وحشا مقالاته بآراء نافعة ، سنحاول في هذا الفصل ، أن نورد خلاصة
لها ، وقد ذكر مبارك أن السبب الانساني لهذه المفاارك عندما كان مدرسا
بكلية الآداب عام ١٩٣٥ ، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من
« ضحى الاسلام » • وقد سرق من الأستاذ ابراهيم مصطفى مسألة
تتصل بتاريخ النخو وسرق مني مسألة تتصل بتاريخ التشريع الاسلامي •
فصاح ابراهيم ان هذا أخى له تسع وتسعون نعيمة • ولى نعيمة واحدة •
فكيف يسرقها مني ، اته لطمايح • وجلست أنا وابراهيم نتشاكى • وهتفت:
سأنتقم لى ولك يا ابراهيم •

بدأت هذه المقالات فى ١٢ من يونيه ١٩٣٩ واستمرت حتى العدد
١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ تحت عنوان « جناية أحمد أمين على الأدب العربى » •
وسجل مبارك أن « أحمد أمين » كان مشدود البصر الى رجل واحد
هو « طه حسين » • وكان يكتب وهو يراه أمامه ، لأنه كان يعرف عدوانه
له ، فيخشى صولته • گنا انتهز الفرصة لهاجم غريته الدكتور طه •

فقال (١) : « ان الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور في جلبة وضوضاء » • وقال في موضوع آخر « ان الدكتور طه هو المسئول عن أحمد أمين الذي قال (ان أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهداه اليها) • ومعنى ذلك أن « أحمد أمين » لم يكن يعرف انه أديب قبل أن يدلّه الدكتور طه على الكثر المدفون في صدره • ان « أحمد أمين » لم يكن أديبا • وانما قال له طه حسين (كن أديبا) فلم يكن • • »

ويرى زكى مبارك أن « أحمد أمين » لا يجيد الا حين يصطحب الروية ، يطيل الطواف بالموضوع الواحد عاما أو عامين « وأنه » باحث كبير بلا جدال • ولكنه ليس بكتّاب ولا أديب • لم يستطع أن ينقل القارئ من ضلال الى هدى • أو من هدى الى ضلال • وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من « التقرير » الذي يخاطب الأذهان ويمعز عن مخاطبة العقول والقلوب • •

ثم يعتذر عن أسلوبه في النقد • ويقسم أنه يهجم على هذا الرجل وهو كاره لما يصنع « فأحمد أمين رجل محترم وقد وصل بكفاحه الى منزلة عالية في الحياة الأدبية • وأنا قد ضيعت جميع اصدقائي بفضل جرائر النقد الأدبي • وكنت أحب أن أداوى ماجرح قلبي لأنجو من الدبائس التي تعترضني في جميع الميادين • •

ويهاجم زكى مبارك طه حسين لأنه تناقض مع نفسه حين قرر أن يدرس أسلوب أحمد أمين في كلية الآداب مسج أنه أعلن في قصر الزعفران (ربيع سنة ١٩٢٧) في مهرجان شوقي ، انه سيجعل خطبته عن الأخطل ، لا عن شوقي ، بحجة أن الجامعة لا تؤرخ للأحياء • •

ويعمل هجومه على أحمد أمين بأنه لم يوجه أية اساءة الى معاصريه ولكنه هاجم التاريخ : « ربما جاز أن يقال انه لم يؤذ أحدا من معاصريه ولكن « أحمد أمين » الذي كشف شره عن الأحياء وجه شره الى التاريخ •

(١) ٢٣ من أكتوبر ١٩٣٩ الرسالة (جناية أحمد أمين مقال ١٩٠)

فهو يدرس ماضى اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق • ولو تركنا • شهرين
اثنين يؤرخ الأدب على هواه لجعل الأمة العربية أضحوكة بين العالم • وقد
كتب زكى مبارك فى الرسالة (سبتمبر ١٩٣٩) يقول :

« نحن أمام فتنة جديدة هى القول بأن الأدب العربى لا يصلح لتربية
الأذواق فى الجيل الجديد • وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين
فقد نبئت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون
والمبشرون أن يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم
لم يبق لها مكان • وأن المصلحة تقضى بأن يوضع الأدب العربى فى المتاحف
أو فى مدرسة غير المتخصصين ، على نحو ما يصنع الاوروبيون فى الآداب
اليونانية واللاتينية • ثم تقبل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها
لغة التخاطب والتأليف ، وبذلك تكون اللغة الفصيحة أما واحدة للغات
الشعوب العربية • وقد صرح بذلك مسيو ماسينون فى خطبة ألقاها فى
بيروت سنة ١٩٣١ ونقدتها يوم ذاك بمقال أرسلته الى جريدة « البلاغ
من باريس » • والحق أن الفتنة التى أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت
فتنة براءة خداعة تزيع الأبصار والعقول • وقد انخدع بها من انخدع فى
الأعوام الماضية • وقامت بذلك مساجلات فوق صفحات الجرائد بين
الدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين •

وهكذا يبدو زكى مبارك فى معارضته لأحمد أمين فى موقف البطولة
حين يدافع عن كرامة الادب العربى وعظمة اللغة العربية • ويقول زكى
مبارك فى هجومه على أحمد أمين وأنه ليس له أسلوب : « قد ينسكون من
الباحثين • ولكنهم لن يكونوا من الكتاب ولا الأدباء ان الرجل لا يكون له
أسلوب الا يوم يصح أن يحس الثورة على مايكره والأنس بما يحب
فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه
بأسلوب خاص » •

ويمضى فى هجومه فيقول « لقد اشتغل أحمد أمين بالقضاء الشرعى
بضع سنين ، فهل قرأتم له مقالا أو قصة تدل على أنه توجع مرة واحدة
لمساس الإنسانية ؟ • • لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحات فهل سمعتم قبل

أن تسمعوا مني انه عاش بالواحات لو كان أحمد أمين أديبا لحدثكم عن تلك
الآلام التي يتحملها المصريون • ولكن أحمد أمين لم يكن أديبا • وإنما
كان موظفا مخلصا لواجب الوظيفة لا يرى ماعداها من الشئون ثم قال له طه
حسين كن اديبا فكان •

ويكشف زكي مبارك عن السر في الخطأ الذي وصل الى أحمد أمين
فيقول :

« وصل اليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين •
فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر شك ومجون ولأن فيه
عصاة مشهورة بالزيغ والفسق وهي جماعة أبي نواس ومطيع ابن اياس •
مع أن العصر الذي عرف أمثال هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ
فيه كبار الفقهاء والنسك والزهاد • وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية
الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق • فهل خطر في بال أحمد
أمين أن العصر العباسي لا يصح الحكم عليه بإيثار المدة واغفال الروح من
أجل كلمة أو كلمات في وصف الاحتيال على الطعام والشراب ؟ »

وهو يعزو أخطاء أحمد أمين الى طه حسين فيقول : ان « أحمد
أمين » يقول ان الادب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه الا كاتب
واحد ، يهتم بتحليل المعاني ، هو ابن خلدون • وأن اعجاب أحمد أمين
بابن خلدون يرجع الى أن الدكتور طه حسين شغل به •

وقال مبارك : ان بعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف
عرض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب ، فلو أن الدكتور طه بقى في مصر ،
لكان من الجائز أن يعلن اعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون •

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول انه لا يعقل أن ينبغ
في الأدب العربي غير كاتب واحد ، في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه
على أقطار آسيوية وإفريقية وأوربية ؟ وان الدكتور طه لو قال هذه الكلمة
— وهي حق — لسرت عدواها الى روح الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثنى
على الأدب العربي بما هو أهله • ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب
العربي ينبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات •

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على
ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور في جلبة
وضوضاء • فكيف ينتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع
رجلا مثلي على مهاجمة رجل يستريح في الفض عن أدب العرب مالا يباح ؟
وقد صور زكي مبارك خصومته مع أحمد أمين فقال :

« منذ أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقاله الأول فيما سماه « جناية
الأدب الجاهلي على الأدب العربي » • فلم يعجبني : لأنني رأيته من الحديث
المعاد • ثم لقيني مصادفة في « المترو » بعد ظهور مقالته الثانية ، فسألني
عما أراه من الأفكار التي أودعها مقالتيه • فقلت له : لم يعجبني غير نقد
الشاهد الذي أوردته من كلام ابن قتيبة • أما سائر أفكارك فتحتاج الى
تحقيق • فقال : أنا دعوت القراء الى مناقشة تلك الأفكار وأنا أرحب بكل
ما يرد الى من تصحيح •

فهل كان يدعوني الى أن أساجله الحديث ؟

كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود
المثانة والصدق • وما كان ينتظر مني غير ما يحب • وكنت والله خليقا بالتجاوز
عن سيئاته • لو لم يسرف في الاساءة الى ماضي اللغة العربية في وقت
يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل
الرفيعة في العلوم والآداب والفنون وأنهم كانوا في ماضيهم من أقطاب
الزمان •

وكذلك وقعت الواقعة • وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي
اعتز بها ذلك الصديق • •

• اهتم الأستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربي كان في
أغلب أحواله أدب معدة • لا أدب روح وحجته في ذلك أن التكسب
بالشعر كان عادة غالبية على أكثر الشعراء • وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ
يعيدها في كل مكان • وهذا الرأي مسروق من كتاب « البدائع » •

• عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب

وإن ينتقلوا بهذه العادة من جيل الى جيل ، فى حين أن الشاعر ربما لا يكون مشوب العاطفة فى كل حين • وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس ١٩٣١ ومنشور فى البدائع •

• اهتم الأستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحية لاحسية فقال ثناء الأستاذ محمود على قراءة ، الذى عد كلامه من المبتكرات فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب التصوف الإسلامى جزء ٢ ص ٨٧ ؟

ثم يقول : ان الفخر بغيض ممقوت ، وقد عابه على الأصدقاء قبل الاعداء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا أشهد أرائى تنهب ، بلا تحرز ولا ترفق ، وبها يرد على خصومى حين يشتجر القتال وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألستهم النواطق ؟

ثم يقول : ••• اما بعد ، فقد انتهيت من محاسبة أحمد أمين بعد أن أركت جفونه خمسة أشهر ، كانت كالف سنة مما تعدون • انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث • أما أحمد أمين الصديق فله فى قلبى أكبر منزل وأرفع مكان ، ولن يرانى الا حيث يحب ، فى حدود المنطق والعقل • فما أرضى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربى ، وماضى الأمة العربية • وسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته فلا يزور عنى وجها ، اذ أراه أهلا للكرامة والحب • وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون (١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ - الرسالة) •

ثم عاد فكتب مرة أخرى ••• لم يبق شك فى أن الأستاذ • أحمد أمين ، غضبان بسبب المقاولات التى تجاوزت العشرين ، وأقول اليوم انى استوحشت مما صنعت • والاعتراف يهدم الإقتراف •

وليس من الكثير أن أرجو عفو • فقد عفا أخ له من قبل • والأستاذ أحمد أمين يعرف أنى رجل ممتحن بعداوات الرجال • وقد عانيت من ذلك مصاعب ، لو صادفت رجلا غيرى لدحرته فى أقصر وقت • فمن حقى عليه وهو صديقى وجارى وزميلي ، وكان فى الجامعة المصرية أن يتجاوز

عن سيئاتي • انه والله المثل الأعلى - غفور رحيم (العدد ٣٣٦ - ١١ من
ديسمبر ١٩٣٩ الرسالة) •

معركة مع السباعي بيومي

هذه معركة من أقسى المعارك التي خاضها زكي مبارك ، ولأول مرة
صادفته الهزيمة • فقد واجهه السباعي بيومي ، بعنف وقوة عارضة ، وأخذ
يكيل له النقود والمعارضات حتى اضطره الى اغلاق باب المناقشة • وكان
زكي مبارك قد استهلها استهلالا عنيفا في الرسالة (يناير سنة ١٩٤١)
فقال : الى الاستاذ السباعي بيومي :

نشرت الرسالة كلمة بامضاء محمد فهمي عبيد ، عن كلام وقع منك ،
وأنت تحاضر بمدرسة دار العلوم ، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد
المرصفي ، بما لا يليق • فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك ، فأنفه في العدد
المقبل • وإن كان وقع منك ، فسارع الى الاعتذار ، ابقاء على ما بيني وبينك
من وداد • فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد
المرصفي بسوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء • والى أن يثبت أن الراوي
افتري عليك أعلق غضبي على ما بدر منك • فقد كنت أظن أنك تعترف
بأن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق • وسنرى كيف
تجيب أن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء • • •

وفي العدد نفسه من الرسالة نشر كلام لطالب من دار العلوم ، يقول
فيه : ان الاستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي الا أنه كان يملكه الغرور •
وعلق زكي مبارك على ذلك بقوله « سيرى صديقنا السباعي أن تهذيب
الكامل لم يكن الا خيانة أدبية • وسيعرف أن التناول على مقام الشيخ
المرصفي لا يذهب بلا عقاب » •

ودارت المساجلة على النحو التالي :

السباعي : ما أحبها الى نفسي خصومة أدبية تقوم على صفحات الرسالة
بينى وبين صديقي الدكتور • فإن في الخصومات الادبية للمتخصصين
مجالا واسعا للبحث والتدقيق •

زلى .مبارك : هذه طلائع غزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع الى وضع • ثم قال انه لن يصفح عنه أو يشتغل محررا متطوعا بمجلة الرسالة ثلاث سنين وسأقهره كما قهرت أخاه من قبل على أن يشتغل محررا متطوعا .بجريدة البلاغ ثلاث سنين • امتلى يخاف .عواقب الجهر بكلمة الحق • وقد قضيت دهرى متجنا بعداوات الرجال ؟ • •

السباعي : قال زلى مبارك ان الأستاذ السباعي له حقوق ، وما كنت أفهم الا ان تلك الحقوق انما هي حقوق الصداقة ، فأنى ما زلت بها فيها وعليها حريصا ولكنك جعلتها يا صديقى • اننى كنت دائما من أنصارك • وليس لمثلى أن ينخدع بخدعة المصبي هذه تفوقها اليه ، فالحقيقة المرة التى أسمعك اياها بعد أن طغيت زمانا ولم ترد ، أنك ماكنت فى يوم زعيما فى الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار • وانما زعامتك نسيج عنكبوت ، حكته من حوله ، وتركت الناس تلهو به وتلعب •

• جعلت عنوان لنمنك الهجوم الأثم على الشيخ سيد المرصفي • وهذا امر نبت عنه ولم تشهده نذيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك • واذا سؤغك تطاولك ان تسميه هجوما فكيف وصفته متسرعاً بالاثم فكتب الأثم بما وصفت •

• انى بهذه الخصومة جد مسرور • لأنى سأعرضك على الجمهور على حقيقتك التى غشيتها ما غشيتها • وتسامح الناس معك فيها ما تسامحوا وسيكون أول كشف لك فيما عملت واقعا على (زهر الآداب) (١) لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت فى (تهذيب الكامل) (٢) - الذى عدته جناية أدبية •

• أنا لم أكن أعرف أن اللغة العربية عنيفة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمتك الثانية • وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد الى اللحد • فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمنى طرائق الباب •

(١) كتاب زهر الآداب الذى حققه الدكتور مبارك •
(٢) كتاب تهذيب الكامل الذى حققه السباعي بيومى عن الكامل

♦ ان نظرية « فن المقامات » - التي ادعاها الدكتور مبارك ، والتي نقول بان بديع الزمان ليس هو مبدعها - وانما كان متأثرا بابن دريد الذي انشأ هذا الفن . هذه النظرية ليست جديدة ، وانما هي مأخوذة من زهير الآداب . وان كل رجال الأدب العربي يعرفونها ، قبل أن يعلن زكي مبارك انه كشفها (وكان زكي مبارك قد ذكر أنه أول من كشف النظرية وأنه سجلها في مقال له بالمقتطف (أبريل سنة ١٩٣٠) وكان من أثر ذلك ان ثارت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي معركة قلمية ، ثم قال مبارك : ان السباعي بيومي سرقها من كتاب النثر الفني ♦

♦ تدعي أن صديقا عزيزا قال لك : ان الاستاذ السباعي كان في أحيان كثيرة يجعل مقالاتك من موضوعات الدرس بدار العلوم ، وذلك من شواهد الاعجاب . ويظهر يا دكتور ان هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له . فهو قد أضلك . وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم ولو حدث ما سميت دار العلوم ♦

♦ تقول انك لن تصفع عني أو أشتغل محررا متطوعا في الرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لي بالتهديد . فما أنا ممن يغيرهم التحرر ، ولا ممن تبعودوا . أخذ أجر على ما يكتبون . لأنني أكتب للكتابة ، لا طمعا في مال . ♦

وبعد أن وصلت المعركة الى هذا الحد . ♦ كتب زكي مبارك مقالا صغيرا في البريد الأدبي للرسالة عنوانه (خصومة لاعداءه) قال فيه « ان بعض كبار المفتشين أراد أن يقف الجدل الذي أثاره في وجه الأستاذ السباعي بيومي وأنا أجيب هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة لكف الشر ، بيني وبين من أبخاسهم بقلمى لا بقلبي . فلم أسمع مثل هذا الصوت يسوم خاصمت رجلا أعزاء لم يكن يسرنى ان يفصم القلم ما بيني وبينهم من عهود . وانصافا لنفسي أقول أنني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم . فأنا قد أخاصم ولكن لا أعادي فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني الى أرباب الضغائن والحقود . وأنا اتهم بالقسوة والعنف بغير حق ، فما كان

بين هبى فى كل ما أثرت من المجادلات الا ايقاظ الروح الأدبى واللغوى
أما ابناء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر بخاطرى • لانى أرجو دائما أن
يكون الهدم فى عنفه من صور البناء •

ولكن مغلطا كتب فى الرسالة يقول ان « زكى مبارك » اجتج بالأفاضل
الذين تدخلوا ، للانسحاب من المعركة التى أثارها • ولكن اذا كان لدى
الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليفتخر غير ملوم من أحد • وأن وساطة
هؤلاء كانت منصبة على « أسلوب الجدل » لاعلى موضوعه • أما الفحص
عن الحقيقة وتداول الأقلام فى الموضوعات الأدبية والعلمية فليس لهم
عليها اعتراض • وقالت الرسالة ان مقال السباعى بيومى وصلها وهياته
للنشر • ولكنها امتنعت بعد أن ألقى أحد المتأخرين بالقلم • •
وعندى أن هذه أول معركة انهزم فيها مبارك • وهى أول معركة
لاقى فيها مناضلا عنيفا •

مع العقاد

وكان لزكى مبارك مع العقاد معارك • ولكنها ليست فى عنف معاركه
مع أحمد أمين وطه حسين • • بل تبدو فيها آثار الترفق •

ولكن زكى مبارك على طريقته يكشف عن رأيه فى شخصية العقاد
فيقول (١) ، ان له شخصيتين مختلفتين بكل الاختلاف • فالعقاد الكاتب
السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت • فهو من أبناء السماء
عند قوم ، وهو من أبناء الأرض عند آخرين •

أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع •
والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا فى حال واحدة • حال
الحكم على من يعاديه من المعاصرين • أما حكمه على المفكرين الذين بعد
عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية العدل والهداد وقد يصل به الرفق الى
المبالغة فى إظهار المحاسن وإخفاء العيوب •

(١) ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ - الرسالة •

وقد شاع وذاع أن العقاد رجل حقود • وهو كذلك ، فالحق من
كبريات الفضائل في بعض الأحيان • والرجولة الحققة تفرض الشجاعة
الحقة • ولا تتم الشجاعة لرجل إلا إذا جاز أن تصل به أحيانا إلى حد
التهور والجنون • وما قيمة القلم إذا لم تحز بسنانه عيون المتعالمين والمتعاقلين
من حين إلى حين • وما حظ الأمة في أن ينخلق جميع أبنائها باللفظ
والظرف •

وانحرف العقاد في كتاباته السياسية والتقديدية يشهد بأنه سليم الشخصية
وللسلامة هنا مدلول خاص هو اكتمال الحيوية والاحساس ، فالعقاد يصادق
بغف • ويعادى بغف • فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين • وأعداؤه
أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين • وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه
إن أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق • أما أعداؤه فهو لهم بلاء
وعناء • وهو يلقاهم في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون •
وهكذا يصل زكى مبارك إلى أن يقول في العقاد كل ما يريد أن يقول
مع حالة ضخمة من التقدير •

ولكن زكى مبارك في سنواته الأخيرة ، وفي إبان أزمته لا يلبث أن
يكشف بعض الحقائق الخافية (٢٨ من يناير سنة ١٩٤٧) - البلاغ •
فيقول :

« زعم الأستاذ العقاد أن سعدا خلع عليه لقب الكاتب الجبار • والعقاد
كاتب بلا جدال • وشاعر من أكابر الشعراء • وله في نفس منزلة عالية »
حفظه الله من جميع الأسواء • ولكن الكاتب الجبار الذي عناء « سعد
باشا » هو عبد القادر حمزة باشا ، كما تشهد بذلك مذكرات محمد كامل
سليم ، سكرتير سعد زغلول • وقد أوضح مبارك ذلك بعنوان (نسجل
التاريخ قبل أن يضع التاريخ) في ذلك الحين ، من كتابة هذا المقال •

هذا • وقد كان الأستاذ محمد كامل سليم ، السكرتير العام ، لمجلس
الوزراء ولهيئة المفاوضات ، خير منصف ، للتاريخ ، وللجميع ، وللقومية
المصرية ، التي لا تشوبها شائبة الحزبية • كما كان وما زال ، أدبيا ،
ذواقة بحثة عف القلم واللسان ، ذا بحوث وكتب قيمة ، وآراء حصيفة ،

ووطنية صادقة ، فأحبه الجميع ، كما كان محبوبا شقيقة المرحوم : حسين
كامل سليم .

زكى مبارك مع سلامة موسى

جرت بين زكى مبارك وسلامة موسى مساجلات • كان فيهما زكى
مبارك لبقا غاية اللباقة • ولم يكن عنيفا • فهو يبدو فيها حريصا على صداقته
مع (سلامة) • غير ان الخلاف كان بينهما واسع الشقة • فسلامة لا يرى
أن هناك قيمة لدراسة الأدب العربى القديم • وزكى مبارك يرى كل مجدة
فى هذه الدراسات ••• لذلك فهو يناقشه على هذا النحو •

كنت بينت لسلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب اليه من الدعوة الى
الاقلال من العناية بالأدب العربى • وكانت حجتي أنه يعنى الأدب الفرعونى
مع أنه أدب موغل فى القدم ••• فكيف يلام رجل مثلى اذا قصر عمره على
درس الأدب العربى ، مع أنه أدب حى ما زال يسيطر على أذواق الناس فى
المشرق والمغرب • وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التى تلقت
الاسلام ونشرته فى العالمين •

وأعود فأقرر أن لدراسة الأدب العربى غايات أخرى غير تلك الغايات
الدينية • وأبدأ فأنقض حجة الاستاذ سلامة موسى اذ يرى أن غاية الادب
هى توجيه الحياة الاجتماعية وأن الأدب الحديث أنفع دائما من الأدب
القديم •

ثم أرد عليه فأقول : الادب كما يكون ضربا من الاصلاح يكون نوعا
من الوصف • وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية • وقد
يصير دستوراً تخضع له الحياة الاجتماعية • فان كنت فى ريب من ذلك
فراجع كتب الادب فى القديم والحديث ، وستراها سجلات دونت فيها
أزمات القلوب والنفوس والعقول • والكتاب الاجتماعيون يعيشون فى عالم
الواقع كما يعيش رجال القوانين • ولذلك نراهم يهتمون بشئون لا يلتفت
اليها أحد من الشعراء • والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعى ، وليس

بأديب • واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم • وكل تأنيق في العبارة يبدو
لعينه وكأنه لغو وإسراف •

والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسا مثل رأس الاستاذ سلامة
موسى •

• • والذي يهمنى أن أقرر أن الأديب لا يشبوه غير المعانى • وهو
من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية ، وهو لا يصنئ
بالمشكلات إلا من الوجهة الانسانية • أما الأوضاع الاجتماعية فيوقفه منها
موقف الوصاف الذى يشرح المحاسن والعيوب •

وهذا لا يمنع أن يكون الأديب من أهل الكفاح وهو حين يكافح
يصبح قوة خطيرة فى الحياة الاجتماعية لأنه يخلق دائما فى الأجواء العالية
ولا يقنع بالقليل •

ولا يجد زكى مبارك أمامه بعد ذلك إلا أن يهاجم سلامة موسى بعنف
• أن اهتمام الاستاذ سلامة موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقات
فئات ، خطفه من موائد الاجانب الذين كتبوا عن الاشتراكية • فليس فيه
أصالة فكرية • أما أعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية فهى الأساس
لزعامه مصر فى الشرق • ان تجنى سلامة موسى على مؤرخى الأدب العربى
بغير حق ، دليل على أنه : جاهل ، وجهول • وجهالة • ومجهال ، الى كل
صيغة من صيغ المبالغة انه يعادى لغة العرب بسبب بساط : وهو أنها
لغة القرآن المجيد •

بين زكى مبارك وشوقي

يصور زكى مبارك فى هذه الكلمة قصة خلافه مع شوقى بشأن مقدمة ديوانه « الشوقيات » .

« (١) كانت الصلة قوية بينى وبين شوقى سنة ١٩٢٥ . وكان قد شرع فى طبع الشوقيات . فشاء لطفه وكرمه أن يدعونى لكتابة المقدمة بعارة ما زلت أذكر نصها بالحرف « سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية » .

وبعد أيام تلتطف فأهدى الى ما طبع من الجزء الأول ، مصححا بخطه لأكتب فى تقديمه ما أريد .

ورجعت الى نفسى ، فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق . وذلك ما يجعل بكاتب مشغول بالنقد الأدبى ، مع شاعر ما زال فى الميدان . وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه : انى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها أمير الشعراء . فانى أخشى أن أقول فيها كلاما بعيدا عن هذه المقدمة ان رأيت فى أشعاره المقبلة ما يوجب الابتعاد . وهو ، بارك الله فى عمره ، لا يكف عن مساورة الشعر والخيال ، فى صباح ، أو مساء .

وفى عصرية اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب ، قابلت الدكتور « طه حسين » ، وأخبرته بما وقع . فغضب أشد الغضب ، وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشریف ؟ لو طلب شوقى منى ما طلب منك وأنا خصمه - لاستجبت بلا تردد . » فشوقى فى رأى أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبى .

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من الشوقيات وبه مقدمة الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) . ونادى المنادى بوجوب الاحتفال بتكريم أمير

(١) الرسالة ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٤١ .

الشعراء ، احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية وبرعاية
سعد زغلول •

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا فى التاسع والعشرين من نيسان
سنة ١٩٢٧ • ويقول الشعراء والمخطباء فى شوقى مايقولون باطناب واسهاب
ويتلفت الدكتور هيكى ، كاتب مقدمة الشوقيات ، فىرى من الواجب
اصدار عدد خاص من السياسة الاسبوعية لتكريم شوقى • ويدعو للاشتراك
فى تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث • ويرى
شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات ،
كان منها مقال • ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة للشوقيات •

كانت السياسة الاسبوعية فى تلك الايام توجه التيار الادبى فى مصر
وفى سائر البلاد العربية • وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل هذه
هذه المجلة يعتبر تزكية أدبية تفوق الوصف • ولكن شوقى لم يرتح كل
الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو
قليلًا من مقام أمير الشعراء • غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة
الاسبوعية • وكان شوقى اذا غضب ، غضب معه ألف مرتزق من ادعياء
الأدب • فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكى ما تسمح بنشره
الورقات المتسمة زورا بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكى
فى السياسة الاسبوعية مقاله المأثور « أخلاق شاعر الأخلاق » • وهو
مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقى ، وتوعده تواعدا ألما • فقد نص
على أن شوقى لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال •

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه فابشسم وقال : كان مصيرك
سيكون أقطع من مصير هيكى ، لو كتبت مقدمة الشوقيات •

• ثم ماذا ؟ ثم ذهب شوقى الحقود • وشوقى الذى قطع ما بينه وبين
كرام الرنجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان وبقي شوقى الشاعر
شوقى الذى رثاه المازنى يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال :

فسد ما بينى وبين شوقى بعد إعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات

فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال ، وانقطع هو أيضا ، فلم يعد يسأل عنى وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره . ودعا إليها أساتذة الجامعة المصرية . ولكنه تجاهل اسمى ، فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصانع .

وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين ، فحرضونى على ايداء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا أن مال شوقى لا ينال بغير الهجاء . وما أنا ومال شوقى أو غير شوقى هل منحنا الله نعمة القلم الصوال ، لنبتز الأموال ؟ ان شوقى الحقود حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور .

شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده أستاذ الاساتذة في ميدان القصيد فمن الواجب أن أحفظ عهده الى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمى أو لسانى .

مع لطفى جمعة

كان بين زكى مبارك ولطفى جمعة معارك ، هاجم كل منهما الآخر أعنف الهجوم . وكان من أهم هذه المساجلات معارضة لطفى جمعة لأرائه فى النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى . وقد رد عليه فى عنف ، وقدم بين يدى رده بهذه الكلمات :

« أما لطفى جمعة فأنا عائد اليه ، وماض فى مقارعتة ، ليعلم انى أصلب عودا من أولئك الرجال الذين استلأنهم فصال فى تقديم وجال . وألف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد طه حسين فى كتابه عن الشعر الجاهلى) وسأريه أن الأدب أصعب مرتقى وأعز منالا من أن يمتلك ناصيته من يقرءونه فى أوقات الفراغ . . . قد تكون التى يحاول أصحابها أن يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدوها عن مدارات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاءون ، . وقد حدث أن دعى مبارك وجمعة الى مناظرة فى كلية الآداب بالجامعة المصرية (مارس سنة ١٩٤٠) موضوعها (انما يزدهر الأدب فى عهود الفوضى الاجتماعية)

وفد خرج زكى مبارك من المناظرة على حد قوله « ما ذكرت هذه المناظرة الا جزعت وتولاني الندم على الاشتراك فى جدال يضيق به صدر الغالب والمغلوب لأنه لم يمض هفوات مزعجات »

ذلك أن « زكى مبارك » حمل لواء الراى الذى يقول بازدهار الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية ، فواجهه الجمهور بالمعرضة .. وعنده أن المناظرة لم تحمل المعنى الفعلى لها .. « وهو ان من يحمل جانباً من الجانبين لا يعنى انه من انصار هذا الراى . وانما الأمر ان يأخذ كل مناظر نصيه من المناظرة ليعرض المتناظران ما ذهبوا اليه على الجمهور ولا يعنى هذا الايمان بلراى » . ولذلك يعجب كيف قبل بالزراية حينما تقدم لهذه المناظرة ... وصور زكى مبارك موقفه من المناظرة فيقول ان اتحاد كلية الآداب اقترح عليه الموضوع ومضى يبحث عن مناظره .. ثم علم أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا المشاغب الأكبر على حد تعبير الدكتور هيكل (وهل من العقل أن يتقدم أحد الاساتذة لمناظرتي ، وقد شاع وذاع أنى أكبر المشاغبين ؟ ..)

« وهى تهمة ظالمة . ولكنها حقت على ، وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ، ولكن بلا نفع ولا عناء » لأن الناس عندنا يؤذيه أن يصححوا رأيهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان .

وأخيرا ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرني . ولكن أى رجل ؟ كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت فى نفسى هى مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفى جمعة . فقد هداه القلب الطيب الى أننى رجل ينهائى الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار (الزملاء) ، ويميل الأستاذ لطفى جمعة على أذنى ، وهو يقول :

أهنتك على أن عرضت سمعتك للأراجيف فى سبيل الحق . ثم ابتسم وانتظر أن يصنع ما صنعت ليظفر بتهنتى . وينهض الخصم الشريف ، فيسلك فى تحقيرى جميع المسالك ، ويدعى أننى فوضوى أثيم . وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائى . ويعلن عجبه من أن يكون لى كتاب باسم (التصوف الاسلامى) فى مجلدين كبيرين ، مع أنى من أنصار

الفوضى الاجتماعية • ويقضى فى تعامله وتجنیه ساعة وبعض ساعة ، وألا
سأهم مطرق ، أكاد أذوب من الخجل والحياء •

وأعود الى نفسى فأندم على تعريض سمعتى لهذا الضيم البغيض •
وأعرف أنى أخطأت فى قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف • وأعاهد
الله على اعتزال الناس الى يوم المات • وما الذى يغرينى بصحبة بنى آدم ،
وليس فيهم غير شجا الحلوق وقذى العيون •

لقد أقمت دارى على حدود الصحراء ، لأنس بالليل ، ولأنسى أننى
موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأنأجى موات البادية حين أشاء •

لطفى جمعة الرجل الفاضل الذى أثبتت عليه فى خطبتى ، يقضى فى
شئى ساعة وبعض ساعة • تلك احدى الأعاجيب ان كان الفكر فى زماننا
من الأعاجيب •

أين أنا من دهرى وزمانى • أمثلى يشتم جهرة فى كلية الآداب ،
وقد حملت على كاهلى أحجار الأساس • هوذلك ، وعلى نفسى أنا الجانى
فقد عرضت سمعتى للجدل الذى يسمونه مناظرات • ويتهى الأستاذ
لطفى جمعة من خطبته ، وقد مزق آرائى كل ممزق • وقد شفى صدره
منى • وقد كانت بينى وبينه تارات وضغائن وحقوق (١) •

(١) من معارك زكى مبارك التى واجهته ولم يشترك فيها هى معركة
سنة ١٩٤٤ قام بها محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة وامتدت من
فبراير الى سبتمبر سنة ١٩٤٤ لم يرد على ما كتب عنه الا بكلمات قصيرة
فى هوامش الرسالة •

الملاك الأذى فى ثقافتنا الحديثة

مبارك مع الزيات

كانت فترة عمل الدكتور مبارك فى الرسالة هى أخصب فترات حياته الادبية • فقد كتب بها مدة طويلة • وقد تولى مبارك الاشراف على مجلة الرسالة أغلب فترة الحرب العالمية الثانية على حد تعبيره اذ يقول : « حين خرجت أول صفارة من صفارات الانذار طار الاستاذ الزيات الى المنصورة ومعه الشيخ محمود زياتى • وبقيت وحدى أشرف على تحرير الرسالة بدون مكافأة لأن هذا العمل كان فى نظرى خدمة وطنية » •

وقد أشار زكى مبارك الى أن قلمه تجلى فى الرسالة الى « أطف حدود التجلى » فقد كان يكتب فى كل عدد ثلاث مقالات ، منها مقال باسمه • ومقال باسم كاتب كبير ، ومقال باسم الأديب المجهول •

ولكن زكى مبارك ترك الرسالة بعد أن وقعت بينه وبين الزيات خلافات متعددة من بينها خلافه بشأن دعوته للصفاء بين الأدباء وبين توفيق الحكيم الذى هاجم الزيات بحجة أنه حاد عن رسالته فى الرسالة : وفى ذلك يقول الزيات موجه خطابه الى توفيق الحكيم •

« يقول (١) انى حدث قليلا عن رسالتى فى الرسالة • وقليلا هنا معناها زكى مبارك • وزكى مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ، ولا حيلة فيه • هو الملاك الأدبى فى ثقافتنا الحديثة أما عنفه وشماسه فهما الصبغ المميز للونه • ولو شئت أن تجرد هذا الملاك المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقى منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وحمار الحكيم •

(١) الرسالة ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٢ •

على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحثت من طول
ما أهابت به وهو في قفازه الستريسي يهسدر في المجال بين الجبال ،
مفضيا بعض الاغضاء عن قواعد الملاكمة .

وزكى مبارك بعد هسدا سليم الصدر ، جريح القلب ، رياضي
الروح ، لا يتحرج أن يطلب الى صديقه في مقال هذا العدد أن ينصره
ظالما أو مظلوما ، في حدود تفسيره الخاص .

وقد رد زكى مبارك على الزيات يعلن مقاطعته للرسالة :

صديقي الزيات : حتى أنت قد خاب أملى فيك . أنا الذي دعنا
الى الصفاء بين الأدباء كما رأيت ، وبذلت في ذلك ما بذلت ، ورددت
الحقوق الى أصحابها . وأديت الواجبات على تمامها ، وأزلت من النفس
أسباب الكدر ، وطهرت القلم من أدران البشر .

.. ليكن اليوم آخر عهدى بك وبالرسالة والأدباء .. لن أكتب
شيئا لك ، ولن أذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر . سأسمت عن
أشخاصهم صمت القبر ، لأنصرف الى الانتاج وحده ، من حيث هو انتاج
ماضيا في اصدار كتبي لقرائي الأوفياء . فلا حلم في صفاء ، ولا أمل
في مودة بين أدباء .

وخلاف آخر وقع بينهما - الزيات وزكى مبارك - فقد اختلفا مرة
مرة بشأن مقال لمبارك عن الرسول .. فلما استدار العام طلب الزيات من
مبارك مقالا لعدد الهجرة وقال له لا تكفر كما كفرت في مقال السنة
الماضية ، .

ويقول مبارك : « سبحان الله » وأنا كفرت في السنة الماضية
يا زيات ، هل تصدق أن من خصومي من يدرك من عظمة الرسول
ما أدرك ؟ ، ان بيني وبين الرسول صلة وثيقة هي البلاء بالدنيا والناس
فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لا يتقدمون
لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذي أعرف وتعرف .

ان من خلق الله من يأكلون الشهد بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم
ان أشرب إكواب الصاب والعلم بسبب القول الصريح ؟ ••

ويسجل زكى مبارك أن الزيات أخرجه من الرسالة بعد أن أتاح
الفرصة للكاتبين محمد أحمد الغمراوي ودريني خشبة في نشر نقدهما
لكتابه « الشر الفنى » والتصوف الاسلامى •

ولكن الزيات مع ذلك كان ينظر الى زكى مبارك نظرة تقدير ••
حيث يقول « ان كنت قرأت ما ألف وكتب فى النقد والمناظرة ، فستظنه
خارجا من معركة بولاقية ، كان فيها شدا الشعور ، ولكم الصدور ، ونطح
الروس ، وتمزيق الملابس •

وان كنت قرأت له التصوف الاسلامى فستخيله ما زال فى
ستريس ، مريدا للشيخ الطماوى الشاذلى • يعكف على الاوراد ،
ويشارك فى الانشاد ، ويحمل الابريق ، وينقر الدف فهو أشعث ، أغبر
ضاو ، من أثر الذكر والصوم والعبادة •

وبالرغم من هذه السخرية به ، فزكى مبارك ، عنده - : « ان أردت
كلمة الحق » مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم فى
الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيهم من المعرفة بالله ، وأحلوا أنفسهم المحل
اللائق بالصراع •

وهو أحد الأدباء الذين لم يقدّمهم الأدبى على الظروف والحظ •
وان كان الحظ قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود : لأنه يعلم
بكبح فلمه ، وتقدم بفضل جهاده ، ثم كانت الظروف التى تساعد
غيره تلج عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة •

ومن أثر ذلك كان هذا الاعلان المستمر عن نفسه وعن عمله وهى
صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق • ولكنها أتت اليه من وراء
الوعى على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه •

ولو استطاع زكى مبارك أن يتعلق الظروف ويصانع السلطان ،
ويحذق شيئا من الحياة لاتقى كثيرا منا جرت عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة

ولكن هذه الأغراض النفسيه ستفنى فيه وفى الناس ، ويبقى ذلك
المجهود العلمى الضخم الذى قدمه الى الادب العربى ، فى شتى مناحيه ،
شاهدا على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة .

زكى مبارك واحمد لطفى السيد

هل تقف مساجلات احمد لطفى السيد مع هذا الكاتب ؟ ما أظن ،
فان « زكى مبارك » لم يترك كتابا دون ان يصوله ويناقشه ويعترض
طريقه بالرأى ، ويعلن موقفه من ادبه وأسلوبه . قال زكى مبارك عنه :
« فأحمد لطفى السيد لا يؤخذ عليه الا عيب واحد هو أنه لم يستهدف لأى
خطر فى سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان . وبذلك خلت آثاره من
اللهب الذى احترق به المبدعون من أقطاب الفكر والبيان » .

ووصف زكى مبارك أسلوب لطفى السيد بأنه : كان بطيء الحركة
الى حد الجمود . وهو خال من البشاشة البيانية . وأنه كاتب متعمل ،
متكلف وهو يجبر كلامه بشاقل وإبطاء ، وأنه كاتب هيوب . والحذر
المأثور عنه هو الذى قضى بأن تمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج .

وقال زكى مبارك « ان خطبة أحمد لطفى السيد هى لفظ مركب
مفيد بالوضع العربى ورد على لطفى السيد حين أشاد بالجامعات الانجليزية
وقال عنه : « انه لم يدخل فى حياته جامعة انجليزية » وأن السر فى دفاعه
عن الانجليز أنهم لا ينظرون بعين العطف الى من تتقوا ثقافة فرنسية ،
فهو يريد أن يشهد العالم على أنه لا يؤمن بغير الثقافة الانجليزية . وانما
يفعل ذلك ، رغبة فى اقناع السادة الانجليز بأنه يصنع فى هواهم ما كان
يصنع عمر بن أبى ربيعة ، اذ يقول :

أحب لحبك من لم يكن صفيا لنفسى ولا صاحبا ،

زكى مبارك والرافعى

• وهاجم مصطفى صادق الرافعى (١) عندما كتب مقالاته « صعاليك الصحافة » فقال :

« نأخذ فى حساب الأستاذ الرافعى ، الذى توهم أن الصحافة أصبحت فى أيدي الصعاليك • مع أنه مدين للصحافة أثقل الدين • ولولا الصحافة لظل قلمه يمشى مشية المقيد فى الوحل ، كما كان منذ سنين •

• • أصدر الرافعى كتابا أسماه « وحى القلم » • وطاف به على الجرائد والمجلات ، وكان ينتظر أن تقوم الدنيا وتقع ولعله كان يرجو أن تنزل الجبال • فلما رأى الدنيا على حالها من الرزاة والسكون ، راح يهدد ويصخب ، ويتعقب ويتلوم ، ويبغى ويستطيل • ولم يحسب للعواقب أى حساب • • • أكان ينتظر هذا الكاتب أن يترك الصحفيون ما يشغلهم من شئون المجتمع ، السياسية والاقتصادية ، ليفرغوا لكتابته • فلا يكون لهم حديث سواه • • • ؟

• • ما رأيك اذا وقف لك أحد الصحفيين فى معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الانشاء والتأليف ؟ • وما رأيك اذا جازاك أحد الصحفيين ظلما بظلم • وقال انك تعيش فى غير زمانك • وأن أسلوبك ليس الا صورة من العوج والالتواء ؟ •

مبارك وأحمد زكى (باشا)

• وهاجم أحمد زكى (باشا) شيخ العروبة • فقال :

« كنا نظن أن الادب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة أدب جديد رفه به أيام الشيخوخة • ولكن يظهر أن هذا الأدب صفة من صفاته لعهد الطفولة • • • فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه

(١) المصرى ١٩٣٧ •

فى المدرسة الثانوية (التجهيزية) « ما عندكش مراية ؟ » • وكان فى
مقدورى أن أعامله بمثل ما عامله به الأستاذ الكبير ، المرحوم محمد
مسعود ، مدير المطبوعات ، سابقا • ولكنى رفقت به لشيخوخته ، وقدرت
له ماضيه فى خدمة اللغة العربية • والله يشهد أنى عصيت جميع
الناصحين ، فما رآنى أديب ألا حذرنى عواقب ملايته • وقد دعانى
الى مهاجمته ناس كرام يعرفون طباعه فآثرت الرفق ، رعاية للواجب ،
واحتراما لماضى (خم النوم) حرسه الله (١) •

وكان موضوع الخلاف « بردة البوصيرى »

مبارك والبشرى

• والمرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » رجل صخاب ضجاج
يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد • هل سمعتم بالرحى
التي تطحن بها القروية ، هو البشرى فى بعض ثره القعقاع • اذ يندر
أن تجد فى ثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف ••

وهو كاتب يذكر فى كل سطر بأنه أديب يتصيد الاوابد من
مجاهيل (القاموس) واللسان والاساس ••

مبارك والمازنى والعقاد والبشرى

• « والمازنى من كبار الشعراء • ولكنه مشغول بالكتابة فى جميع
الأوقات ، لجميع الأحزاب • ولم يجد الفرصة للغناء • وقد جنى المازنى
على نفسه بالكتابة اليومية • فلم يعرف قيمة الصبر فى الانحياز الى احدى
الجهات ، فى زمن لا يعيش فيه المفكرون الا بأسسنة من العصيات
السياسية والاجتماعية •• ولكنه يذكر المازنى فى مكان آخر (٢)

(١) ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٢ - البلاغ •

(٢) الرسالة ٢٦ من يولية ١٩٤٣ •

فيقول : « أنا لا أبالي بنقد الدكتور طه حسين لأنني نقدته في بحثه ، مقالة مقالة » فمن السهل ان يقول الناس انه ينتقد وفي نفسه اشياء وأنا لا أبالي نقد الأستاذ العقاد ايدي لان بيننا اعتقادا تنشر في حين ، وتطوى في بعض الأحيان وكأن العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويل جدا وان العقاد قصير جدا فشاء برك بصديقك ان تزعم ، أنك القصير ، وانه الطويل • وما زلت تبدي وتعيد ، حتى آمن الناس بقولك ، وظنوا أنك قزم ، وأن العقاد عملاق • •

ولكن هل كان هذا النقد الا شرا يضيفه زكي مبارك الى ما في حياته من احساس بالتجاهل والتكران ؟! •••

لقد أغضب كل الناس ، ولم يترك في قلب واحد من هؤلاء ، لمحة من لمحات الرضا أو الود •••

بل ان اندفاعه في النقد كاد يخلق معركة حقيقية • فقد دفعه اندفاعه الى أن يهاجم الشيخ « سليم البشري » شيخ الأزهر ، ووالد عبد العزيز البشري ، ويقول ان شرح نهج البردة ، المنسوب اليه ، كتبه ابنه الشيخ عبد العزيز البشري • وان الشيخ الكبير ، رحمه الله ، راجعه وحرر فيه بعض الأبواب ، فظن عبد العزيز وأخوته ، أن هذا الكلام فيه معنى اتهام والدهم بالتزوير •

ولقد رسم زكي مبارك صورة لهذه المسألة في كتابه « الأسـمار والأحاديث » صفحة ٣١٨ تحت عنوان « الاستهداف للقتل في سبيل النقد الأدبي » حتى ان عبد العزيز البشري اتصل به تليفونيا ، وقال ان اخوته غاضبون لأبيهم ، وأنهم مستعدون لان يدبروا (أشياء شنيعة جدا) وأنهم قد يفكرون في قتل زكي مبارك على باب داره •

وقد رد مبارك عليه بقوله « انتي لا أخافك ولا أخاف أخوتك ، ولو شئت ، لسقت في حركم ألف نبوت من سنتريس • • »

وموقف آخر ، عرض زكي مبارك للمتاعب ، يوم كتب مقالا في « مجلة الفيوم » تحت عنوان (يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطية)

وظن أهل الفيوم انه انما يعنى المرأة ... فحملت عليه صحيفة أخرى حملات واسعة ، وهاجمته هجوما عنيفا . وهكذا يبدو فلم زكى مبارك كما يقول دائما « امضى من السيف ، وأعنف من القضاء » ولزكى مبارك عبارات فى النقد . جد غريبة ، وجد عنيفة . فهو يقول : « سترى سيف أرجع اليك رجعة السيل فن عندى كلمة قاسية لا يجرؤ على تنبيهها رجل غبرى ... عندى صواعق سأصحبها فوق رأسه ان حدثته نفسه بمصاولتى ... أنا لا أخف الجهر بكلمة الحق ... الحق الذى يعرفه الجميع اننى رجل مشاغب ... ما أنكره أننى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب أعدائى ، ولا عيب فى ذلك ، فالجروح قصاص ... اننى غمرت فى أكثر من ألف معركة أدبية ثم انتصرت فيها جميعا . فليس فى مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول فى السر والعلن انه انتصر على زكى مبارك ، وقد اشترك مبارك فى معارك متعددة غير التى رسمنا صوراً موجزة لها مع أحمد زكى (باشا) (نشرت فى باب شيث بن عربانوس) . ويوسف الدجوى ، وحسن القاياتى ، ومحمد عبد المطلب ، الشاعر الخضر ، عليه رحمة الله ، ومحمد مسعود ، مدير المطبوعات سابقا ، وعبد الله عفيفى ، الشاعر .

المعلم الذى أثار المتاعب

بدأ زكى مبارك حياته معلما . وظل يعلم فى هذا الحقل ، حتى وصل الى منصب مدرس فى كلية الآداب . وعمل أستاذا فى دار المعلمين العالية فى بغداد . ثم عمل مفتشا للتعليم فى وزارة المعارف . وكان مختصا بالتفتيش على المدارس الاجنبية . وكان من قبل رئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية . وقد جمع بين العمل فى الأدب - والصحافة والتعليم .

ولكنه كان فى كل لحظة لا ينسى أنه واحد من المفكرين الذين يحملون القلم والذين يستطيعون عن طريقه أن يسددوا الضربات ... وكان يهدد دائما بأنه يستطيع أن يفضح خصومه على صفحات البلاغ ...

ولذلك كانت له خصومات ، مع وزراء المعارف ، أمثال السنهورى
واسماعيل القبانى ، ومحمود فهمى النقراشى ... وقد نقله السنهورى
الى دار الكتب ، فكتب فى البلاغ يقول :

« لن أطيع أمرك ، الا يوم يقوم الدليل على أنك وزير ، فقد
أسلمت أمور الوزارة الى (قبانى بلا ميزان) - يقصد (اسماعيل
القبانى) الذى صار وزيرا للمعارف فى مستهل عهد حكومة الثورة .
« وأراد الوزير - وهذه عبارة مبارك - أن يقيم الدليل على أنه وزير
بالفعل ، فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتي » .

وفى هذه الفترة الحرجة من حياته قاضاه بنك مصر ، لدين عليه ،
وشركة مصر الجديدة ، وكان قد اشترى منها منزلا ... وامتنعت
وزارة المعارف عن دفع ايجار مدرسته بستريس المقامة فى منزله ..

وكان الغرض هو تجويع الرجل الذى عرف كرامة الموظف .
ودعاء محمد حسن العشماوى (باشا) حينما عاد وزيرا للمعارف الى
العودة : فقال له « لن ندخلها ماداموا فيها » .

ولاقى مزيدا من المتاعب ، حينما نقد خطبة العرش فى افتتاحية
الرسالة وحقق معه وطلب اليه أن يعتذر على صفحات الرسالة . فقال :
« لا أعتذر عن مقال ، كتبه ، وأنا أعتقد أنه حق » . فألغى عقده مع وزارة
المعارف . وقال له الزيات : يعز على يا دكتور أن تخرج من عملك بوزارة
المعارف ، بسبب مقال فى الرسالة ، وأرجو أن تقابل العقاد ، صديق
النقراشى ، وقال العقاد ان النقراشى لن يستطيع اخراج زكى مبارك من
التفتيش خوفا من السنة الجرائد الوفدية ، ولكنه سيتعقبه بالتفتيش لعله
يجد تقصيرا يقضى بفسخ العقد .

وفى تلك السنة زرعت فضاء الله من الشمال الى الجنوب .
وفتشت جميع المدارس الاجنبية . وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل .

وجاء النقراشى وزيرا للمعارف ، وأمر السنهورى بمتابعة زكى
مبارك ، فأخرجاه من الوزارة .

وهاجم زكى مبارك المرحوم « على الجارم » • فقال : « انه كان كبير المفتشين عندما صدر قرار تعيينه مفتشا بالمدارس الاجنبية (سنة ١٩٣٧) • وكان يضيق صدره من الشعراء ... وقد نشر شاعر قصيدة بامضاء (الجارم الصغير) • فأمر بنقله الى مكان محقق • وقد مدح المرحوم على الجارم جميع الوزراء • وفي الخرطوم ألقى قصيدة طنانة في مدح الانجليز • وفل « انه يقتابنى في كل مكان » ثم يلقانى بالترحيب حين يرانى »

وهاجم النقراشى • فقال : « كان النقراشى رئيسا للوزارة في آخر ديسمبر سنة ١٩٤٦ • والاقدار تخطىء أحيانا ، فيصير مثل هذا الشخص رئيسا للوزراء ، وقد ثار طلبة الجامعة ، فأصدر أمرا بأن يضربهم الجنود بالرصاص ، وكانت معركة حامية ، بين الطلبة والجنود ، فوق كوبرى عباس ، بالجيزة • »

ويقول زكى مبارك انه عمل فى دار الكتب فى ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغاني • ثم دعاه الدكتور طه حسين لتدريس اللغة العربية فى كلية الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهورى أخرجه وزارة المعارف ، لأنه « موظف بعقد » ، ورأى السنهورى أنه ما زال يتتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربى بالمعهد العالى لفن التمثيل ، فكتب السنهورى بخطه كتابا يقول فيه : ان التدريس بالمعهد العالى مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فأنت معزول • يقول زكى : « خرجت والدمع ينفجر من قلبى ، قبل أن يتفجر من عيني » • وأعاد المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرا للمعارف الى دار الكتب ، ثم أعاده طه حسين الى التفتيش فى وزارة المعارف •

ورجع الى التفتيش عام ١٩٥٠ فى الدرجة الثالثة ، كما كان يوم عينه المرحوم على زكى العرابى (باشا) عام ١٩٣٧ وكان اذ ذاك فى حدود الستين •

ولعل هذا هو الذى كان يدفع المرادة الى قلم مبارك • فقد كان يرجو أن يتحسن وضعه المادى بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة (التصوف)

التي نالها من الجامعة المصرية فقالوا له : لا يمكن أن تحصل على الترقية الا بعد طبع الرسالة • وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطبة • • فكيف يطبعها وهو فقير الجيب • يقول في التعليق على ذلك : « حالي في مصر حال عجيب • فقد عشت دهري مظلوما وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود • • »

« هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتب مؤقت إلى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ »

« هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب المؤقت ، لثلاث شمت أعدائي ، ولثلاث يعرف الناس أن رجال الادب في مصر ، قد يعيشون عيش الفقة والاملاق ؟ • • »

« هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف في مصر قدرت لي مرتبا لا يكفي أن يكون مصروف جيب • ولئن ؟ لرجل متهم بالغنى ، ولا يصبح ولا يمسى الا وهو مطوق بأغلال من التكاليف • • »

ويصور زكي مبارك عمله في دار المعلمين العالية في بغداد • فيقول : « خلعت عليهم - أي الطلاب - كل ما أملك من المعارف الادبية والفلسفية ، وعودتهم عادات حسنة ، هي الاعتماد على النفس • واقتحام أخطر الموضوعات ، ومواجهة أصعب المضكلات • وكنت أدعوهم الى احراجي بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية »

ويغمز زكي مبارك ويستطيل بأيامه « في صحبة كلية الآداب التي أمضيت فيها مواسم شبابي ، يوم كنت فتى عارم العزيمة ، يؤذيه أن يقال ان في الدنيا كتابا لم يطلع عليه • ويوم كنت مغمور القلب بأرواج الأمانى ، ويوم كنت أتوهم ان الجد في طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الاعزاز والتبجيل ، ويوم كنت أخال أن الكفاح في سبيل الأدب قد تنصب له الموازين • كنت طالبا ومدرسا بها من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٧ ، ودرت معها من ميدان الاسماعيلية الى ميدان الفلكي • ومن حي المنيرة

الى قصر الزعفران ، ثم الى حديقة الأورمان ، ولم يزاحم هواها في فؤادي
غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس . . .

ولعل هذا كله هو الذي جعل « زكى مبارك » ينوح صارخا من
الظلم ويردد آهاته في كل آن . فقد كان يحس في كل لحظة أنه لم
يأخذ مكانه اللائق به بعد ثلاث اجازات (للدكتوراه) وأربعين كتابا
قيدت « صحبته المكتوبة وأثاته المكبوتة »

أَيَّامُ الْأَخِيرَةِ

لماذا تحطم زكى مبارك ؟

كان لابد لهذا الجهاد الضخم العصبى العاطفى المندفع - كما يطلق
عليه زكى مبارك - ان ينفجر أو يتحطم . . فان هذا الرجل الذى كان
يتحدث عن « العافية » ويقول انه لم ير الطيب يوما ، ولم يرقد في
فراشه ، ولم يعرف المرض ، والذى كان ينتج في خصوصية عجيبة ،
ويصاول في عناد عنيف ، ويسافر الى أوربا بلا زاد ، وله أسرة وأولاد ،
ويحصل على ثلاث اجازات دكتوراه ، ويكتب خمسة آلاف صفحة في عام
واحد ، في بغداد ، ويؤلف أربعين كتابا في عشر سنوات ، ثم يجد نفسه
مازال موظفا بعقد في وزارة المعارف لا يأخذ مكانه الحق ، في الجامعة
أو في مناصب الثقافة . . . ويجسد الهجوم يواجهه من كل ناحية ،
والخصومات تدفع الأحقاد الى النيل منه ، ومناقشاته الأدبية ومساجلاته
تتحول الى عداوات وتملاً الصدور بالكراهية له ، فاذا به يبعد عن كلية
الآداب ، بعد أن يصل اليها . ويفصل من وزارة المعارف ، بعد أن يلحق
بها . واذا به ينعى زمنه وحظه ، ويتحول الى اعصار يدور حول نفسه
ويتحدث عن آثاره وانتاجه ، ويزدهى بهما ويفاخر . ثم اذا به يصل
الى المرحلة العنيفة حين يحاول أن ينتج شيئا مثيرا ، فيتكلم عن الحب ،
ويحاول أن يكشف النفس الانسانية في جرأة ، ويهاجم المرأة ، ويشير
الضجيج . فاذا لم يجد من ذلك كله ما يحقق له آماله فانه يجنح الى الخمر

والخمر أم الكبائر ، واذا به يسرف فيها ، واذا به يتعد عن المجتمع ،
واذا به يمضى أعواما مظلمة حزينة كثية ، لا يقرأ فيها كتابا ، ولا ينشئ
بحثا . واذا بالمساجلات ، يريدتها ، فلا يستطيع الدخول فيها . والكتاب
ينقدون كتابيه الغالين « النثر الفنى » والتصوف الاسلامى « فذا هو غير
قادر على أن يرد على المهاجمين واذا به يهتم بالالحاد والكفر . واذا
هو عاجز عن مواجهة ما يكتبون .

واذا به يعود الى « البلاغ » ليكتب فصولا ضعيفة الاسلوب ، ليس
فيها بيان زكى مبارك الرائع ، ولا فكاهته الحلوة ، ولا سخريته ، ولا
قوته ، وعرامته ، وصرامته وانما هى ذكريات تتل على ذهنه من وراء
الوعى ، فيكتبها فى أسلوب ساذج ، وعبارات مفككة ، ويعاود عبارته
التي تقول « نكتب التاريخ قبل أن يضع التاريخ » وما تزال الخمر تقصيه
من ميدان البحث والفكر ، حتى يوشك ان ينتهى ، ككاتب ، ثم كإنسان . .
وهذه نهاية طبيعية ، فان هذا الجهاز الضخم العصبى العاطفى
المندفع ، لابد له أن ينفجر أو يتحطم . وقد اختار أن يذوى ويذبل وراء
ذلك الشيء الذى يخدر ويذهب العقل لينسى هذه الآلام والمتاعب .

ولقد ذكر بعض النقاد أن المرأة لها أثرها فى تطوره وانحداره
وفى أزمته ، فلقد كان يحب المرأة فى صورة لم تسو بشرا . وكان يحلم
بالحب الكبير الذى صورته بعض القصص العالمية الخالدة . ولقد افتقد
ذلك فى الواقع . فكان قادرا أن يصوره على لسانه كقصة ، يعيشها
ويرضى نفسه بأنه عاشها ولو بالخيال . . ولذا بدأ عليه التناقض . فهو
حين يدعو الى الحب والجمال ، ويسرف فى تصوير المرأة بصورة الملائكة
يحمل عليها حملاته العنيفة ، فيذكرها بأقسى ما يمكن أن تذكر به .
ولا شك أن « زكى مبارك » الفلاح الذى عرف الصوفية والدين فى أول
حياته ، والأزهر فى شبابه ، والذى سافر الى أوربا وعاش مع الفرنسيين
فى عاصمتهم ، ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ، ما رأى ، وهو
الرجل الذى زوجوه فى أول شبابه ، حين خافوا عليه أوهام العاطفة
فأقام حياته ، وأنجب أبناءه ، قبل أن يذهب الى باريس ، وهو الرجل

الذى كان يفخر بزواجه الفلاحة التى حفظت عرضه مصونا ، وقلبه
سليما ***

كان لابد أن تأتى اللحظات التى يحس فيها بحاجة الى عاطفة
كبيرة تعوض احساسه بالنقص فى أوضاعه المادية والاجتماعية ، فالدكتور
« مضروب فى ثلاثة » يعمل فى وزارة المعارف ، مفتشا للمدارس الأجنبية
أو مراجعا فى دار الكتب و (زملاؤه) يشغلون أرقى المناصب ، فى
وزارة المعارف ، والجامعة ، لأنه لم يكن متصلا بحزب من الأحزاب •
أو ليس له فى الحكومة عم ولا خال ***

والحياة السياسية - اذ ذاك - كانت كذلك لاتعطى الا للأتباع الذين
يسبحون بحمد هذا الزعيم أو ذاك •

أما زكى مبارك الذى عرف الحزب الوطنى فى شبابه ، ورأس
تحرير جريدة « الأفكار » وعمل مع الصوفانى ، والذى سجن عاما كاملا
ابان ثورة سنة ١٩١٩ فقد عز عليه أن يكون ذيلا لحزب من الأحزاب ،
ولذلك تخلف ••

وكان كلما ارتفعت به السن ، وازداد درجات من الدكتوراه ،
أحس بالندم على ما ضيع من وقت فى البحث والدرس ، فان دكتوراه
باريس لم تمده بما كان يطمح ، فظن أن « دكتوراه » أخرى من الجامعة
المصرية ربما تعطيه حقه ، ولكن دون جدوى •

هنالك أحس بالظلم ، وندم على أنه ترك صحبة الفأس والمحراث ،
وقال : انه لو اتجر بالتراب لكان أغنى الأغنياء • وفى ابان أزمته هذه -
وهو المرهف الحس - يرى أنداده ، ومن هم أقل منه ، يصلون الى أعظم
المناصب ، بفضل الحزبية والنفاق ••• بدت حياته ، وفيها فراغ ، وفى
نفسه أزمة ، ولم تفده صرخاته ، ولم يكشف ما فى صدره من نوازع
ولهب •• وهو العاطفى بطبعه ، الذى لم يجنح الى العقل ••

هنالك كان لا بد أن يفرج أزمته ، بحل من الحلول ، ولذلك
كانت الخمر مغيبة عنه احساسه ساعة أو ليلة • ثم أسرف فيها •••

ومضي يحس في لحظات ، صحوه ، بالنقص في حياته الاجتماعية ، من حيث المنصب ، ومن حيث العاطفة •

تلك هي الصورة التحليلية التي أستطيع أن أجدها فيما فرأت لزكى مبارك في خلال هذه الفترة الأخيرة من حياته • ولهذا الاجمال تفصيل •

في خلال هذه الفترة كانت مقالات زكى مبارك في البلاغ ، بعد أن ودع الرسالة عام ١٩٤٦ الى أن توفي عام ١٩٥١ ، تمثل نفسيته المضطربة • وتصور هذه المرحلة ايضا المقدمة التي قدم بها لديوانه « الحان الخلود » وروى فيها قصة حياته ومصاوماته وخصوماته •

يقول مثلا :

« العالم الأول في ستريس جده الشيخ دعاس مبارك • وكان من أكابر العلماء ، واقتفى أثره رجل فاضل ، هو الشيخ محمد غريب • ولكن اللجنة أسقطته في امتحان العالمية مرتين •

ويقول : « أما دكتور ستريس فالجواب حاضر : وهو أنني بالقول والفعل كبير ستريس ، واملاكى في بلادى لا يجتازها أحد الا بعد عبور نهرين ، وبعد أن تحفى قدام من الشروق الى الغروب »

ويقول : « لقد عرف أبو شادى (صاحب أبولو) كيف يهاجر الى أمريكا فله معاش ضخم • وقد باع المناحل فى الاسكندرية بأربعة آلاف جنيه وأنا عاجز عن الهجرة لأسباب كثيرة أهمها فراق وطنى »

ويقول : الأرق يلازمنى فى الاسكندرية بدون ترفق • فمن لحظة الى لحظة أصحو وأوقد النور لأكتب للبلاغ أو أدون ملاحظاتي على المدرسين • أو لأقرأ كتباً فرنسية حتى أشبع • ثم أصحو مع العصافير ، لأؤدى الواجب الذى اكل منه لقمة العيش • ماذا أصنع ؟ ••

أنا رجل فقير يريد أن يعيش ، وقد سعت الى الوظيفة ، لأعيش ولولا هذه الوظيفة لما كان من الممكن أن أرى خزان أسوان »

ويقول : « بآى حق يكون الأستاذ الزيات عضوا فى المجمع اللغوى
ولا أكون أنا عضوا فى المجمع اللغوى • اثنان وأربعون كتابا ، منهما
اثنان باللغة الفرنسية ، وليسانس ودبلوم ، وثلاث « دكتوراهات » ومع ذلك
يقال اننى أدعى ما ليس من حقى ، شىء يغيظ • »

ويقول : كتبت مرة فى البلاغ أن المجمع اللغوى فقد هيبته حين خلا
منه اسم زكى مبارك واسم خليل مطران • واليوم أقول اننى زاهد فى
عضوية المجمع اللغوى ، لأن هذه المنزلة ستجعلنى (زميلا) لحضرة
الأستاذ محمد فريد ابى حديد •

لقد قضى محمد فريد أبو حديد خمسين دقيقة ، فى كلام لا ينفع
ولا يفيد ، فأضحكنى وأضحك أستاذنا « أحمد لطفى السيد » وأستاذنا
طه حسين • أما أحمد أمين فقد عرف كيف ينتفع بالوقت ، فقد أمضاه
فى النقاس • أما الدكتور منصور فهمى فقد اكتفى بالتأؤب الموصول •

ويقول : « يقول المؤذن فى مسجد سيدى جابر « الصلاة خير من
النوم » فأبتسم لأنى قضيت الليل سهران أعد النجوم • وقد عدت النجوم
فرأيتها مماثلة لشعر الجياد من الخيل • وللناس عقول بعدد شعر رؤسهم
وأنا أيضا لى عقول بعدد شعر رأسى •

والعقول فى لغة الصعايدة والشراقوة (عجول) •

ما الذى يوجب أن تشغلنى الذكريات ، فأذكر أيامى فى مصر
وفرنسا والعراق • هذا توجيه الاشواق الى الأحباب • والمغنى المصرى
يقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقه من فوق ساقه وحبالها مرجان

ويقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقه من فوق ساقه وحبالها مرجان
ويقول : « ان راتبى فى وزارة المعارف ضئيل • وأنا أكمله بالمكافأة
التي آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس

يديه فى الحبر الأسود • ثم انى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب
فرنسية وعربية • فما الذى يبقى لأنفقه على نفسى وعلى أبنائى ؟ »

ويقول : « حقيقة لم ألتفت اليها من قبل • هى عودة ذاكرتى • فقد
قضيت ثلاثة أيام بلياليها ، بدون نوم فأعدت على نفسى أكثر أجزاء
القرآن الشريف ، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك وثلاثة أخماس أشعار
لافونتين ولا مرتين ، وهوجو ، ودى موسيه » •

ويقول : « أنا فى حرب مع زمنى • ولكنى سأنتصر لأن الله معى •
لا موجب للخوف من الغد • فقد يكون فيه جزاء لا يخطر فى بالك •
إذا غامت السماء اليوم ، فستصفو غدا » •

ويقول : « ان بنى آدم خائنون • تؤلف خمسة وأربعين كتابا ،
منها اثنان باللغة الفرنسية ، وتنشر ألف مقالة فى البلاغ ، وتصير دكاترة
ومع هذا تبقى مفتشا بوزارة المعارف »

كما يقول : « يظهر أننى أجنبى • فان عيونى خضراء ، والعيون
المصرية سوداء • يجب أن ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف ، لأنه سخيف
فالعقل أتعبنا فى هذه البلاد » •

ويقول : « سأكتب الى البلاغ حديثا أجمل من الورد فى النجر ،
وأشهى من علم الفقير بأن فى جيئه خمسة قروش أو خمسة ملاليم • نكتب
للبلّاغ بمداد من دمع العيون »

ويقول : أنا حزنت كثيرا حتى صار شعرى أشد بياضا من الصباح
ويقول : فى هذا اليوم سأدفع حسابى الى بنك مصر • وفى الغد أسافر
الى الاسكندرية مع سعدية لتغنى معا فى محطة الرمل ••

ويقول : أنا ماض الى تفتيش مدارس الاسكندرية • وسأنتهز
الفرصة فأغرق فى البحر آلامى • والمنتظر أن يوحى الى البحر بقصيدة
جديدة • أنا أمضى الى القطار مبكرا لأجد مكانا مريحا بين ركاب ، أختار
وجوههم ، وأعرف قيام القطار ، بالمزادة على « البلاغ » •

وفى الاسكندرية أواجه البحر عند غروب الشمس ، وهى تستحم
عند الغروب ، وتظل سابحة الى الشروق ، وهى الجمرة التى تظل تحترق
وهى تغرق •

من الأغنى القديمة : يا بنات اسكندرية مشيكم ع البحر غية
وسأشمت (بزملائى) فى البلاغ ، وأنا منهم مغتاظ • (فعل شمت لا يوجد
فى اللغة الفرنسية) سأتركهم لنيران الظهيرة فى المطبعة بين تحرير
وترجمة وتخير والتخير هو استقاء الخبر ، وهى كلمة لا يعرفها
أعضاء المجمع اللغوى •

ويقول : ماذا أصنع ؟ يقال : اننى أتحدث عن نفسى كثيرا ، وجوابى
هو قول ابن الرومى :

وعزیز على مدحی لنفسی غیر أنى جشمتہ للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر ، يريد يظهر جاله
لابن الرومى شارع باسمه بالقرب من محطة الرمل ، فهل هو ابن
الرومى الشاعر ؟ يجوز أن يكون أحد اليونان سمع باسمه فسمى الشارع
باسمه •••

إذا نزلت فى محطة سيدى جابر ، وجدت شارعاً باسم عمر الخيام ،
والسبب يرجع الى أن أحد أعضاء البلدية تأثر بالشاعر • وفى الاسكندرية
شارع باسم حفنى (بك) ناصف •

وفى مقدمة ديوان « ألحان الخلود » (١) عبارات من هذا النوع أيضا
هى أشبه بتداعى المعانى والذكريات •

• لم تكن الحياة هينة فى العامين الماضيين ، فقد خرجت من عملى
فى وزارة المعارف ، بعد معركة عنيفة بينى وبين السهورى ، فقد شويت
وجهه على صفحات البلاغ ، وجعلته أضحوكة يتندر بها الناس فى الأندية
والمجالس والقهوات •

♦ لى أبناء والحمد لله • ولكن أبنائى من روحى اعز على من أبنائى من
بدنى : انها اشعاري ومؤلفاتي • إذن يجب أن أنفق على أبنائى من روحى
بعدها انفقت على أبنائى من بدنى •

♦ جاوزت الخامسة والخمسين ، ولم أشعر بمرض يلزمنى السرير
نبلة واحدة وتاذت عيناى من كثرة المطالعة فى المؤلفات العربية والفرنسية ،
ومع ذلك نجحت فى امتحان القومسيون سنة ١٩٣٧ ، حين عينت مفتشاً
بوزارة المعارف • وكانت سننى تزيد على السابعة والأربعين •

♦ كان الدكتور طه هو رئيس اللجنة التى أودى أمامها امتحان
الدكتوراه فى الفلسفة فاعتذر وأتاب عنه وكيل الكلية الأستاذ « محمد
شفيق غربال » •

وأراد الدكتور طه أن يصرف الجمهور عن حضور امتحانى ، فأعلن فى
جريدة الأهرام أنه سيلقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية عن « فكاكات
الجاحظ » • ولكن محاضرتة ضاعت عليه ، فلم يحضرها أحد بالرغم من
الاعلان •

وفى الساعة السابعة اتصل تليفونيا بإدارة الكلية ليعرف النتيجة
ويا هول ما عرف ! لقد عرف انى ظفرت بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة
برتبة الشرف ، فما كنت أنتظر أن أظفر بدرجة علمية يمضيها أحمد
لطفى السيد ، وطه حسين ، وهو من كبار خصمائى • أخذت هذه الدرجة
بالقوة ، قوة البحث ، قوة كتاب التصوف الاسلامى • وهو كتاب أشقيت
نفسى فيه تسع سنين • انه كتاب لم يسبقنى اليه سابق ولن يلحقنى فيه
لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتى يؤلف كتابا مثل هذا الكتاب •

♦ وكما قلنا من قبل ، قال : « كنت ألقى دروسا مسائية فى تدريس
اللغة الفرنسية بمدرسة اليانس فرانسير ، وكنت أخرج مكدودا بعد
ساعتين من الدرس • دخلت البيت ، فوجدته فى سكون على غير المألوف ،
فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لاتريد أن ترانى لئلا اقرأ فى
سطور وجهها أن (أحمد) مات •

أويت الى فراشى ، وهو يقع فى الدور الثانى من البيت ، وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجت • ان للشكل طعما مرا غاية المرارة • وكفنته بيدي • وحملته الى مشواه الأخير • »

« زكى مبارك فى أيامه الأخيرة »

ولقد كن زكى مبارك - فى أيامه الأخيرة - يرتاد الجامعات والأندية الأدبية وقد خلا أسلوبه من رفعه وصفائه • فاذا به يغنى ويصرخ ويضحك ولكن هذا التوقد فى كلمات زكى مبارك لم يكن الا مقدمة لانطفاء هذه الجذوة المتوهجة •

وفى هذه الفترة اخذ زكى مبارك - يهمل ملابسه وكتبه وانتساجه ويظهر ان مكتبته أصابتها الفوضى ، كما ذكرت بعض الصحف ورسمت له عددا من الصور الفوتوغرافية - فى برجه العاجى ، وقال المحرر :

« برج الدكتور العاجى مؤلف من خمس غرف وصالة كبيرة • ويضم أكثر من عشرين ألف كتاب ، وضع بعضها فى نحو ثلاثين دولابا ، ووزع البعض الآخر فى أركان الغرف وبقرب النوافذ والمقاعد ، وعلى الأرض • وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنو منه • ولهذا فان التراب وبقايا السجائر مازالت فى مكانها تزيد وتتكاثر منذ عشرات السنين • وكثيرا ما يهبط الوحى على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت من الشعر ، ثم لا يجد فى هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء ، فيسارع بتسجيل الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ ، أو جدران الحائط • وكثيرا ما غرق (التليفون) بين المجلدان والأوراق فلا يعثر عليه الدكتور الا بعد جهد جهيد •

وفى السنوات الأخيرة كان الدكتور مبارك يقيم طوال يومه وحتى منتصف الليل فى قهوة أمام ميدان التوفيقية • وقد أعفى نفسه من مهام العمل فى وزارة المعارف • ولم يعد يكتب الا كلماته فى البلاغ • فكتب « التاريخ قبل أن يذهب التاريخ » ، تحت عنوان : « الحديث ذو شجون • »

اليوم الأخير

توفي زكى مبارك يوم « ٢٣ من يناير ١٩٥٢ » بعد عملية جراحية كتب لها النجاح وقت اجرائها ، وجاءت نهاية أجله بعدها بساعات وفاضت روحه بمستشفى الدمرداش ، بينما يسير مع اصدقائه فى شارع عماد الدين ، فى مساء اليوم السابق لوفاته . اذ اصيب باغماء مفاجئ أدى الى سقوطه على الأرض ، وأصيب على أثر ذلك بجرح فى رأسه فحمله مرافقوه الى منزله بمصر الجديدة ، فى سيارة خاصة • وظل غائبا عن الوعي حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى • وكان كبار الأطباء قد أجمعوا على ضرورة اجراء عملية تربية فى الحال • فنقل الى مستشفى الدمرداش وتمت العملية بنجاح • الا انه أصيب من جراء سقوطه بارتجاج فى المخ ، أدى الى مفارقة الحياة ••

وهكذا تحطم المخ الذى طالما كتب ، وصاوى ، وقاتل ، وساجل ، وأثار الدنيا • وكان آخر حديث له فى جريدة البلاغ وآخر كلمة له • هى : « أن (أحمد محبى فؤاد) يذكر فى خطاب له أن زوجته تستغرق فى الضحك ، حين تقرأ مقالاته ، ثم تبكى بعد ذلك • ويطلب توضيحها لهذه الحالة الغريبة • والجواب عند زوجتك يا سيد فؤاد » •

وفى هذا المقال ، قال زكى مبارك :

« أنا مسافر الى الاسكندرية • فهشونى يا قرائى ، سأرسل الى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتى • فعل سافر معناه بالفرنسية : « قطع الرجل جزءا من حياته • » لأننى مفتش المدارس الأجنبية بمصر • وسأذرع فضاء الله من الشمال الى الجنوب •

وكان يقال من علمنى حرفا صرت له عبدا • والدكتور طه علمنى ثلاثة حروف : ألم تسمعوا أننى دكاترة ؟ ••

الدكتوراه الرابعة من جامعة الاسكندرية • وقد أعددت البحث • وسأنجح • فان تجاهل الأساتذة منزلتى ، فسأهجوهم فى البلاغ ، وهى فرصة لمقالة آخذ بها دنائير ، •

وقد رثاه محمد عبد القادر حمزة (باشا) فقال : « كان كنزا من كنوز الأدب العربى ، لا أظن أن مصر سترى له مثيلا بعد عشرات السنين . كان هدية القرية المصرية الى الجامعة الازهرية ثم الى السربون ثم الى الجامعة المصرية . »

خلة الوفاء ظهرت فى زيارته للعراق ، وبلغت أرقى صورها . اذ كان للفقيه الكريم قطعة من النبوغ المصرى والوفاء ، لم يلبث أن جعل له ولبلاده فى العراق من نباهة الذكر وبعد الصيت مالا أظن ان العراقيين سينسونه أبدا فلما عاد الى مصر ظل اسم العراق لا يفادر قلمه ، حتى مات . »

وقال محمد زكى عبد القادر : « كان زكى مبارك كاتبا مطبوعا وأديبا (فنانا) وشاعرا موهوبا ، ورجلا انطلق فى الحياة كما تشاء الحياة . ولو أراد أن يكون صاحب جاه لكان ولكنه آثر أن يعيش بالعرض لا بالطول . أحب من الحياة شرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها أعمق ما يكون الحب ، دخل مرة ، والجمعية العامة لنقابة الصحفيين منعقدة . وفى القاعة أكثر من ثلثمائة صحفى ، مشغولين بالانتخابات . وأخذ الأديب الكبير يغنى . ولفت البعض نظره الى أن هذا ضجيج وعجيج . ورجاه أن يكف فابتسم ابتسامته الرقيقة البريئة . وقال : « كيف اغنى يا أخى . . »

كان زكى مبارك يكتب لنفسه . وهذه هى سمة القوة فى الفن . ام يحاول أن يزوق أو يلبس عمامة الواقع أو يدعى أنه رجل لا يأثم . .

وصور محمد بيومى الجنيد العقدة النفسية التى جعلت من انتاج الدكتور زكى مبارك فى بضع السنين الأخيرة انتاجا سطوحيا ، والتى جعلته ينطوى على نفسه فهزت من كيانه . ولكنه كان يغالب دهره ، ويحاول الصمود أمام الزمان . وكثيرا ما كانت مقالاته فى العهد الاخير مرآة تنعكس عليها أحاسيسه ، فيشكو ثم يشكو ، ثم يعود اليه صحوه فيرى نفسه على حقيقته ، أديبا ملأ الدنيا أدبا وعلما . وأضاف الى المكتبة العربية ثروة ضخمة هى عصارة ذهنه سنوات طوالا . »

وبعد !

هل أستطيع أن أقول اننى استطعت أن ارسم صورة لحياة زكى مبارك ودراسة لأدبه ؟ ..

الجواب : اننى لم أبلغ الغاية التى ترضينى • وانما أردت أن ارسم صورة خفيفة الظلال غير عميقة لهذا الكاتب الذى يمثل جانباً قوياً من جوانب أدبنا المعاصر ، والذى مضى منذ عشر سنوات ، دون أن يجد من يكتب عنه كلمة ، أو يعرض سيرته وأدبه للناس ، بعد أن كان يملأ الدنيا ويشغل الأدباء والمفكرين ••

لقد كان فى منهجى أن أعطى هذه الصورة ، وأكتب دراسات عن أولئك الذين نسيهم الناس وغفل عنهم أقرانهم وزملاؤهم وقد بدأت بالزهاوى • وأرجو أن أكتب دراسات أخرى عن أعلام لم ينالوا ما هم أهل له من تقدير •

ولقد حاولت أن أصور (زكى مبارك) دون تحيز أو مجاملة • لم أجعل لعاطفتى كبير دخل فى دراسته • وقد كبحت جماح مشاعرى عنه حتى يظهر بخيره وشره ، دون عدوان عليه أو مبالغة فى تقديره •

فهل ترانى وفقت فى رسم هذه الصورة ؟ ••

ولقد جعلت لكلام زكى مبارك المقام الأول فى هذا البحث وحاولت أن أجعله يرسم الصورة بنفسه دون (رتوش) •

كان زكى مبارك منبسط الأسارير ، ذا عينين خضراوين له جسم متوسط الطول ، متين التراكيب • يقول « ورثت خضرة العينين عن أمى ، سقى قبرها الغيث » •

وقد وصف نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذى يخجل من أن يقول فى السر ما يعجز عن قوله فى العلانية • وهو يعيش فى وطنه عيش الغرباء • وليس لديه من الوقت ما يمكنه من زيارة الشواطئ وقد شغل وقتسه

بالإيف والنصحيح ، من الصباح الى منتصف الليل • ووصفه خصومه بأنه
غير مصقول •

ويقول : انه سيموت قبل الأوان بسبب الاسراف فى الطعام والشراب
ووصف النقاد أدبه بأنه أشبه بالعواصف (١) الثائرة ، غير انها تهـدم
لتبنى ، وتقلع لتنبث شجرا ثمرا طيبا •

يفخر بأنه فلاح لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء ، وعندما بدأ
حياته صوفيا كان كثير التساؤل عن كل شىء • وكذلك عاش موصول النقاش
واللجاج •

وصف نفسه بأنه يعشق جميع الصور ، ويهيم بجميع المعانى ، وظواهر
الوجود • صور شعرية تموج بألوان السحر والفنون •

وهو يرى أن توهج الشيب فى رأسه لم يخمد نار شبابه • يخيفه
البحر أعنف الخوف ، ولكنه لا يخاف الفرق ، انما يخشى الدوار الذى
عانى أهواله عشرات المرات من عبور البحر المتوسط من الاسكندرية الى
مرسيليا •

يرى أنه وقف لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد • مزق أوهام
الخوارج عن العروبة والاسلام شر ممزق ، ودحر من سولت لهم أنفسهم
أن يتناولوا على ماضى الأمة العربية وعادى من أجل الحق رجالا ، يضرون
وينفعون • ولا ينظم الشعر الا اذا جاشت نفسه وفاض قلبه •

أبرز مظاهر أدبه ، العنف ، والوصول الى آخر الشوط فى الاعجاب
أو الكراهية • يؤمن بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها الا
للرجل المنفرد • وهى أشبه بالغوانى تنفر من الصاحب والشريك •

يؤثر الأدب الضريح المكشوف على الأدب المقنع الهيب • يرى أنه
لولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين • يرى أنه لم يكن الا طيفا
زار فى السحر ساقية الكرخ • وفى بغداد أحب العراق • ومن أجل
معبه شراب ماء الفرات صرفا ممزوجا بالطين فرآه أشهى من الرضاب المعسول

(١) من مصطفى سلامة (مجلة الثقافة)

من طرائفه أنه فى خلال زيارته لبعض أنحاء العراق رأى نباتا اسمه
(الهعخع) الذى يذكر اسمه فى مقدمات كتب البلاغة يقول : « وقد بلغته
تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف »

ويرى أن كتاب التصوف الاسلامى ، هو خير ما كان وما سيكون فى
التعبير عن العبقرية العربية •

ومن عباراته الجميلة قوله : « لقد سمعت أنك بعث دارك بثمان بخص
لتسد ديونك فهل علمت أن لك عقبى الدار ؟ »

وهو يؤمن بأن العزلة أصبحت طبيعة ثانية له لا يمكن منها الخلاص
وأنه ما دخل بلدا الا أذاع ما فيه من محامد ومناقب •

وعنده أن المجد أعظم من الحب • وأن المجد هو الذى يسوق أسراب
الملاح صاغرات •

وقد عرف زكى مبارك بالولع بالعبارات الفرنسية يضعها بين السطور
دون أن يترجمها • وكان يكتب اسمه : (محمد زكى عبد السلام) •
ويطبع مؤلفاته على حسابه فى الاغلب ويوزعها فى البلاد العربية • • وقد
غنى بصوته فى الاذاعة قصيدة « غرام يوم الثلاثاء » • •

ومن عباراته : أن المستميت لا يموت • فأبرز فنون أدبه : الجدل
والسجال • ويوصف أدبه بالحماسة ، والاندفاع العاطفى ، والحديث
عن النفس • وقد كان يرى أمامه صورة رجل واحد ، يريد أن يكون
نده وقرينه ، وهو طه حسين •

وبعد • فهذا زكى مبارك بحسناته وسيئاته • أردت أن أعطى صورة
منصفة صحيحة عنه بخيره وشره ، أردت أن أرسم له صورة كاملة ، لم
ألجأ الى التحليل كثيرا ، ولكنى تركته هو يتكلم ويرسم الصورة ، صورة
الانسان ، بضعفه وقوته ، فى أوج قوته وشجاعته ، وفى ساعات ظلمه
واحساسه بالكرب ، وشعوره بأنه مغبون لم ينصف •

ان عيب زكى مبارك ولعله من حسناته أو علامات الخلاف بينه وبين

كتاب جيله أنه كان كتابا مفتوحا صريحا ، سجل كل شيء ، ولم يخف عنا شيئا من حياته العامة والخاصة •

أما غيره ، فقد أظهر جوانب القوة ، وأخفى جوانب الضعف •

ان عيب زكى مبارك أنه ترك لنا مذكراته فلم نكن فى حاجة كبيرة الى البحث عن خفايا حياته • لذلك لم يكن هذا الكتاب الا تنسيقا لآرائه وتقديمها فى صورة تعين على رسم صورة لحياته وشخصيته •

ولم يكن من الممكن أن نتجاهل شيئا من الصورة ، لأنه سجلها بقلمه :
سجل أهواءه مبادئه •

ولكنك حين تقرأ هذه الصفحات قراءة انصاف ، تراه عظيما ، وترى صراحته ونقاءه واضحين فى كل حركة ، حتى فى مجونه وشماسه • فانه يجعلك تنظر اليه فى ثقة ، حين تراه يحدثك عن كل شيء فى جرأة ودون خوف : « ان الذى يخدعك هو الرجل الذى يخفى عنك أشياء ، ويظهر أخرى • انه الرجل الذى يدارى أنيابه ، ويبدو لك فى صورة الوقار والسماحة وهو مطوى الاضالع على الغل والحق •

لقد كره مبارك هؤلاء الناس ، وأراد أن يغير التقليد ، فيبدو لأول مرة فى تاريخ أدبه المعاصر الأديب الواضح الصريح فلنعجب به ولننظر له على أنه انسان يخطئ ويصيب ، كل ما هنالك أن الناس الذين نعرفهم قد توقروا وأخفوا عنا حياتهم الخاصة ، أما هو فكان كبير الثقة بأننا لا نزدريه عندما يكشفها لنا •

ان « زكى مبارك » فى حقيقة أمره يصور جانباً قويا من تاريخ أدبنا العربى المعاصر وهو مرآة لجيل كامل • فاذا تساءلنا : هل مات أدبه ؟ قلنا : لم يمت • وعندى أن أدب زكى مبارك سيحيا لأن كاتبه حارب الاستعمار • فقد ذهب الى فرنسا وعاد ، وما زالت أماته لأتمه أكبر من أماته للغرب • ولم تحص عليه كلمة واحدة انحرف فيها الى دعوى التغريب ، بل لعله كان قد ازداد عمقا فى فهم القومية العربية والايمان بوطنه الكبير •

ولم يكن زكى مبارك صنيعه حزب من الأحزاب • ولم يكن له سناد

من الأسندة التي رفعت كثيرا من الأدباء في مصر • فهو يرى أن أحدا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطي والعقاد • وكما أعز ثروت أدب طه حسين • وكما أعز محمد عبده أدب حافظ • ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ، ولم يصل الى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفة اذ ذاك •

وزكى مبارك ، الى هذا ، له قدرة واضحة على تصوير الشـمائل والأحاسيس ، وقد خلق فنا جديدا ، لم يصل الى مباراته فيه أحد ، وفي أسلوبه رصانة وبلاغة ، يمتزج بالبساطة والطرافة • وما من موضوع علمي يطرقه ، الا أحسست انه يمزج الجد فيه بروح الفكاهة فاذا انت تسر منه ، ولا تخشاه • وقد اخترع آفاقا جديدة في الكتابة الرمزية • كما ابتدع نماذج ، جرى على لسانها ما عجز عن قوله صراحة •

وقد غضب عليه الكثيرون - ومنهم المازني - لأنه على حد قول المازني « يحشر في كتبه كل ما يسمعه من الناس ، في مواطن الجـد والهزل • ولا يعنيه انه يسوءهم ان يروى عنهم ما يمضون به أوقات الفراغ في مجالس السمر أو اللهو » •

ويلق زكى مبارك على ذلك فيقول •• « ولنفرض أن في تعقب هفوات الناس متعة لبعض الأهواء • فهل غاب عن أذهان الكتاب أن المجالس فيها من الشعر والجاذبية ما لا يوجد فيها من العيوب ؟ »

ان هناك أرواحا تشوق الى تعرف الكرم والنبل في الشمائل والخصال وتشتاق الى معرفة الجوانب القوية من أخلاق الرجال • فلا يظن أحد اننا نعق الصدق حين تتغاضى عن سرد العيوب • فنحن نعرف أن العصمة لله وحده ، وان في كل امرئ مغمزا ، ونعرف بجانب ذلك ان الخير في الانسانية اقوى من الشر ، وأن الانسان بطبيعته مخلوق نبيل ، لا يغيره عن الفطرة الا أصدقاء السوء من الناس ومن الأراء • •

وهو في كل مكان يحل فيه ، نجده يخزن لأدبه ، ويعب من رحيق

الحياة ، ليحيل ما يرى فنا من فنون الأدب فاذا ذهب الى بحيرة التمساح ،
ابان احتلال منطقة القناة ، وتطلع الى قلمه ، فانه يقول :

« وقفت على شاطئ بحيرة التمساح وقفة الغريب .. »

.. ما اشقى أن يعيش المرء في بلاده عيش الغرباء • فهلا تصدقون اني
لم أستطع التفاهم مع من رأيتهم على ذلك الشاطئ الا باللغة الفرنسية ؟
زرت ذلك الشاطئ مرة قبل نصف الليل ، فرأيت مكانا تأتلق فيه
المصابيح • وكان في نيتي أن اركب زورقا لأشهد جمال الليل في بحيرة
التمساح • ثم رجعت عن تلك النية • عز على ، أن تشهد مياه تلك
البحيرة مصرياً يلهو ، خشيت أن تسألني مياه تلك البحيرة عما أملك من
سفائن • خشيت أن أجهل مصري في تلك المياه فاعتصمت بالشاطئ •

وهو يصدق حين يقول : « وأوصى بزيارة البحر من حين الى حين •
فهو من أقوى مصادر الايحاء • وهو الذي فجر ينابيع الشعاعية في
صدرى • فقد عبرته أربع عشرة مرة في ذهابي وايابي من القاهرة الى
باريس » •

فاذا ذهب الى الصعيد بغية التفتيش على المدارس لم ينس قلمه ، ولم
ينس الأدب ، فهو يسجل ملاحظاته وآراءه •

« قطار الصعيد » ..

« في هذه اللحظة أشعر بالندم على أنني ركبت القطار السريع ، ولم
أركب القطار (القشاش) • وهو القطار الذي يقف في جميع المحطات ،
ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء • • يمر القطار السريع على قرى
الصعيد مرور الطيف • فلا يكاد المسافر يتذكر أن في كل قرية من تلك
القرى أرواحاً وقلوباً ، ولأهلها تاريخاً أو تواريخ • • هذه منارة تدل على
مسجد • فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كان لها أياد بيض في حفظ
العلوم الاسلامية ؟

وذاك فلاح يناجي الأرض مناجاة الحبيب للحبيب ، فأين من يذكر أن

الفلاح المصرى قد يكون أخوف الناس من الله ثم لاتمنعه تقواه من انتهاب
شبر أو (فتر) من أرض الجيران » ♦

وقال : « أحبك يا وطنى • أحبك • أحبك باعظم مما أحبك مصطفى كامل ،
ومحمد فريد ، وسعد زغلول • • أحبك يا وطنى وأستعذب عذابى فيك ♦
لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال ♦ لم يعان أحد من الظلم فى
وطنه ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم الأليم الا عرفانا بجمال وطنى ♦
وهل رأيتم جميلا غير مظلوم ؟ »

وهكذا : الصدق هو أول ميزة لأدب زكى مبارك ♦

ركما قلنا من قبل ، فان من الصدق ، قوله : « يسرنى أن أسجل
اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها ، وجدتها ♦
فحفظت قلبى سميما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال ♦ وهو يصور
مشاعره بالنسبة لكل ما يراه ويربط بين مرائيه وبين الأدب » ♦

« ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بانى لم أر الطاووس وهو —
ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين • • ولقد احيا فى نفسى هذا
المشهد حسرة قديمة طالما عذبتنى بصنوف الآلام ، لتقصيرى فى دراسة
الطير والحيوان ، ثم سكنت قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى فى دراسة
الحيوان جملة واحدة ، فقد اهتممت بدراسة الحيوان الناطق الذى اسمه
الانسان ♦

على أن الأدب الذى شغلت بدرسهِ ، وقضيت فيه أنفُس أعوام شبابى
ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق واحلامه ، وتصوراتهِ وكيف
يحب ، وكيف يحقد ، وكيف يخطئ ، وكيف يصيب ♦

وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدسائس والكائدين واللثام ،
فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان ، وطبائعه ، وميوله ،
وأطماعه » ♦

وهو صادق الايمان بوطنه ، وبالأدب العربى ♦ يردد اسمهما فى كل
وقت اذ يقول :

« الى الادب العربى يرجع الفضل فى تاريت البطولة العربية » •

وكان يرى « ان اعظم مجد لمصر هو ان تستطيع التفاهم مع الأمم العربية الاسلامية فى الشرق لتتخذ منهم دروعا حصينة ، تقى اللغة العربية عدوان اللغات الأجنبية • وهو يرى أن أدباء اليوم تغلب عليهم « الحذر والتهيب • وقد ابتلتهم المدنية بضروب من الصقل والتهذيب » وهى شارة العبودية ، عند من ينظرون فى البلاد أنهم يجعلون الأدب مذهباً من مذاهب العيش • والذى يتأدب ليعيش يظل طول دهره ذليلاً جباناً • لا يصلح لجidal ولا نضال ، ولا يلين قلمه الا فى مدارج الرياء •

وهكذا يبدو أدب زكى مبارك فى صورة الصراحة والصدق ، ويصل فيها الى اقصى الحدود ••

بل انه يرى ان الأدب عند بعض الأدباء ليس الا وثبة وصولية ، يحققون بها غرضاً • تم ينتهى الامر •• يقول : وكبار الأدباء فى مصر لم يعد لهم الا الظفر بالراحة وبلهنية العيش ، وهم ينظرون الى الادباء المجاهدين نظرات لا تخلو من الشماتة والازدراء • وكاد الجمهور يطمئن الى أن الأدب ليس الا وثبة وصولية يصطنعها من رزقهم الله حاسة المعاش •

وبعد • فان جملة القول أن « زكى مبارك » قد عاش أدبه بطبيعته الريفية بكل ما فيها من صراحة وخشونة وصراع • ولذلك وصفه البعض بأنه غير مصقول • وقال عنه اخرون انه الملاك الأدبى لثقافتنا الحديثة • ولكن زكى مبارك الريفى النزعة لم يكن عنده غير الخشونة والعنف والصلابة • وهى صفات ربما كانت تحمل محمل النقد • ولكنه كان ريفياً أيضاً فى صدفه وبساطته وصراحته ، وريفياً أيضاً فى نقاء قلبه وبعده عن الأحقاد ، وإيمانه الصادق بالرأى الصريح ، والنأى عن الذلة والنفاق •

فلما حاول زكى مبارك أن يصل الى أرقى الدرجات ، ووجد من الموانع ما حال بينه وبين ذلك ، ذهب بقوته الذاتية ، ولم يعبأ بأى معوق ، بل انه فعل ذلك وهو زوج ، وله أولاد • قد يقال انهم ربما يمنعون الرجل - أى رجل - عن الاندفاع فى مغامرة لا يعرف لها غاية •

واستطاع ان يصل الى ارفع الدرجات العلمية • ولكن صراحة زكى مبارك واعتزازه بكرامته ، وصدقه ، وبعده عن النفاق ، وصلابته فيما يؤمن به ، وطبيعته الريفية بما فيها من عيوب ومحاسن قد أبعدنه عن تيارات الأحزاب ، ومن ثم لم يستطع أن يصل الى مكانه الحق ، حيث كان التابعون للأحزاب من العلماء والأدباء والموظفين هم الذين يصلون وحدهم • على حين انه كان قد سدت أمام ذوى النزعات الاستقلالية أو المبادئ القومية - بعيدا عن مواطن الشهوات الحزبية - أبواب الرزق أو مدارج الرقى •

فلما اندفع زكى مبارك مرة أخرى ليحصل على اجازات أخرى من الدكتوراه لم يزد ذلك شيئا ، ولم يحقق له آملا من آمال الوصول الى المكان اللائق به •

هنالك انفجرت نفسه فى صيال مستمر ، ومعارك متصلة بينه وبين ادباء جيله ، اراد بها أن يؤكد شخصيته ، ولم يكن فى بعض هذه المعارك متجنيا ، وانما كان قد حيل بينه وبين الرزق صراحة ، فكان لذلك أثره فى نفسه •

فلما تعددت هذه الصور على أيدي وزراء المعارف ، الذين كان قد صاولهم ، فحملوا فى أنفسهم له السخيمة ، اهتزت شخصيته اهتزازا عنيفا فمضى ينحرف عن طريقه ، ويفرب فى هذا الانحراف ، ويدارى عقله الواعى بحجب جديدة ، هنالك مضت حياته مظلمة كثية حتى انتهت فجأة على نحو بالغ القسوة •

ولكن ذلك لا يمنع من القول ان أدب زكى مبارك كان فى خلال حياته كلها - حتى فى ابان أزمته النفسية - صادقا صريحا قويا ، فيه الايجابية والوضوح •

ويمكن أن يوصف أدب زكى مبارك بأنه أدب القوة والايجابية • وهو فى مجموعه ، حيث يرسم وجهها جديدا ، فيه القوة والجرأة والصراحة والنزعة العاطفية •

ولذلك ، فهو لن يموت • • وسيحيا • • ومستبقى ذكرى زكى مبارك طيب الله ثراه •

فهرس

الموضوع	الصفحة
حياة زكى مبارك وأدبه	٣
مطالع الحياة	٧
منتريس بالمنوفية	٧
فى منتريس	٩
أبى	١٠
مطالع الحياة فى الأزهر	١٣
من رسائل المعتقل	١٦
ذكریات طالب اشترك فى الثورة	١٧
حياته فى الجامعة	٢٥
فى باريس	٣١
فى السربون	٣٥
فى بغداد	٣٩
ملاحع شخصيته	٤٢
غربة القلب	٦٣
الشاعر	٦٦
مبارك السكاتب	٧٢
أسلوبه ومنهجه فى البحث	٧٨
وجدانيات مبارك	٨٤
آراء زكى مبارك	٩٣
فى الأدب العربى الحديث	١٠٥
زكى مبارك والتصوف	١١٠
فن جديد فى الكتابة	١١٦
خصومات مبارك ومعاركه الأدبية	١٢١
أضخم معركة خاضها زكى مبارك (المعركة مع طه حسين)	١٢٤

الموضوع	الصفحة
قصة أحمد الله إليك	١٤١
ذكر مبارك في معركة مع أحمد أمين	١٤٦
معركة مع السباعي يومى	١٥٢
مع العقاد	١٥٥
زكى مبارك مع سلام موسى	١٥٧
زكى مبارك وشوقي	١٥٩
مع لطفى جمعة	١٦١
الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة	١٦٤
زكى مبارك والرافعى	١٦٨
المعلم الذى آثار المتاعب	١٧١
أيامه الأخيرة	١٧٥
زكى مبارك فى أيامه الأخيرة	١٨٣
اليوم الأخير	١٨٤
وبعد	١٨٦



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عسبة - روض الفرج

٤١٠١٤ / ٤٠٧٥٣ } تلفون
٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }

Bibliotheca Alexandrina



0393401